

سيد قريش

رواية تاريخية اجتماعية

في ثلاثة أجزاء تبحث عن حياة العرب السياسية
والاجتماعية في العصر الجاهلي الى ظهور
سيد قريش محمد صلى الله عليه وسلم

تأليف

معروف الوردناووط

عضو المجمع العلمي العربي

الجزء الاول

سطيح

طبعة جديدة مصورة

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

obeikandi.com

كلمة شاعر القطرين الأستاذ خليل بك مطران في سيد قريش

الى المرسل الفدير الأستاذ الأكبر السيد معروف الازمأروط

وردني كتابك فهو أول ما وقع عليه بصري اثر فراغي لساعتي من قراءة روايتك الشائقة التي توجهتها بعنوان « سيد قريش » ، واني لمعتذر اليك عن ابطائي في انجاز وعدي اعتذاراً احسبه خير تفريط لتلك القصة فقد اكبرتها منذ وقوفي على صفحاتها الأول عن ان اعبرها عبراً ، ومضيت في مطالعتها كما تطالع كتب المدارس والاعتبار بما يخلق بها من الروية . ولا اسهب بجانب هذا في ذكر ما شغلت به منذ عودتي من تراكم الاعمال اليومية ، وتراكم المعضلات الكثيرة الطرء في هذه السنة ، تناهب وقتي ، ولا تذر فسحة لما هو اسمى من تكاليف العيش ، ومتاعب ادنى الرزق . فلولا هذه العوائق ، وان الطبعة الثانية قد آذنت بالظهور كما اخبرتني ، لكان من دواعي الارتياح لي ان اتوفر على مسيرتك خطوة خطوة في تتبع ماضته ذلك السفر الممتع ، من روائع الحوادث ، وبدائع المشاهد ، على انني سأبادر الى كتابة ما خطر ببالي ؛ وجاش في صدري ، بالقدر الذي يسعه ما أشرت اليه من الأحوال . وارجو ان تجد في كلمتي هذه جزاء ، وان يسر ، على ما احتملت من مكروه المعاناة لانشاف لغة الضاد بدرة من انفس دررها .

قصة موضوعه تسلك في سياقها اخبار اكبر حقبة تمهيدية مرت في تاريخ العرب من بدء الموجه المنخفضة التي ذهبت في نهايتها بكل عزة ومنعة لهم في العراق والشام الى بدء الموجه المرتفعة التي قامت على ذوابها النبوة تشارف العالم من صحراء الحجاز المحرقة ومن مرتضى قدد الاصنام المحطمة في الكعبة ، تلك لعمر الحق اذكي نتيجة

للمقدمة التي وضعها في احياء الفصحى وتجديد الادب الكبير اولئك الاساطين من رجال بعثتنا اللغوية والبيانية في خاتمة القرن الماضي وفاتحة هذا القرن .

لقد اذكرتني روايتك في سردها الشهى المحكم اكثر ما انستيه الايام من وقائع ذلك العهد العظيم ، وانا رت لي منه نواحي غامضة ، ووصلت في بعض ماوصلت سلسلة من الأنباء منقطعة ، وعلمتني بما اخرجته الى اليقين من مختلف المظنات مالم اكن اعلم ، فان كان هذا شأني وقد سلخت اربعين حولاً في المطالعة والمراجعة بين تلك المظنات ، فما اجدر السواد الاعظم من قومي ، وهو مـاهو في جهل اظهر الخلفات من سير آبائه واجداده الاولين ، ان يقبل على كتابك فيقف على ما انتظمه في عقد فريد من تلك السير الاخاذة بالالالباب المحركة لأبعد النوازع غوراً في السرائر .

تفتح القصة على النحو الروائي الجميل الذي نحاه المبرزون في هذا الفن من

الغريبين فاذا علقنا بسبب منها قطعة علينا في الظاهر ، وهو في الباطن متصل ، لتبدلنا بنبذة ، أنا تقصر وأنا تطول ، تنضو بها الحجب عن يوم من ايام العرب او عهد من عهودهم في ضرب من الحكاية يكاد الجديد الحسن من السبك فيه ينافس العتيق الحسن ، فاذا استوثقت من انك مهت بها تمهيداً وافياً لعود على بدء ، عدت ولم يجاوزك التوفيق ، وبهذا الاسلوب تتمشى القصة الى آخر الكتاب بين تلك الحوادث المتعاقبة ، ما اطمأن منها وما شرف ، ما شف منها وما كثف ، ما تعاظلم منها وما تباسط ، كما يتمشى الجدول من منبعه بين الرياض والرمال ، بين المروج والادغال ، بين الاودية والجبال ، ظاهراً او خافياً ، صاحباً او شاكياً ، منحدرأ او متعالياً ، مقارباً او منائياً ، مضاحكاً او مبكياً ، مخادعاً كالآل او ساقياً ، لاتفارقه العين على حالة حتى تراه على اعجب منها الى ان يبلغ مصبه وقد شفى من الجوارح كل غلة ، وفتن الأبصار بكل روعة . نوع من الغرر القصصية جاريت فيه مؤلفي الروايات الخيالية المحضه في احسن طراز لها . كما جاريت مؤلفي الروايات التاريخية فيما عدا الأدماج ، فقد اربوا فيه افكار المطالعين وكفاهها تقسيمك الريب بواضح

من الفرق بين الحقيق والموضوع .

هو سفر وكم من سفر جمعه فيه . تأخذ النسق والترتيب من معاهدتهما في مباحث كل قيم من الفرنجة بأخبار العرب في تلك الحقبة ، فلا يفوتك في مكان من ذلك السياق تستصلح له نقل قطعة برمتها من مرويات علمائنا أو أدبائنا أن تفعل ، ويسعدك التصرف بما لا يبعدك عن غرضك ، وحيث تؤثر الترجمة تترجم بأحكام كأنك القائل الاصيل ، فالمادة بين يديك كانت فيحاء ، متشعبة متناثرة ، بين عشرات من المجلدات الضخام ، وآلاف من الصحف المختلفة اللسان ، لا يكاد ذهن فرد يحيط بها ، وكنت اذن حقيقاً بأن تقف منها مواقف حيرة ، فلم تقفها الا قليلا ، واتسق لك اليان والتهيين في مخضل نير عجيب . فئن كان المجهود الذي بذله عظيما ، لقد بدا لنا منه بما لا يقل عظماً عنه ، لطف اختيارك ، وصفاء ذهنك ، وتغلب عبقرتك على الصعاب ، ويظهر جلياً لمن تصفح تلك الأجزاء الثلاثة ، حين يستحضر جملة ما تضمنت ، أن عاملين شغلاك من مبدئها الى نهايتها ، وان كلامك قد تساوق تحت وجهها تساوقاً لا مرأى معه في انهما صادران عن مصدر واحد في ضميرك : هو مصدر ابتغاء الخير لأمتك فوق كل شيء .

الواصل الاول هو ذلك الايمان الخالص ، المالي . جوانحك ، الراسخ في قرارة نفسك برسالة سيد قريش ، وبعظم ما ندبه الله له ، وبنعمة الحرية التي هيئت للعرب على يده ، وبجلال الفتح الذي فتح به ابواباً تتدفق منها سيادتهم على الخافقين ، وفي هذا المعنى أوشكت كل كلمة من كلماتك أن تستعر بحرارة عقيدتك ، والله ما تفعل العقيدة اذا ما تعاون في خدمتها قلب صادق ، وعقل حصيف .

يبدأ الراهب بحيرا فيبشر بني قريش في الفصل الاول من الرواية ، وفي كل فصل يليه تتناقل البشرى السنة اخرى . فحيثما اعضل امر للعرب امر ، او بكى باك على حريتهم ، وهي نهب بين الفرس والرومان ، يكون باعث الهمم الخادمة ذلك النبأ السار عن النبي المرتقب حتى لقد يظن بعض المطالعين ان قوة ايمانك وشغفك

بالرسول افما صدرك فوق اثرهما من كل فصل في روايتك موقع التسليم من النعم
وقد تنوعت لحونه .

أما الذي يدري بما كان من الحالة الفكرية في تلك البرهة فيرى ان الكاتب لم
يجاوز الحقيقة ولكنه جرى في تكييفها على اسلوب خاص ملائم لمقتضيات قصته
فقد فشت بين العرب في ذلك الوقت فكرة النبوة، وكانوا كأنهم ينظرونها ، ومن
ثم قذف في روع غير واحد من اذكائهم ، كما دار في خلد أمية بن ابي الصلت ، من
اشخاص هذه الرواية ، ان النبوة قد تنزل عليهم فكثرت ادعياؤها وما لبثوا ان
بادوا تباعا سراعا حين انكشف للناس كنه امرهم ومثل هذا التوقع او هذا
التهيؤ الذهني لقيام نبي من العرب ، ما كان ليلخص في اروع مما لخصته مع لزومك
الحمد الذي رسمته لموضوعك .

اما العامل الثاني فقد عمدت فيه ، أخذاً عن ثقات الاخباريين ، الى جلاء
ما كان عليه نصارى العرب ، وما عندهم من شؤون مواطنهم ، وما مهد به أحبار
منهم بمختلف الوسائل لرسالة سيد قر يش وفي هذا المعرض ذكرت كلها حقت
الذكرى ، أصالة ذلك الفريق في العروبة ، وبلاءهم في النضال دون استقلال
بلادهم ، ووصفت حالاتهم الاجتماعية وصفاً سمحاً ، وفي كل ذلك توجيه رأي
أو تنبيه ذهن لقرائك ، على تباين عقائدهم ، الى أنهم عاشوا أخواناً أيام تلك المحن
الجوائح ، وانه لا ينبغي لبعضهم جهل كان لبعض من العمل الجليل في تأسيس
الملوك العرب في الأكر ، وأهم لا يفلحون في جلب الخير لهم وذود الضيم عنهم
تلقاء كائن من كان من أعدائهم ألا بقدر ما ترسخ في قلوبهم هذه الحقيقة ، وتنزع
بتلك القلوب الى المصافاة ، وحسن المعاشرة ، وفضل التأخي والتعاون لضمان السلامة
القومية ، يستخدم فيها كل عنصر من عناصرهم ما تمده به خصائصه لتتألف من
أشتات قواها تلك القوة العميمة العظيمة التي بها تعز الأُمم وتسود ، بدلا من
أن تستسلم الى النزعات المفرقة الموهنة فتذل وتسود .

بعد هذه النظرة العامة سأعتمد ، أيها المنشئ ، التقدير ، الى شيء من التخصيص في الكلام على النوع القصصي وعلى اللغة وعلى الروح الروائي في كتابك مما لا معدل عنه ، وأن قضت العجلة بالأبجاذفيه فأقول :

الفصل آثرت منه النوع المذموم عند الغربيين بالعبري ، أي الذي يجعل لأبطاله قدرة كأنها مستمدة من السحر ؛ وجعلت مدار الحادثة التي تخيلتها على ليلي عمدة الشاعر الملك امري القيس ، وما أته من الغرائب التي تداني المعجزات للآخذ بثأره فوفرت لها من الأيد والدعاء ، والشجاعة والفصاحة ، ما لا يتوافر عادة في أنسي . فربما ظن غير خبير أن هذا مأخذ عليك وليس بمأخذ . أن هو لمن تدبر ألا حيلة روائية ، حدثت بها حذو فريق من أرباب الفن ، أنمسا أراوا بجمعهم في علم فريد ، صفات اعلام متعددين ، أو في عمل امري قد ، اعمال جمهرة من الأفاضل ، أن يظهرُوا في صورة أقرب الى الإدراك جلائل الآثار التي تتخلف عن تلك الفضائل وتلك الأعمال .

الوصف — في الرواية ضروب من الوصف خلافة للألباب ، لو أردت الاستشهاد بموفقاتها لعدت هذه المقالة حدها الى مدى بعيد ، وهذا مجال بعدت غايته قبلك على المترسلين عندنا ، فمن وفق الى مثل اطلعك الواسع ، وقدرتك على التأثير ؛ وبراعتك في التنسيق ، تعابا عليه ذلك التقدير الحكيم ، والاستيعاب الممتع والأحكام الذي يمثل للبصر أدق ما رسمه البصيرة .

اللغة — فصيحة بجملتها فصاحة رائعة على أن في ناحية منها مفردات لم تحققها لاشتغالك بما كان أولى أن تكد خاطرك فيه ولعلك بأعادتك النظر فيها ستزيل شوائبها من الطبعة الثالثة ؛ كما تداركت الطبعة الثانية بالتصحيح والتنقيح ، فجاءت أقرب درجة الى السكال . وفي ناحية أخرى يلح اختلاف بين في الأسلوب الانشائي بين ما تعزوه الى العرب المتقدمين وما تنقله من كلامهم ؛ وبين ما تصرف فيه من مصطلحات التخاطب بينهم . وكان حقيقاً بأن يبقى على أصله أو يدانيه ، وفي

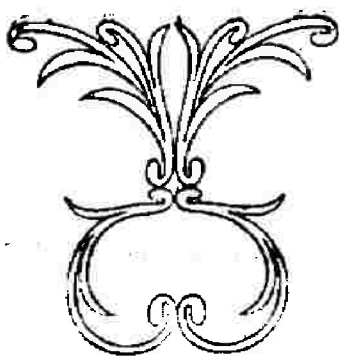
هذا الباب أراك قد ذهبت مذهب الروائيين الغربيين الذين كادوا يجمعون على أن المؤلف إذا قص عليك قصص قوم تغيرت لغتهم الأولى عما صارت إليه بعد رده طویل من الدهر فهو خلیق بأن يتخير لغة زمانه لتكون أغراضه أدنى الى أفهام الناس ، ومن الجهابذة من ذهب الى أجازة التصرف في المعاني نفسها على نحو كهذا بحيث يتخذ من قدم الموضوع وماله من المكانة في النفوس ذريعة لتحريك الشعور في قلوب القراء الى اغراض نبيلة من وطنية أو اجتماعية قد تكون مما لم يفكر فيه أبطال الزمن المعزوة اليه القصة . فعذرک قائم فيما آثرت الا حيث يقع تنافر كبير بين المتعارف في النوع الحديث من الخطاب ، والنوع الذي ألف الجمهور قراءته في كتب تلك الأيام أو في المنقول عنها .

روح الرواية — قال أديب فرنسوي كبير من المعاصرين في تعريف الرواية القيمة ماتعريبه بحروفه : أما وقد فرغت من تصفح الرواية فماذا استقر في ذهني من مادتها ؟ هل فعلت في نفسي أفاعيلها ؟ هل أحسست أنني راض عن أشخاصها مشارك لهم فيما طاب أو خبت من أمانهم ؟ هل أستبقيت لي منهم صديقاً ؟ هل أملت الامهم أو شاطرهم آمالهم ؟ هل يتاح لي النظر الى الأماكن التي وجدوا السرور فيها أو خباؤا سوء ما أصابهم في بعض نواحيها ، رجعة الى النفس كرجعتهم أو يتخالجني تأثر كتأثرهم فأعرف بهما ، وهما خير دليل ، ماهي قيمة الرواية من الجهة الانسانية ؟

وأقول أيها الأملعي المجيد: أتني وردت من روايتك مورداً عذبا ، وصدرت عنها أعرف (سيد قريش) كأحسن ما عرفته وأعجب بصناديد العرب كأحسن ما أعجبت بهم ، وأرعى لليلي والبارزين غيرها من أبطال تلك القصة ، أي للشم العريية التي تمثلها ليلي وأولئك الأبطال ، ودأ لا يسلي وعهداً لا ينسى . فحسبك هذا غاية في الأجادة والأبداع .

وسارقب «رواية عمر بن الخطاب، راجياً أن تزداد فيها المحاسن بما تضيفه منها التجربة الأولى الى ما أوتيت من علم فياض، وبيان بديع، فتحقق للناطقين بالضاد ماتعدهم به بداهة فطنتك وسماحة رأيك وبعد مرماك لسعادة امتك. تولاك الله بعونه فان عملك لشاق وأن الفخر لعلی قدر المشقة. سر به سيرك الموفق الى الأمام، وتقبل من المعجب بك زكى السلام. م»

« فليل مطرانه »



كلية الاديب الكبير الاستاذ شفيق بك جبري

مدير كلية الآداب وعضو المجمع العلمي العربي

في (سيد قریش)

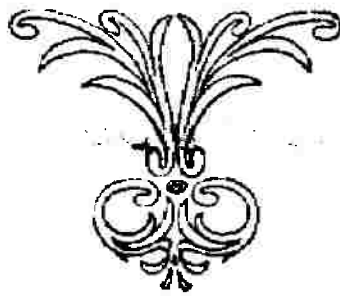
قال ابو العباس النامي في المتنبي " والنامي من خواص شعراء سيف الدولة :
كان بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي " وانا لما قرأت (سيد قریش) وأحطت
بحياة العرب وسياستها ، واجتماعها في جاهليتها الجاهلة ، خطر ببالي أن أقول في
الأستاذ معروف الارناؤوط ماقاله النامي في المتنبي : كان بقي من الأدب زاوية
دخلها السيد معروف الارناؤوط

وما هذه الزاوية الا زاوية الرواية ولقد دخلها الأستاذ معروف وتجبجج في
ساحتها ، فيأته وفيأها فما نكرت جانبه ولا نكر جانبها ، أعطته كل ماملكت ،
وأعطاه كل ماملك ، أعطته صوراً هامدة فأحيها ، وأرواحاً جامدة فحركها ، والواناً
كامدة فصفاها فأن شئت ان تشاهد شيئاً من حياة هذه الصور وحركة هذه
الأرواح وصفاء هذه الالوان فأرجع الى أي فصل من فصول سيد قریش : اني
لا ادلك على موضع من مواضع روعتها ، فأختر لنفسك ماشئت من فصولها في
الغساسة والمناذرة ؛ والقياصرة والأكاسرة ؛ فأن كان في قلبك غم لم تفرجه
فأرجع الى فصلها في شاعر الغساسة ، انك تجد دمشق في ربيعها الطلق تهش بك
ازاميرها ؛ وتضحك لك رياحينها ؛ فاستظل بهذا الظل الحضل ، وان كان في عينيك
بقية دمع لم تذرفه فأرجع الى فصل العرب بين الروم والفرس ؛ انك تصادف امة
مصدوعة الشمل من قديم الدهر تشتري موتها في شيل حياة غيرها من الروم
والفرس ؛ يصطنعونها في تأييد سلطانهم فيقتاتل الحارث الغساني والمنذر اللخمي

حتى يتبسط قيصر أو كسرى في بلاد العرب ؛ وان كان في صدرك وحشة في وطنك
فأرجع الى فصل الوطن في البادية ، انك ترى البدوي يأبى ان يسكن دمشق وجناتها
بدل الصحراء ؛ فتعلم كيف يكون الحنين الى الوطن .

أرجع الى هذه الفصول كلها حتى تعرف ماهو سحر العبقريّة ؛ وتذكر الفرق
بين كمدة التاريخ ونضارة الفن ، لقد وضع الأستاذ معروف الارناؤوط حياة
العرب قبل الاسلام في جميع نواحيها في سياستها واجتماعها وثقافتها على قدر
ماهداه اليه التاريخ ؛ وعلى قدر ما أوحى اليه الرواية ؛ والتأليف بين حقيقة
التاريخ وبين خيال الرواية هذا هو السحر الحلال الذي يروعك في سيد قریش ؟

« سُفِين جبري »



الرواية والحياة

بقلم الأستاذ منير العجلاني الدكتور في الحقوق والأدب من جامعة باريس

(لعل الرواية اقرب الناس الى الله ، فهو يخلق
كائنات حية ، وينسجها من الحوادث والكوارث ،
ويصاحم بعضها ببعض ، ويقودها الى نهايتها !...)

اشخاص ، وهومة ؟ نعم ! ولكن نصيبهم من الحقيقة
يعدل نصيبنا من الحقيقة ، وجوهرهم الخالد ليس كجوهرنا
عقيدة في ما وراء الطبيعة ، فنحن انفسنا شهداء عليهم ؛
والاجيال تنساقلهم من بعدنا وهم يزخرون بالحياة !
- فرانسوا موريالك - .

(لم تكتب في فرنسا : منذ عشرين عاما ؛ صفحة
حبا)

- موتيرلان -

الرواية التاريخية

يقول « موريالك » ، ان الحب في فرنسا تبذل ، وانه لم يعد تلك العاطفة الغنية
بالعناصر التي كانت تجيش في صدور آباء لطف مهذين ، قضوا حياة

كلها تضحية وزهد ، وبطولة وآلام !

الحب — هذا النبوع الثر الذي تستقي منه الروايات حياة — تبذل ! تعشق

« فيدر » ، ابن ضررتها فلا يثير ذلك احداً في « الكوميدي فرانسيز » ، ويخلص رجل

لوجه فيبدو للناس كأنه احد احفاد « دون كيشوت » الذي كان يبكي العالم

ضحكا ! .. اذن ، ماذا يصنع الرواة ليداروا ميول (الاطفال الكبار) ويعثوا

في نفوسهم اللذة والطرب ؟

ايعيشون في الماضي كما عاش (والترسكوت) الذي قال فيه المعلم (ميغرون) :

.. الف العصور الخيالية ولايسها ، ووعاما في ذهنه وكانت قصص الزعامة والبطولة وكل ما يتصل بالفهرسان المضامين ، تطربه وتهيجه ، بل كان هذا الشيء الفذ الذي احبه في حياته !

ما كان يفتنه منظر من مناظر الطبيعة — مهما بلغ من روعته — الا بالذكريات التي يثيرها ؛ وما كان يبالي بقرية او مدينة لم تقع فيها حادثة تاريخية او امر جليل الخطر !

كانت تقول مادام د دوستال ، انها تتأقفل عن فتح نافذتها المطلّة على خليج نابولي ولكنها ترتاد الوف الاميال ، لتسمع حديث رجل من رجال الفكر . . . كذلك كان د سكوت ، ! كان يحول ركابه عن انغمس المسدائن ؛ ليزور احقر اطلال التاريخ ؟ وكان يقول دائماً لصحبه وقرائه ! هيا اشيروا بالبنان الى قصر قديم او ساحة حرب ؛ ادخل القصر والساحة كما ادخل منزلي فأملأهما بالسكان والمحاربين بزيمهم وشنشتهم واهيمن على عقول المستمعين جميعا بسحر اوصافي ، اي قاري لا يطرب لهذا الوصف ولا يرتاح الى (الرواية التاريخية) ؟ وهل شيء اروع عندك من ان ترجع القهقري الى العصور العافيات فتجددها وتعيش بين اشباحها كأنك ولدت يوم ولد الكون ومازلت تستقبل عالما وتودع عالما حتى بلغت عصرك ؟

مهمة التاريخ ان يقص علينا حياة الجماعات واما الرواية فمهمتها ان تصور لنا حياة الفرد قبل كل شيء والناس هؤلاء الناس الذين نكتب لهم عافوا سير الجماعات وولوا وجوههم شطر الفرد يعاينون التفاتات ذهنه ويسمعون خفقات قلبه وينظرون اليه يمر بالحوادث وتمربه وهو لا يملك منها ومن نفسه الا ما يملك الرجل ! (١) كان الناس يعيشون في التاريخ واليوم يعيش الناس في الرواية . . .

(١) الرجل لا يقود الحوادث على ما يشاء في الروايات البارعة ، ولكنه يصارع الحوادث ويخفف عن نفسه او عن قرائه آلام الكوارث فالرجل خلق للحادثة ،

قد يقول لك تاريخ العادات والآداب ان الناس كانوا في العصر العباسي يعشقون وان عشقهم كان كحب النحلة الزهرة تستشق عطرها وتمتص ربا ثم تهجرها الى غيرها . . .

هذا قول جميل ! ولكن اجمل منه ان تتقص هذه الفكرة جسما وان تمشي امامك على الارض وتلك مهمة « الرواية التاريخية » عنصر من الحقيقة وتفاصيل متحلة وزينة من الشعر والفن . انظر الى (سيد قریش)

تثير الروايات لذتك بالصراع وبالازمات وتشوقك الى معرفة نهايات ابطالها . هل يموت خالد ؟ هل يفوز في نضاله دون تاجر بليد يريد ان يشتري بنت عمه كما تشرى السلع ؟ هل تحب ابنة عمه التاجر ؟ وانت ترى ان هذه الاسئلة ليس لها موضع في الروايات التاريخية فعلي مات بسكين مسموم ونابوليون مات في جزيرة القديسة هيلانة وجورج صائد خانت ده موسى ، نعرف هذا ولا نتساءل عنه ولا نكثر له ومن العدل ان نعترف للراوية المؤرخ بانه يهيمن على المستمعين بسحر اوصافه وليس بسحر الوقائع !

كان اسكندر دوماس الاب يبيع لنفسه كل شيء في الرواية التاريخية لكنه ما كان يستطيع ان يقدم آجال ابطاله او يُوخرها اكان يحب ان تموت الزوجة قبل العاشق لكن التاريخ هو التاريخ ويجب ان نثير لذة القاري بالصور الباردة والمعاني الذكية وليس بموت الزوجة قبل العاشق او بمجرد انتصار الرذيلة على الفضيلة والشناعة على الجمال . . .

الرواية والحياة الراهنة :

يحكم (دو هاميل Duhamel) بالعقم والخرف على روايات الشعر والوهم . لان كل رواية تبعدنا عن الحياة — مهما كانت اخاذة — فهي خطل وهي كتاب فقير ! بل هو يسرف اكثر من ذلك ويحكم بالعقم حتى على روايات التاريخ ! واما مورياك فليس يطعن على فن مخصوص من الروايات ولكنه ينصح الى

الراويّة ان يعمل بقول سان ريال (الراويّة مرآة تجول وتضطرب فوق طريق واسعة) فلا يخلق الراويّة في سماء الشعر ولا يجلس بين الجماهير يعلمها آداب الدنيا والدين ولكنه يصور عصره كما يراه وكذلك يفعل بول موران الذي يسكب على رواياته فناً بارعاً !

فني (مفتاح الليل) وفي (مغلق الليل) يصور لنا (موران) رجالاً ونساء من شتى العناصر ومن شتى الطبقات يتلاحقون ثم يتعارفون فيتصاحبون فيتلاقون هازئين بكل حاجز خاضعين للغريزة الآنيّة غير مستطيعين ان يستمتعوا بلذة عميقة لانهم يجهلون كل شيء الا القانون الذي يريدون على ان يطفئوا احساساتهم دائماً لانهم كلما انخفضوا ولما اتسخوا تفاقم جهلهم بما يعملون ذلك لاعتقادهم ان كل ما يحوم حول اللذة الجسمية ليس بذي بال !

اذن ليست الراويّة عند موريك الا صورة للعالم ويجب ان لا يخضع عليها الراويّة شيئاً من اوهامه وعواطفه اذن ليست بروايات هذه الروايات ، الشخصية الغنائية التي سحبها اصحابها من افئدتهم خيطاً خيطاً فانسجوا منها صورهم للخلود ولكنهم ما حفلوا من العالم الذي حولهم بشيء ! اذن ليست بروايات ، روايات الوقائع والحيوان ، التي مازالت تفتح في الادب الفتوح وتستميل اليها قلوب الأوساط واعضاء الاكاديميات ! اذن ليست برواية رواية ، الآلهة ظمأى ، لاناتول فرانس فالرجل يصور فيها عصرآ لم يعيش فيه ! كلا ! ان موريك ودوهاميل يقتبران جداً ، ونحن لانستطيع ان نعيش بالتقتير .. ان الراويّة للحياة ولكن في الحياة وهما وليس يمنع الراويّة ان ينصح في رفق او ، يتفلسف ، في رفق ويقص على الناس سيرة عالم يجري دمه في عروقهم .

انا لا ادعو الى رأي ، ليفرو ، الذي كان يشبه الراويّة بالآلهة (Protée) ويزعم انها تتقمص الاشكال كلها لتسحرنا وتستعبدنا ، فليفرو في ادب العصر التاسع عشر وربما ولد متأخراً عن عصره ومن يعلم ؟ لعل الناس في عصر الشك يضحكون

من أدبه ومن موكبه الذي لا يتناهى من الشجاعة والكرم . . .

انا لا أدعو الى رأي (ليفرو) ولكني احب لادباء سورية ان لا يقعوا في
شباك المذاهب الافرنسية في الآداب فانها مذاهب مستبدة لا ترضى عنك الا اذا
دنت بها ولم تخرج في حركة من حركاتك على تعاليمها !

وماذا اقول لك ؟ ان المذاهب الادبية في فرانسة تتعني اكثر من احزاب
السياسة والكذب على اشدّه هنا وهناك ! كل حزب يريد ان ينال من خصمه
ولكل حزب لواء فمن لم يحمله او يستظل بظلاله فهو للحزب عدو ويجب ان
يموت عطشا ان لم يمت بسهم !

الرواية والفلسفة

كنت اعارض بلذة بليغة رواية دحي بن يقظان ، لمفكر الاندلس الكبير (ابن
طفيل) برواية د روينسون كروزوه ، للكاتب الانكليزي (دانييل دوفوه)
رجاء ان اعرف ما بين الروائتين من ائتلاف واختلاف ثم اكون لنفسي رأياً في
قيمة مازعمه استاذي (مونييه) من ان دوفوه قلد المؤلف العربي ولست لأشك
الآن في ان دوفوه نقل او قلّد او سرق — او قل ماشئت — وزير ابن المنصور
فرواية الوزير وضمت في القرن الثاني عشر لليلاد . وترجمت الى الانكليزية عام
١٧٠٩ ورواية الكاتب الانكليزي لم تنشر في الناس الا في عام ١٧١٩

في كلتا الروائتين رجل قد يعيش بمعزل عن العالم وفي بقعة من الارض ضائعة
وفي كلتا الروائتين فكر فطري لا يصطنع آراء مجتمع بشري لكنه يهدي
صاحبه الى استنباط اساليب الحياة والتجمل بأدائها والتمتع بلذاتها والغوص
على اسرارها :

واذا كان ثمة فرق بين دحي ، و د روينسون ، فهو ان حياً يموت وقد عرف
الله وخفق قلبه لعظمة الكون وكأنه مامر بهذه الحياة الا ليعرف هذا ويموت بينا
يقضي روينسون حياته يصارع الطبيعة وتصارعه وتمر به الحوادث اليومية فيكون

لها شأنها عنده ، تقرأ أنت قصته وهي طويلة حافلة بالتفاصيل و بصعوبات الحياة المتبدلة وتكاليفها التي سئمها لبيد ؛ فتكاد تنكر انها لم تكن اشياء راهنة وحقيقة عاشها صاحبها .

هذا هو الفرق يد اني احب ان اقف عنده قليلا وان ازيد عليه شيئا قليلا هو ان رواية حي قصيرة - والرواية يجب ان تكون واسعة - وان الفلسفة والعلم صبغا رواية حي بصبغة غريبة ، وربما قال البعض انها صبغة غليظة ليس شك في ان الروايات الجدية فيها جميعاً فلسفة ، فلسفة حياة على الاقل لكن هذه الفلسفة قد تلتطف حتى تفتى في مجموع الرواية وقد يعتمد - المؤاف ان ينفخ في روايته روحاً فلسفية تطبع بطابعها كل شيء فيمل القاري الرواية وهو معذور لانه اذا كانت الرواية صورة الحياة فيجب ان لا تكون متعبة اكثر من الحياة نفسها

في رواية حي بن يقظان فلسفة لأن الفلسفة هي معرفة اسرار الاشياء ، وحي المعتزل يريد ان يبدد ما يكتنفه من ظلمات وان يجمع حوله عالماً من المعرفة فهو فيلسوف بالرغم منه لكن فلسفته وعلمه متعبان وليس ذلك لان الشك يحوم حول صدقهما بل لانتنا فشر بأن حيا معلم يلقي علينا درساً ويلقي علينا فكرة ودرس المعلم وفكر المعلم ليسا برواية اوليسا - على الاقل - برواية بارعة

على اننا اذا كنا نجادلك في قيمة حي القصصية فان قيمته في تاريخ الرواية والفلسفة والفكر عظيمة جداً وقد نقل دوفوه فكرة ابن طفيل كما رأيت وأودعها كتابه لكنا نلاحظ دون ما جهد ان حيا فيلسوف او فلسفة وان روينسون رجل

والرواية هي سيرة الرجل ليعرف هذا الرواة وليتركوا الفلسفة للفلاسفة

سيد قریش

نحن ان لم نرث لادبنا المعاصر لم ترق بنا الهمم الى بعثه في صورة جديدة تكفل له الجلال والحركة واطن انا في حاجة الى اثاره النضال بين القديم والحديث ولو لم يكن يفهم الكثيرون ما هو القديم وما هو الحديث لان النضال يهز الحياة الساكنة الخاملة ، وحسبنا هذا من النضال

ان الجمعيات لتصبغ الفرد بصبغتها ، وان الاديب ليجري في عروقه دم الاجيال لكن في طوق فكرة حديثة ان تغير مجرى الحياة قليلا ، ثم يغير الزمن الحياة نفسها انا عدو هذه المدائح والمرائي الفقيرة البائسة التي يصنعها شعراؤنا بأقلامهم ومقاييسهم وكثيرون جهروا بالوجد عليها من قبلي ، بل كثيرون جهروا بكرههم حتى هذه القصائد التي تحمل اسم الجديد ، وهي - في الواقع - ضرب من المدح البالي ، كأن روح شعرائنا لا تزال هي هي ، وان تكن لبست لبوسا جديدا ، لكنني اعتقد ان هذا اللبوس سيغيره نفس ، الشعر عندنا ، وان شعراءنا لن يبقوا حكماء كما كانت طاقة كبيرة من اجدادنا العرب ، فأجدادنا العرب بحكمتهم حرمونا من المسرح ولا اعرف اذا كانت واحد منهم كتب كلمة واحدة - ولو بليدة - في المسرح ، واجدادنا العرب بحكمتهم نقلوا كل شيء عن اليونانية ، ولكنهم لم ينقلوا قصة واحدة مسرحية ، وربما لم ينقلوا شيئا من شعر اليونان وأدبهم .

اجدادنا ابدعوا ونقلوا ، فيجب ان تبعد نحن وننقل ، وربما تعتمد اجدادنا ان يتركوا لنا شيئا ، وم ترك الاول للآخر . فلنحمد لهم اذن حتى نقائصهم ، ولكن لا يجب ان نبقى حكماء مثلهم . ولا ان نعيش بالارث الذي خلفوه وحده ، فما شيء افجع من التقليد ، يقتل الشخصيات ويعطل سيل الحياة الذي يطلب دائما بقاءا جديدة ومجهولة :

ايها الادباء ، هذه رواية سيد قریش ، بين يديكم ، فيها عطر وفيها موسيقى ، وفيها عنصر من الشعر ، كتبها صاحبها لا يلعب ولا ليذر منحة الكتابة التي اعطاها

ولكنه كتبها كما انتفس انا وانت ، بسائق القيام بالواجب وليس بسائق البذخ !
انظر الى صاحبها بالحب وبالفرح ! انه يسير في طريق هو عبدها ؛ وهو ينثر
الزهر عليها ، وهو قادفها خطاه الى العصور الخاليات ، بمعالم دارسة هنا وهناك .
انه يسير في طليعة ادباء سوريا الى سد ثغر الماضي ؛ بتأليف الروايات وتعريب
الروايات وتنغذية مسرحنا الذي ولد - او سيولد - بالدراما التاريخية .
اية روعة لانشائة المشحون بالعطر والصدى واللون ، ومن لا ترن في نفسه
اصوات جمل بلورية في « سيد قریش » !

كان « الآن لومير » ، يحب ان يقدم بين يدي قارته حجم الاشياء وحرارتها .
وطراوتها وييوستها وكثافتها ووزن الحياة فيها غير منقوص . كان يحب ان يلمس
ما يكتبه لمساً باليد . وما كان شيء يلائمه مثل ان يقول لقارته : ها قد اتاح لنا علم
« البسيكوفيزيولوجي » ، لذة الاشتغال في البشرة الحية ، وان تشعر بالبشرة ، وهي في
كفنا وبين اصابعنا ، تحيا حياتها العضوية والبهيمية . فلا اعرف بعد اليوم لذة غير
صنع التماذج ا بورك فيها من لذة بليغة انتفخ في البشرة حياة وتجري فيها الدم ،
نخاقها على ما تشاء نزعاتنا ثم نشعر انها تهرب منا لانها خاضعة . مثل كل ذي حياة
لنواميس الطبيعة ،

... والاستاذ معروف الارناؤوط في رواية « سيد قریش » ، ينقل اليك
الزهرة من الخيلة ، بل العطر من الزهرة ، والصوت من الفم ، والشعر من النفس
لا يبدع بشرة . ولا يجعل اللحم على العظم . لكنه يبدع احساساً ، ويخيل الي -
علي ضؤولة معرفتي - انه يسرف في تصوير هذا الاحساس في بعض مواطن
روايته ، والسر في ذلك عندي هو ان مؤلف سيد قریش كاتب غنائي
وان صوره غنية باللون لكنها غير غنية بهذه الخطوط المتشابهة ، المتألقة المتفارقة
الصاعدة النازلة ، الثخينة حتى الشناعة ، التي يؤلف منها اصحابها اطاراً لحياة ابطال
درن كشوطين في روايات الوقائع ، او هذه الخطوط الدقيقة الملساء ، التي تنسج

منها لعلماء لجمال صوراً يقضون حياتهم في التحديق اليها ومحاولة تحليلها ، والسر عندي في ذلك هو ان مؤلفات سيد قريش ، كاتب روائي « رومانتيك » ، ليس لأن انشاءه غير الانشاء القديم . ولا لأن ميوله تغذت من ادب اليونان وغير اليونان بما وسع آفاقها ونسطينا للنور ، ليس لهذا وحده ، ولكن لأن في كتابته مثل هذه العاصفة التي في قلب المنذر ، والتي تملي على العجوز قولها : « ثابري على هديرك ايها الامواج الثائرة . فهاك فريسة جديدة من فرائس الظلم » ، ليت الحارث بن جبلة بقي حياً اذن لتكذب عن مصانعة هؤلاء الذين يتقدمون الى فلذة كبده بالسم المعطر بينما وجوههم ، التي صوحها المكر تضحك من الضحية ! ، الخ ... في رواية « سيد قريش » صور عديدة كأنها هي نفسها تتكلم عن نفسها ، وتقص قصتها ، حتى تنسى وانت مفتون بها انها نسج رجل معاصر ، لو شاء لنسجها على صور مختلفة ، وهذه الصور ما كانت بعد لتستميل الابصار لولا شيء يشبه هذا الذي عند موران : « فن بارع » ، يبعث في الحقائق المتبذلة حياة ولوناً زاهياً ، فبورك في الفن ، في اي ثوب رفل !

سيد قريش - رواية تاريخية ، حرص فيها صاحبها على هذا القسط الواقع الذي لا بد منه في كل رواية تاريخية ، ثم أجرى على لسان ابطاله ماشاء من حكمة ومعرفة وأدب ودنيا ، ووصف مجتمعات ابطاله ومؤسساتهم بما جاء في كتب التاريخ ولكن بأسلوب بارع ، وبزينة استلزمها شاعريته ، وقد افصح حضرة موضوعاً لوصف الطبيعة في عالمها الجملة . فطوراً كان يصور اللعبة لقاريء اليوم ، وطوراً كان يصور آثارها في نفوس الابطال الا الى اختلفت عنا مشاعرهم ونظراتهم الى الحياة ولكن ما بالنا نعدد مزايا رواية سيغمس فيها القاريء عقله وقلبه ؟ لنكتف بالقول انها فتح جديد في أدبنا العربي ، وان اكثر الذين سبقوه الى الرواية التاريخية كانوا قصاصين شغفوا بالصراع ، والحادثة ، والازمة ، واما هو فكان شاعراً وكان رساماً !

الفصل الاول

شاعر غسان

.....

في صباح يوم صائف بهي من ايام سنة احدي وثمانين وخمسمائة ، غشيت دمشق المدينة الخالدة فرحة رائعة ، فبدت لرائيها دائمة النضارة والنعيم ، وراح ربيعها اللذ ينشر عطوره الفواحة في افق شديد الصحو ، تنيره شمس دافئة تبعث في الحقول والجنات كثير آمن الحياة ؛ وكثيراً من الاشراق ؛ وخرج سكانها من دورهم وعزلاهم يترددون بالظلال ، في عالم يزخر بالالوان الزاهية المتوردة ، وقد استساعت نفوسهم الملاذ والأهواء كأن الطبيعة الفاتنة قد اعارت هذه النفوس بعض صفائها ومرحها فاعادت تحب غير ضحك الأطيوار الى جانب ضحك الأنهار.

كانت الحياة في دمشق عنصراً واحداً يتفجر باللذة والأنسة ، بل لقد كانت الحياة في هذا البلد الناعم الجدلان ناحية فذة يشرف منها الناس على عالم يمحور بالمشاهد البريئة التي تفي عناصرها وتذوب في البساطة الريفية الساجية على حين انها في العوالم الأخرى حياة ذات اشجان واحزان .

خرج سكان دمشق في ذلك اليوم الصائف الممتع الى الضواحي صفوفاً منتظمة ، وجموعاً متناسقة ، وطوائف منسجمة يتخللها جميعها سرب من الاطفال المرحين الناعمين تضحك في وجوههم وداعة لا تعرف شيئاً من الرياء والملق ثم ما لبثت هذه المواكب التي وثق بينها الفرح والألم ان افرقت وتشعبت في الطرق المؤدية الى الغوطة منسلة في غمار الأشجار الكثيفة التي تغطي الأفق وتحجب زرقة السماء في تلك الفية الحافلة بضحك الطبيعة اقبل على دمشق من ناحية البادية فارس متلفع برداء من الأرجوان وهو بعد في ميعة الشباب وطاراة العمر ، صييح الروتق ، بسطت النعمة على وجهه اكنافها ؛ حتى اصبح خيالاً لها فلها صاقب هذه

الجموع العاكفة على اللهو والمرح حيا لصفاف الأنهار بين منابت الجوز ، ومغارس
الآس تمايد من سكر ، وتمايل من طرب ، وغلبته نشوة هائلة استفاق لها ذهنه
المكدود واستراح ، كأن هذه المشاهد البارة غمرته بسحرها وفتونها بعد سياحة
جاهدة امضاها في مظلون رملية محرقة وخائبة : ولم يشأ الفارس عزوفا عن هذه الجموع
الراغبة الرافة فاستأنس بضجيجها واجراسها وتدفق اليها ، فالتف به سرب من
الصبيان الماريخ وراحوا ينظرون الى جواده ولباسه ، فتاداهم قائلا :

— الا تزال دمشق بعيدة من هنا ايها الفتيان السعداء ؟

لخاذه غلام من بينهم وقال له

— كلا ليست المدينة بعيدة عنك ففي قدرتك ان تمضي في سيرك ، فتبلغ دمشق

حوالي المساء ا

وشرع الغلام يتأمل في رداء الفارس وقد بهره بريقه ولمعانه ، فما شك انه
نبيل من هؤلاء الغرباء الذين الفوا الانتداء الى دمشق للاستمتاع بمشاهدها البارة
او لاقتناء النفائس والطرف الثينة من كل ما يعرض للغريب النازح في اسواقها
ومصانعها فلقد كانت دمشق في العقد الأخير من القرن السادس سوقا للبلدان
والامصار التي تحاذيها وتصاحبها وكان التجار يفدون اليها من نجران وحوارن
وجزيرة العرب رجاة الحصول على زخارفها ونفائسها واسلحتها

ولما استفاق الغلام من ذهله التفت الى الفارس قائلا :

— هل انت من رجال قيصر ؟

— كلا

— لعلك احد الذين يمتون بصلة الى احبار دمشق ؟

— كلا

فامعن الغلام في التحديق الى رداء الفارس كأنما قد راقه زخرفه الخالب وانبرى قائلا

— اذن فلست من الرومان ولا من قوادهم ؟ أفأنت من نجران ؟

فضحك الفارس من هذه الأسئلة التي اخذت تتساقط من فم الطفل كالوابل المنهمر واردف:

— لست من الرومان ولا من نجران

— لعلك من هؤلاء الذين يعرفون آل جفنة ملوك الشام؟ فتأيد الفارس من

فرط الخلاء وقال:

— صدقت في هذا الذي زعمت فانا هو حسان بن ثابت شاعر غسان

فصاح الفتى صيحة الطرب وقال:

— يا للرجل السعيد يا للرجل النابه! ثم تلفت الى ناحية الفارس وانشأ يقول:

— اهذه هي زيارتك الاولى بلاد الشام؟ فقال الشاعر

— لقد طفت بمشارف الشام ومغانيه اكثر من مرة . وكان ذلك في الماضي البعيد

فقال الفتى وهو لا يزال يحدق الى لباس الفارس:

— لعلك قد ازمعت في هذه المرة ان تشترك في أفراح عيد الفصح فجئت

دمشق لتشهد الصلاة في بيعة يوحنا؟

فقال الفارس:

— او تعيدون الفصح في هذا الصباح الضحيان؟

قال ، نعم فقال الشاعر:

— اترع الله حياتك بالانعام السارة الطروبة فلقد انساني حديثك عن الفصح

هذا الجهد الجاهد الذي لقيته في سياحتي الجديدة!...

ثم حيا الفتى تحية مفعمة بالظرف والكياسة وانتحى ناحية الماء الدافق الهادر وطلق

يسقي جواده الناصب المكدود واولئك الفتيان المارح يسمرن ويضحكن ولما

استوثق من قدرة الحيوان على المضي في السير الى دمشق عاد ينظر الى اولئك الفتيان فحياهم

نزلة اخرى ودفع بجواده الى ناحية دمشق فانطلق به يشق غلالة الغاب فوارته

الافنان ، وحجبه الادواح ، وعند المساء احتوت الفارس مدينة دمشق الخالدة ؟

الفصل الثاني

آل جفنة ملوك غسان

في القرن الثالث لميلاد السيد المسيح بلغت الدولة العربية في اليمن اعلى ذروات الحضارة فجعل ملوكها يجارون قياصرة الرومان ملوك القسطنطينية في تشييد الصروح والقصور والمعابد وتجميلها بالنقوش والزخارف وطفقوا يعنون بزرع الأرض وانشاء المدن والقرى حتى أصبحت البلاد بفضل هذه العبقريّة المنشئة المبدعة بلاداً حالية بالثروة حافلة بالآثار المونمة والمباني الشائعة كقصر غمدان في صنعاء وقصور نجران ،

وكانت مدينة مأرب من اروع مدن اليمن حسناً والطفها مناخاً واعذبها ماء واینعها ثماراً بل لقد كانت مدينة مأرب في بهاء مشاهدها الطبيعية على شاكلة مدينة دمشق يجري في وسطها نهر عظيم تجتمع اليه المياه المنحدرة من اعالي الجبال فيتألف من هذه السيول الجائشة بحر شديد الاغتمام يفيض مرة في العام على المراعي والحقول فلا يذر فيها حسناً ، ولا يستقي من روائعها روعة !

حيال هذه الجائحة الحافزة فكر اليمانون في انشاء السدود رجاء ان يستبقوا روعة الأرض التي اترعوها بالحقول والجنت ، فاحتبس الماء ولذ الناس هذا العمل الذي خلغ على البلاد حلة ناضرة من رواء وبهاء واصبحت مدينة مأرب مرتاداً للملوك والأمراء يرتادونه في فصل الصيف القاطظ للترفيه عن نفوسهم ولكن الطبيعة القاسية تنكرت لهؤلاء السعداء فاذرت عليهم رياحها السافيات واستجاشت عناصرها النائمة ، فطغت السيول وتدفقت الأنهار ، حتى استحالت الى بحار طامية طاغية ، دمرت السدود ، واغرقت البلد ، وابت على الأحياء والأزقة ، فاندثر العمران . وعفا اثر السكان ، ولم ينبج من هؤلاء الا من التمع حظه واشرق سعده

فهاجرت فلولهم الشاردة الى شمالي جزيرة العرب، وانتشرت في اطرافها التماساً للخلاص وطلباً للحياة الغالية ، وكان ممن هاجر واغترب من هؤلاء البائسين قبائل من الأزد نصبت خيامها على ماء في تهامه يقال له غسان ، ثم طرحتها النوى مطارحها فاغتربت وهاجرت حتى نزلت مشارف الشام فنصبت قبابها وخيامها على مسيل الماء ودعاها الناس بغسان !

تتألف الأسرة من أفراد مشاركين احساساً متشابهين ميولاً ثم تتكاثر وتنمو فتستحيل الى قبيلة توثق ماينها عصبية ملتحمة تنشأ عنها وحدات منسجمة وحدة الحياة ، ووحدة الدفاع عن الحياة ، ووحدة الميل الى التبسط في نواحي الحياة وتنشأ عن هذه القبيلة المتحدة الأهواء ، امة كادحة ناشطة يشجها كثيراً ان ترتضي بنصيبها الضيق من الأرض ومن الأفق الذي يغطي الأرض فتغريها طمحاتها بالتوسع في السهول والصفوح والجبال والأودية حيث الينابيع والأنهار ثم لا تلبث ان تتحول الى جند زاحف تخفزه الآمال الجائشة في روجه الى ان يطفو كالأتي المهمر على البلاد العاشبة فيدوخها تدويخا ويروض من جماعها ، ثم يتحول وقد طرح سلاح المعركة الحراء الى جيش من الفلاحين والمزارعين يصطنع مواهبه وسلاتقه في التعمير والأنشاء

كان الغسانيون من هذا الطراز ، تعرفوا الى الالم وهم اسرة مشتتة تتقاذفها حظوظها واقدارها ، فانقلبوا الى قبائل ترتاد المراعي والحقول رجاة الحصول على الأفياء والظلال فلما حققت هذه القبائل آمالها زهدت في افقها الضيق وصبت الى افق واسع يكفل لها امناً وسلاماً ورخاءاً ويحقق طمحاتها واغراضها ثم وجدت هذا الأفق الواسع الذي تبحث عنه في الشام ، فزارعتها ميولها اليه ، ورأت ان لاغنى لها عن الخضوع لأحكام الطبيعة التي تزجي التوي الى مغالبة الضعيف ومطاردته ليحل مكانه فاصطدمت بالاضجاعة وهم عرب من سليخ كانوا حلفاء لقياصرة الروم وجنودهم في قتال الفرس فخميت الحرب بين غسان الطامحة الناشئة ؛ وبين

الضجاعة . وكان حصاد هذه الحرب ان انتصرت غسان في مشارف الشام
تغلب الغساسنة على الضجاعة في طائفة كبيرة من الملاحم عقدت فيها رايات
النصر لأول ملوكهم جفنة بن عمرو فكسرت جيوش الضجاعة وشردت فلوهم امام
الغساسنة الذين استطاعوا في عشر سنوات ان يخلقوا دولة عامرة في البلقاء وحواران
وفلسطين وظلت هذه الدولة بعيدة من تدخل الرومان الى اواخر القرن
الرابع للسيد المسيح

وتوالت الملوك بعد جفنة بن عمرو واشهرهم يزيد بن عمرو بن مارية الغسانية
المعروفة بذات القرطين والحارث بن جله صاحب يوستانيوس قيصر (١) وهو الذي
اشترك في قتال الفرس الى جانب جيوش بلزاريوس قائد الرومان ؛ فاجزل له قيصر
في الثواب بودعاه ملكا على جميع العرب

وعرفه العرب بالمحرق لانه اول من حرق العرب في بيوتها واشتهر من ملوك
غسان الذين تعاقبوا على الشام الحارث بن الحارث بن عمرو الذي قتل في معركة
دارت رحاها بين جنوده وجنود المنذر الأكبر ملك العراق ؛ ومن ملوكهم
ايضا عمرو بن الحارث وله يقول النابغة الذبياني :

علي لعمر و نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

وقد زار معظم هؤلاء الملوك القسطنطينية وكانوا يحجرون في الترف والبذخ
على سنن القياصرة ؟

(١) — هو الامبراطور جوستنيان الاول المعروف عند العرب بيوستانيوس

الفصل الثالث

الراهب

لما عرضت دمشق لحسان بن ثابت على ضوء الطفل وبرزت له جناتها المورقة
ونهرها السلسل اخذته ذهلة شديدة ونشأ في نفسه احساس جديد فطاف
حول بردى الدافق المآدر واثارت القصور الشائخة القائمة على ضفافه
روحه الساكنة الساجية فذهل عن حاضره الذي يعيش فيه وضاعت روحه
الشاعرة الحساسة في روعة الزخارف والنقوش الماثلة في القصور والكرمات
والمعابد والعمد المرمرية !

وكان اذا اراد ان يتلهمى عن النظر الى هذه الروائع : امتد بصره الى الجبال
التي تحديق بدمشق وقد ضربت في السماء واخذت الوانها من حمرة الطفل : فاستعذى
المشاهد البارعة واقبل يتخطى حتى طويت له الجنات والظلال وقبضت امام عينيه
الجبال وانتلال فما عاد يدري من اين يقبس الجمال والفتون والسحر : امن
الصروح والمغاني والقصور التي توامضت عليها بروق السعادة والحب ؟ ام من هذه
الجبال التي رقصت عليها ابتسامات الشفق : وقامت على سفوحها اشجار الجوز واللوز
لقد سأل نفسه اكثر من مرة اين اجد الفتون والسحر ؟ في هذه الكرمات
البيضاء ، ام في هذه الجبال الزهراء ؟ فما وجد صبابته في ناحية واحدة ، لأن
الجمال الذي احبه ظل يلوح له في جميع النواحي

وبينما هو في غرق خرق سمعه صوت ناقوس ترسله يبعة جد دانية منه . فارعشه
هذا الجرس ولمس في رناته روح العبادة والتواضع ، فاقبل يعيه وينصت له ، وهو
اشد ما يكون سجعاً وغرقاً ، ثم استفاق من غشيته اللذيذة على حفيف ضعيف ،
فوثب ممراحاً طروباً ثم تضاعف الحفيف ، وتضاعف كثيراً حتى انقلب الى

صوت شديد . ولكنه صرت حلو النبرات . عذب المذاق . فتلقت الشاعر الى ناحية البيعة . فانكشفت له مصايحها متلاثة متوقدة . فدنا منها وهر على جواده فاصاقها حتى استحيا ان يخفق بايها تحت ذوائب الغروب ففكر في استئناف ضوافه وهو الناصب المكدود الذي انكفأ لونه . وتغصن جبينه من قيط الصحراء . ولكن ذلك الصوت العذب الذي رن في اذنيه ظل حافزه الى الاقتراب من البيعة . فمد يده يريد ان يخفق الباب وقد اصبح من امتع امانيه واعذب آماله ان يجد في سكون هذا المعبد القائم رقدة هادئة تسبح نفسه في احلامها السارة الطروبة

ولم تمتد به احلامه وتأملاته : فانحسر باب البيعة . من غير ان يمد الى خفقه يداً وانكشف عن رجل حاسر الرأس . يمشي بخطى متأنة . وقد غيب جسمه في رداء من الحرير الاسود . وتبدى متوكئاً على عصاه . فاشك حسان وهو ينظر اليه في انتمائه الى البيعة . فارتاح الى مشهده . ورجا ان يجد فيه بعض المجاملة وبعض الكياسة . فلا يمنعه ان يغشى المعبد في هذه الليلة !

وتقدم الرجل من حسان وقد عجب لوقوفه حيال المعبد تحت جناح الليل الغاسق وسأله قائلاً :

— من الرجل ؟

— عربي بعثت عنه الديار ففرع في ليله الى سكون الاديار !

فاستروح الراهب واطمان وانشأ يقول في كثير من الظرف والمصانعة :

— على الرحب والسعة يا اخا العرب !

وفتح باب المعبد . فترجل حسان عن جواده وهو اشد ما يكون استئناساً

بصمت العبادة وسكينة الورع فتقدمه الراهب الى حجرة مفردة وقال له :

— هنا مبيتك في هذه الليلة !

فاغلق حسان له في الثناء واغرق فسأله الراهب عن اسمه والشاعر يوشك ان

يدخل الحجرة المفردة فارتد اليه وقال :

— اسمي حسان بن ثابت !

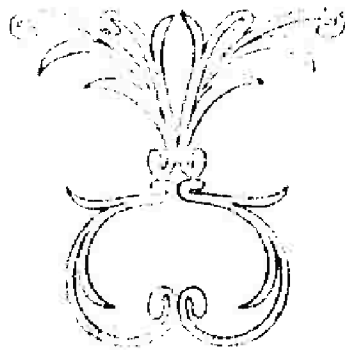
— أنت هو ذلك الشاعر الذي ملأت اغانيه هذه الأرجاء وحفظ أشعاره

حتى هؤلاء الذين اشتملت عليهم الصوامع ؟

فابتسم حسان ولم يجب ولكن الراهب لم يشأ أن يضنيه بالأحاديث فاقتاده الى

الحجرة التي حبسها عليه ، ثم فارقه بعد أن رجا له نوماً سائغاً لذيداً ، فرمى

الشاعر نفسه على فراشه ونام ليلته نوماً هادئاً ؟



الفصل الرابع

ابو سفيان بن حرب وامية بن ابي الصلت

استفاق الشاعر في الصباح من رقدته على عصف الأجراس والنواقيس فاستراح ذهنه الى هذا الضجيج، وراقه ان ينيء الى نافذة حجرته فيطل منها على فناء البيعة وقد جاشت في نفسه رغبة حفزته الى الابتعاد بالظلال والأفياء فود لو ينتحي ناحية قصية يشرف منها على الجماهير التي تفد للصلاة في الصبح الباكر .

ولم تكن النصرانية غريبة عنه ، فلقد عرفها في البلقاء وهوران وعرفها في دمشق قبل هذا اليوم ، ثم عرفها في تدمر وله فوق هذا كله صلة بأجبارها وأعلامها الذين كانوا يمجدون كثيراً من الأجلال والتعظيم في قصور آل جفنة الملوك ، بل لقد كان لشعره روعة في نفوس هؤلاء الأجبار الذين انقطعوا للعبادة في شواخ الجبال فأكبروه وفتحوا له ابواب كنائسهم وبيعهم كما فتحوا له صدورهم ونفوسهم .

احس الشاعر حاجته الى الظل والسكون ، واحس كذلك حاجته الى عزلة هائلة يشرف منها على ورع النفس وتقشفها ، فتجمل بلباسه وخرج الى حديقة البيعة الصغيرة ينظر الى وفود المصلين .

طغص فناء البيعة بالمصلين روماً واعراباً ، وتأرج البخور من كل ناحية فضاغف في سكون العبادة وسكون النفس ، وشملت المصلين روعة الصلاة البريئة وتخلل هذا كله انشاد لذيذ مستملح استفاضت له جوارح العاكفين على الصلاة .

في تلك الضيقة الحافلة بالخشوع دخل البيعة رجلان اثنان اشترك احدهما في الصلاة وابى الآخر ان يجاريه في عمله ، فانتبذ ناحية قريبة من حديقة البيعة وشرع ينصت الى همس المصلين وقد تبرم به فلما ، اياسه وقوفه الطويل برح مكانه الى الحديقة وانتحي ناحية منفردة كثرت فيها منابت الحور والصفصاف واستفاض

في وسطها ماء رقرق تذب المدير .

وأثار دخوله الحديقة وسوسة تلفت لها ذهن حسان الغارق في هواجسه ،
فأخذ الشاعر يحدق الى الناحية التي صدر عنها الصوت ، فإذا هو ينظر الى رجل
سري تضحك في وجهه مظاهر النعيم والترف والسيادة ، فشاقه ان يتقدم منه ، وأثار
لباسه العربي رغبته في التعرف اليه فعاف مكانه وجاء الناحية التي آوى اليها ثم
توارى خلف الأدواح وأخذ يتفرس في ملاح السيد العربي فلما عرفه
همس قائلاً :

— أبو سفيان بن حرب ! ؟

ظل حسان يحدق الى أبي سفيان وقد اذهله ان يراه في هذه البيعة ، وهو الرجل
الذي لا يؤمن بالنصرانية ولا يعرفها ، ففر من مكانه حتى صاقبه وأبو سفيان
ساج في تفكيره وكان يجب ان يباغته مباغته لذيدة فوضع يده على كتف
السيد العربي فرفع هذا رأسه وشرع يحدق الى حسان تحديقاً غريباً فلما عرفه
انثنى قائلاً :

— اهذا انت ؟

— اعرفني ! ؟

— ومن لا يعرفك في الحجاز ؟

— لقد رأيتك في الماضي في قصور آل جفنة وكنت في ذلك الزمن محاطاً بهالة
من المجد والكبرياء ، وملوك غسان يجلونك ويكبرونك ، فوددت لو يكون لي بعض
هذا الرواء الذي يغمر عيشك ، بل لقد وددت لو يكون لي بعض شأنك في الشعر
فتنسق لي السيادة على جميع العرب !

— ان لك من شرف أرومتك وطيب عنصرك وجلال بيتك ما يغطي هذا

الافق الضيق الذي يعيش فيه الشعراء !

فسكت أبو سفيان وعاد الى تفكيره وقد غشيت وجهه ركدة الانفعال والتأثر

فسأله الشاعر قائلاً :

— أي حافر حفرك الى هذه النواحي ؟

— أتيتها في تجارة مع أمية بن أبي الصلت شاعر الطائف !

— أمية بن أبي الصلت هنا في دمشق ؟

— نعم وهو في هذه البيعة يشارك المصلين في صلاتهم وعبادتهم ! لقد تركنا

بصرى عشية الأُمس وكنا في ضيافة الراهب بجيرا ! ثم لج في سكوته فسأله حسان

قائلاً : ولكني اقرأ في عينيك شجنا مديناً

فقال أبو سفيان :

— هو كذلك فقد ارمضني ان اشهد هذه الأرض الذليلة فأرى ملوكها واقبالها

الأعاريب عبدانا لملوك الروم !

فاتفضل حسان من الرعب والتفت الى ناحية المعبد كأنما هو يريد ان

يستوثق من خلاء هذه الأمكنة ، فلما اطأنت نفسه الى الوحدة شخص الى

ناحية أبي سفيان وقال له :

— تكلم همساً ناشدتك اللات والعزى !...

فضحك أبو سفيان ضحكة عابثة واجاب الشاعر :

— اذار في خلحك ان رجلاً كأنني سفيان يفرق مثل فرقتك هذا ؟ ووضع يده على

سيفه موغلاً في ضحكه وقال :

— ان ورأني جزيرة العرب فليس يضيرني أغضب الروم ام لم يغضبوا ، وبعد

فتحن في زمن كثرت فيه الأحاديث عن ظهور نبي كريم في العرب يقودهم الى

خواتيم هائلة راغدة !

— من لفتك هذا الحديث ؟

— سمعت هذا الحديث في البلقاء وكان قس بن ساعدة خطيب العرب

يدعو الناس الى طاعة هذا النبي الذي سيبعث في اشرف القبائل العربية ثم عدت

فسمعت قبل أيام من بحيرا الراهب !

اي حسان : ان الامنية الغالية التي اطمح اليها في هذه الحياة ليست في الخروج من معركة ظافرة الى مجد وثيق ، ولكنها امنية تبدو لي رائعة وفتانة اذا استفاض نور هذا النبي في اشرف قبائلنا ويوتنا !

ماذا ؟ ايشجيك ان يبعث مثل هذا النبي في العرب وانت تعلم اي جائحة تحتاج قومنا في حوران والبلقاء والشام والعراق واليمن ؟ لا تغرنك هذه الأنوار المتلاثلة في قصور الغساسنة فأنها ادل على العبودية والخضوع للأجنبي من الاظلام والتعقيم ، ان ملوك غسان وملوك العراق خدام واتباع ملوك الروم والفرس ، بل ان هؤلاء جمعاً خول لبطارقتهم ورؤساء دينهم ، فنحن ان نخطم هذه القيود التي تغطيها تيجان كاذبة وتخفيها قصور مشيدة هي احق وأولى أن تسمى قبوراً لحرية بلادنا العزيزة الغالية ، لتكامل ظهورك وبعثك ايها النبي فاني ساكون في طليعة مواكبك ومن حملة مصايحك !

فطرب حسان لحديث ابي سفيان وشاقه صلفه وزهوه ، فانتفض شموخاً واستعلاء واخذته نشوة ساحرة ففتح نفسه لجمال الحرية بعد ان فتحها لجمال الشعر ثم راح دالفا الى ناحية السيد الاموي حتى صك الوجه بالوجه فشده يده صائحاً :
— اتحسب زمن هذه النبوة بعيداً ؟

— كلا !

فرفع حسان عينيه الى الافق ثم اغمضهما وغاب في قرارة صمت عميق وجعلت زفراته تطفو في صدره ولها عصف وهدير وهو بعد لا يزال قابضاً على يدي سيد بني امية فخيّل الى ابي سفيان ان صاحبه قد جن ، فززه هزة عنيفة استفاق لها ذهن الشاعر واستراح .

التاع ابو سفيان لمشهده فقال له :

— ماذا حدث لك ؟ اخشي ان يدهمك هذا الذي دهم اميه بن ابي الصلت فلقب

كنت أقص عليه حديث هذا النبي فكان يقع في مثل الهذيان ثم لا يلبث ان
يصيح راجفاً ملثاعاً

« لبتني اكون نبياً ، ثم سمعته يتخافت بصوته

« ولماذا لا اكون ذلك النبي المبعوث ! ، اي حسان ! هل كان في شعرك ذلك

الجنون الذي في شعره ؟ وهل صرت تستعذب مثله ان تبعث نبياً في العرب ؟

فصاح حسان :

— كلا ! كلا ولكني وددت لو ان السماء تفسح في أجلي فأستشرق بذلك

النور واكون شاعر تلك الحرية التي يحملها اليها ذلك النبي الكريم !

كان حسان شاعراً حلوا الفريضة رقيقة وكان يطرب لهذا العيش الذي يتراءى

له فتانا رائقاً في قصور الفساسة ويجد في الجبال والازهار وفي التمام الصباح على

صفحات الينابيع الصداحة مرح النفس ونشاطها ، فيحب افناء الأيام والليالي في

خضرة السفوح ، وخضرة الضفاف ، حتى اصبحت حياته مثل حياة جميع الشعراء

زاخرة بالكسل ، ولكنها حياة لها فلسفتها في الوحدة والانقطاع .

ولم يكن يخالط شعره الرقيق كثير او قليل من الصور الغريبة عن الطبيعة ، فلما

تخسر له ابو سفيان عن بعث نبي في العرب يقود قومه الى الحرية الغالية ويخلصهم

من صلف الروم والفرس في الشام والعراق واليمن ، خيل اليه انه اكتشف عنصراً

جديداً اشعره ورأى في هذا العنصر الجديد الذي كان غريباً عنه الى الأمس الدابر

حافزاً الى حياة حرة بليقة لا يجد مثلها لا في قصور آل جفنة ملوك الشام ، ولا في

قصور المناذرة ملوك العراق فاعتزم ، منذ هذه اللحظات القليلة ان يحبس شعره على

الأشادة بروائع هذه النبوة فرفع عينيه الى ناحية ابي سفيان وقال له :

— لقد آمنت بالنبي قبل بعثه !

وفي تلك الأثناء انفرط عقد المصلين فخرجوا من البيعة زرافات ووحداً

وتفرقوا في مختلف النواحي والفجر بعد ممدود الرواق فصاح ابو سفيان :

— الا يروك ان تبحث معي عن أمية بن أبي الصلت في أرجاء هذه البيعة ونواحيها فلقد افلت هذا الرجل المسوس من يدي وآثر صحبة الرهبان على صحبتي ، فقال الشاعر ، لك هذا الذي اردت .

ترك أبو سفيان الحديقة الى فناء البيعة فلقى به حسان ؛ وفي تلك الأثناء لاحت لها شموع البيعة ومصابيحها وهي تتألق وتحترق فوقها يحرقان من جديد الى بابها المفتوح ، وقد استأنسا بسكون العبادة ، واستعذبا روعة الورع ، واستراحا الى الأعراف الذكية التي تملأ الفضاء ، وهما بعد على دين اهل الجاهلية ، وانهما لن يغررق اذا طيف متلفع برداء اسود قائم يزدلف اليهما بخطى واسعة ، فاقتربا منه حتى صاقباه ، فاذا هو أمية بن أبي الصلت وقد حسر عن رأسه فصاح أبو سفيان قائلاً :

— اراك قد زهدت في مخالطتنا حتى لم تعد تستأنس بغير هذه الحياة الشاحبة وحتى صرت تحب افناء ايامك في سكون البيع ؟

فامتقع وجه أمية ولم يجب ولكنه جعل يتفرس في وجه حسان فلما عرفه مضى اليه يشد يده شدة عنيفة .

— ماذا أنت هنا ؟ من اين اتيت ؟

فاجابه الشاعر :

— من بصرى ا

— اكنت في بصرى ؟ لقد سلخنا اياماً طويلاً في غسان فلم نرك خلالها ، فاني

غيمة وارتك في غلالتها ؟

قال أمية هذا ثم التفت الى أبي سفيان قائلاً :

— الا نترك هذه البيعة في هذا الصباح الى صومعة بحيرا فأن هذا الراهب

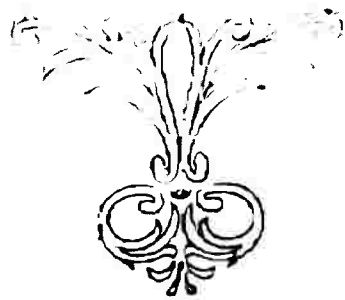
قد ارادنا على زيارته في مصلاه ؟

فقال أبو سفيان : دع هذه الزيارة الى الغد ، فلقد صبوت الى عزلة اجد فيها

بعض الراحة ، وسئمت احاديثك عن الرهبان ، وكرهت ان تحملني احلامك المخوفة الى افق لا احبه ولا استعذب التحليق في مداه ...

— ولكن نفسي قلقة معتمة ، وهي تحتاج الى عناصر تمنع سبوحها في ضبابية قرة صاردة ... اذا كر انت كيف تحدث بحيرا الى في الماضي عن بعث نبي في العرب؟
فهز ابوسفيان كتفيه ساخراً عابثاً واردف:

— لقد افضت بك كتب اليهودية والنصرانية الى مثل هذا الجنون الذي يعتصر نفسك ، وقرض صدرك ، فخلق بك وقد احسنت حاجتك الى تجديد قسواك الناضبة ان تحلق في فضاء غير هذا الفضاء الذي يغطي البيع والكنائس ... دع زيارة بحيرا الى غد فلعل هذا المساء الذي نفي الى ظله الساكن الوادع يحمل الينا بعض الهناء ، وبعض المرح . فادرك اميه ان لا سبيل الى الطواف بالاديرة في هذا النهار ، فسكت . وبعد قليل برح الاسياد الثلاثة البيعة وركبوا جيادهم فانطلقت بهم في اسواق دمشق تحت اشعة الشمس ؟



الفصل الخامس

آل غسان وقيصرة الروم

انتشرت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، ثم امتدت إلى العراق فاجتمع عليها ملوكه واستساغتها قبائل شتى من العرب ومنها تغلب، وكانت تبسط النصرانية في الشام علامة قوية على تغلغل الروم في حياة العرب السياسية والاجتماعية بذلك على ذلك ان قصور الغساسنة جاءت مزيجاً من الفن البيزنطي القديم والفن العربي الحيري وكانت كنائس العرب على شاكلة كنائس البيزنطيين بعيدة عن البساطة والسذاجة ، لأن العرب الغساسنة الذين استساغوا النصرانية واقتبسوها من الروم لم يصدفوا عن الاصطباغ بألوان التقاليد البيزنطية فكانت اعيادهم ومواسمهم في حوران والشام شبيهة بأعياد الروم ومواسمهم في القسطنطينية ، وكانت ملابسهم وازياؤهم في زخرفها وزينتها مماثلة للملابس الروم وازياؤهم ، ولم تخل يعبهم ومحاريبهم مما كان في بيع بيزنطيه ومحاريبها من صور وانصاب وتماثيل

كان ملوك غسان على ضخامة القابهم ، واتساع سلطانهم ، اتباعاً للملوك القسطنطينية يصطنعهم هؤلاء في حروبهم مع ملوك الحيرة ويحرضونهم على اجتياح ديار آمنة مطمئنة عامرة بجيرانهم واخوانهم وابناء عمومهم فلا يأنف هؤلاء الملوك من غمس ايديهم في دماء عربية صافية هي بعض دمائهم .

وبينما كانت قسطنطينية تبعث بقوادها الخلف للفتح في آسية وافريقية كان هؤلاء الملوك الخاضعون للرومان في الشام يوغاؤون في زحفهم على اطراف العراق الذي يحكمه ملوك ارتضوا بسيادة الفرس عليهم واطمأنوا الى سلطانهم ؛ فكانت هذه الملاحم تسفر في الغالب عن تضعضع قوى الجانبين من عرب الشام، وعرب العراق وعلى هذه الصورة كان الروم لا يأنفون من توطيد امرهم في بلاد العرب على

جبال شامخة من اجساد القتلى والصرعى

وكان ملوك غسان يقدون على قيصر في دار ملكه فيصانعونهم ويذهب في مداراتهم الى اقصى حدود المداراة، ويجوهم الهدايا والمنح، ويغدق عليهم الألقاب وكان الحارث بن جبلة اجل هؤلاء الملوك قدراً وارفعهم شأنًا عند قيصر الرومان وقد زار هذا الملك القسطنطينية سنة ستين وخمماية في موكب التف به الجلال والرونق، فاستقبله يوستانيوس في القصر المقدس على شواطئ البوسفور ومنحه لقب « فيلارك » وهو اعلی لقب في الدولة البيزنطية بعد لقب الامبراطور، ولما عرضت القسطنطينية للملك الحارث وطاف مع قيصر وزوجه تيودورا بمغانها وقصورها، وكرماتها وشطآنها ومعابدها، استهوت الحياة البيزنطية بزخرفها وبهرته العمد والقباب والاقواس والقناطر والحنايا، فألى يمين ليجرين على سنن الروم في الانشاء والخلق والابتكار، ثم قفل الى بلاده فدعا اليه المصورين والنحاتين والمثالين فأجرى عليهم الخلع النفيسة، والطراف الثمينة، وارادهم تلى خاق الروائع والمفاتيح فنوا له القصر الابيض وقصر المشتى، ودير هند

والحارث بن جبلة هو صاحب امرئ القيس بن حجر الملك الضليل، ورفيقه في سياحته الى القسطنطينية، وكان سلطانه يشمل نواحي الغوطة وفلسطين وبأديتها، مات في سنة سبعين وخمماية خلفه ابنه المنذر وهو في سن سبع عشر سنة فاتسق له ما اتسق لآبيه من جلال الملك وروعة وحارب المناذرة في العراق وانتصر عليهم

كان ابو سفيان بن حرب ممن انتهى اليهم الشرف في قريش، وكانت عنده راية العقاب وهي راية قريش وشعارها في سوح الوغى وكان واسع الثروة عزيز الجاه لامع الشهرة حتى في البلاد التي خفقت عليها رايات الروم

وكانت له فوق هذا كله صلة ود بال جفنة الغساسنة، وثقفا ولعه الشديد بمشارف الشام، ونزوله بديارهم واعجابه يذخهم ومجاراته لهم في انشاء الحصون،

واقامة القصور وكان مثلهم نواحا الى الاعمال الجليلة الرائعة ، نزاعا الى الذود عن الارض التي ولدته وانبتته نباتا حسنا ، منكشأ عن الروم ، كارهأ لهم ، لا يأنس الى مخالطتهم وقد نشأ هذا الكره في نفسه حيال الأجنبي من بعته ومولده في معاقل حرة في تلك الارض المقدسة التي استعصت على الروم والفرس فما بلغتها جنودهم ولا فيأتها راياتهم !

وكان من عادته ان ينزح الى الشام للتجارة فتتشر قوافله وخيوله في نواح كثيرة من الصحراء ويلحق به فتيان من قومه لحماية موكبه الفخم ولم يكن مع هذا كله بالرجل الذي حبس حياته على الميادين تحت الرايات عن كعب من الصفوف والجحافل ، بل كان من طراز فرسان الجليل الذي يعيش فيه ، فجمع الى خلق الفارس الجواد ، خلق الرجل الذي يجد صباهته وامنيته في الحب ، ويقبس شعوره وحسه من قبلة ترعش على شفقي حسناء لعوب !

في صيف سنة احدى وثمانين وخمسة وقف ابو سفيان بن حرب في داره في مكة يلتف به ثمانون من صحابته وبني عمه فصارحهم بعزمه على السفر الى الشام جريا على عادته ومساوقة لتقاليده واراد اليهم ان يصحبوه في هذه الرحلة المساجدة التي عبر عنها بأنها للتجارة والمجد ، فلم يدر احد ذلك المعنى الجليل الذي انطلوت عليه كلمته فتباروا في اللحاق به وبينهم امية بن ابي الصلت شاعر الطائف ، وكان ابو سفيان يأنس بحديثه ويحب شعره شأنه في هذا الحب شأن العرب الذين يجدون في الشعر حماية لأعراضهم ، وذبا عن احسابهم ، وتخليدا لما آثرهم فلا يهشون الا بغلام يولد ، او فرس تنفج ، او شاعر ينبغ .

وكان امية يخبر بان نبيا يخرج قد اطل زمانه فود لو انه يكون ذلك النبي وعكف على قراءة الكتب ، ولبس المسوح تعبدأ وحرم الخمر واجتنب عبادة الاوثان واتمس الدين طمعأ في النبوة وامل ان يجتمع في رحلته الى الشام الى بعض اعلام النصرانية لعله يسمع منهم شيئا كثيراً عن بعث ذلك النبي

وكان أبو سفيان يعرف هذه الهواجس التي تجيش في نفس الشاعر فلم يذمه طمحه ولم يغضبه تماديه في احلامه واوهامه، فبرح مكة في موكب من فرسان امية ، وقتبان آل عبد شمس وبعث الرسل الى المنذر ملك الشام .

وبعد اسابيع توغلت فرسانه في طريق الشام البلد الذي احبه واكثر من ارتياده في فصل الربيع الزاهر الضاحك ، فانتشر هذا الموكب الفخم في الصحراء وظللت الشمس المتوردة راياته واعلامه

ولما وصل رسل السيد الاموي الى بصرى بعث ملك الشام بجماعة من فرسانه وابناء عمه لموافاة الموكب عند تخوم بصرى وهياً قصر صرح الغدير الذي بناه الملك الحارث بن جبلة للضيف الجليل الذي يلتقي في كبرياه بيته وشرف محته مع آل عبد المطلب سيد بني هاشم ، ولم يكن امر هذه الرحلة غريباً لاني بصرى ولا في دمشق ولا في اي ناحية من نواحي الشام فلقد كان لقريش في السنة رحلات اربع فان اصحاب الايلاف كانوا اربعة اخوة وهم بنو عبد مناف احدهم هاشم وكان يؤلف ملك الشام وقد اخذ منه خيلاً فامن به تجارته في الشام والثاني عبد شمس وكان يؤلف الى الحبشة والثالث عبد المطلب وكان يرحل الى اليمن والرابع نوفل وكان يرحل الى فارس وكان هؤلاء يسمون المتجرين فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الاخوة .

وكان لقريش رحلتان رحلة في الشتاء . ورحلة في الصيف الى بصرى من ارض الشام وكانوا في رحلتهم آمنين لانهم اهل حرم الله وولادة بيته فلا يتعرض لهم والناس ما بين مخطوف ومنهوب ، ولم يكن في العرب اكثر مالا ولا اعز من قريش .

اجتازت قوافل ابي سفيان تلك الصحراء العريانة في ثلاثين يوماً حتى برزت لها تلك الأرض المتحضرة المهذبة الطافحة بآثار الروم والفساسنة ، فلاح لابي سفيان البيع والمعابد والقصور والقباب وانكشفت له ارض ازهر فيه النارنج

واورق والتفت بها الأغاب ومغارس الآس فتنفس الصعداء وفتح نفسه المغلقة
لجمال الطبيعة واستأنس بجمال الفن وقد خالط جمال الطبيعة وهزته اعراف الفجر
وهي ترعش في الأفاق ندية عذبة حلوة انيسة كلهم صبي نصاح :
— اين هذه الأرض الغناء من تلك الصحراء الجرداء ؟

ونم صياحه عن قوة احساسه واحتدام شعوره ، بل لقد جاء صياحه دليلا على
روعة التحول الذي نشأ في نفسه حينما عرضت له هذه الأرض التي ازهر فيها الآس
والزنبق والنارنج فبدا له كأنه يحلم وتمثل في حلمه تلك الصحراء وقد حاكت السماء
طولا وعرضا فادار عينيه في مداها الأفيح فما وجد غير المياه الآسنة ، وغير
الرمال المشبوبة !

ولما عاد الى نفسه عثر في نواحيها على اشياء جديدة فاراد ان يتعرف اليها فلم
يجد لها اسما فلبثت هذه الاشياء التي عجز عن الافصاح عنها حبيسة دفيئة في قرارة
نفسه الى ذلك اليوم الذي يحركها ويستجيشها ويحسر عن اسمائها

وكانت القوافل تمر بالمعابد والصوامع ، واصحابها يغنون ويمزجون ، فتختلط اغانيهم
واهازيجهم بعصف الاجراس وصخبها ، وفي ذات عشية بدت منائر بصرى فصاحوا :
— هذه هي بصرى !

فهتف سيد بني امية !

— بلى وربى هذه هي بصرى

وافت فرسان الفساسنة الذين بعث بهم المُنذر القوافل الى اماكن قرية
من بصرى فلما حاذت المواكب المواكب رحب فرسان غسان بفرسان بني امية
وحيوهم تحية العرب في الجاهلية ، فكان لقاء اختلطت فيه خيلاء البداوة
بكبرياء الحضارة !

قضى سيد بني امية ليله في قصر صرح الغدير من كُتب من امية بن ابي الصلت
وتفرقت حاشيته في منازل بصرى وقصورها ؟

الفصل السادس

عند الراهب بحيرا

لم ينم امية ليلة بعد وصوله الى بصرى فلبث ساهداً ارقاً تتراحم على خاطره شتى خيالات واحلام ، وكان لا يبرح يحس في نفسه نزوعاً الى الكنائس والبيع التي عرضت له في بصرى فود لو انه يطفر الى نواحيها

وكان ينام في حجرة بعيدة عن حجرة ابي سفيان فعاف فراشه الى نافذة تطل على دير قديم في بصرى وسرح طرفه في انوار ضعيفة تنبثق من شرفات الدير ثم ارهف اذنيه فاذا هو يسمع انشاداً عذبا يخرق سكون الليل ، فاستهواه هذا الرنين العذب واستثار شجونه طول ليلة فحاول ان يبتدع له صورة محسوسة في ذاكرته وراح يتسأل عن معنى هذا الجرس الفاتن .

وكان في حجرته نور ضئيل فابصر على سناه الضعيف بعض الدمى وبعض التماثيل وشد ما كان ذهوله حينما رأى في هذه الدمى وتلك التماثيل انسجاماً مع ذلك الانشاد العذب الذي اخذ يتصاعد من الدير القريب ، فلم يذهب به وهمه الى مدى بعيد في تفسير هذه الاشياء التي عرضت له فادرك وهو المسحور بروعتها انه جد قريب من النصرانية التي سمع عنها كثيراً وقرأ عنها كثيراً والتي كانت له صلة وآصرة وثيقة باخبارها واعلامها فجفا مكانه على الشرفة وهو اشد ما يكون انقباضاً وانكماشاً واقبل يحوس خلال اروقة القصر وهو لا يدري الى اين مساقه ، ثم تسلل الى الحديقة الصغيرة فاذا هو عن كذب من باب صغير رصع بالنقوش البديعة ، وركبت فيه نصوص من الفسيفساء وقد قام على الباب تمثال صغير للعدراء مريم فوق قبالة التمثال ، وفاض في نفسه شعوره المنبجس ، ثم مال بث ان جفا التمثال وازور عنه وفتح الباب في خفة الوميض وهو

لا يدري معنى هذه الثورة التي اخذت تطفو على نواحي روحه
وظل ذلك الرنين العذب الذي استفاض من جوانب الدير حلواً سائغاً لذيذاً
يحرك شجونه وذكرياته فجعل يمشي بخطى متثاقلة وهو مسوق بدافع خفي الى ناحيته
بل لقد كان يتلفت حوله وهو لا يدري مصدر تلك الرياح التي عصفت فجأة
حتى حركت حياته الراكدة !

— بالنفسي من هواجسها !

ولم يصف هذا القلق الذي اثار روحه باكثر من هاجس فظل يهذي وهو—
دائب على طوافه حتى لطم رأسه باب الدير فاستفاق من ذهولته وغشيته وصدق الى
الدير طويلاً فتشقق عرفاً طيباً فالتفت حائراً مشدوهاً لا يدري من اين هبت عليه
نفحات ذلك الشذا العبق ؟ ولكنه لم يلبث طويلاً حتى عرف مصدر تلك النفحات
فاذا هي تتأرجح من مجامر البخور في داخل الدير .

وتضاعف ذلك الرنين الحلو ثم تضاعف فهاشك في ان الرهبان يمضون
في صلاة الصبح فصبت نفسه الى دخول الدير فطرق بابه وهو اهدأ ذهنأً
واربط ما يكون جأشاً . . .

وبغته فتح الباب ولاح على عتبه شيخ جليل قد اناف على السبعين فنظر اليه
راعشاً واثني يريد رجوعاً فقال له الشيخ :

— من الطارق ؟

— رجل ضل سبيله فعاذ بالدير

— من انت ؟

— عبد الله بن ابي ربيعة بن عوف الثقفي

— لعلك من الحجاز ؟

فخني امية رأسه فأفسح له الراهب الطريق واردف :

— ادخل على الرحب والسعة فانت في ضيافة الله .

كانت الكنائس والأديرة والبيع في الشام وحوران والبقاء لا تأنف من فتح أبوابها للضيوف الوافدين من جزيرة العرب ولا يحجم رهبانها وهم الذين حبسوا أنفسهم لله ، عن صنيع كريم ينم عن سلائق طيبة ، ومشاعر نبيلة .

وكان لسادة قریش كرامة موفورة في هذه البيع التي جعل أصحابها شعارها « الله والحقيقة والشرف » وقد اختص الرهبان القرشيين بهذه الرعاية لشرف حسابهم ونقاء نفوسهم واحتواء هذه النفوس على اصفي النبايع التي تفيض بشتى الفضائل سارامية بن أبي الصلت امام الراهب في كثير من الخشوع وقد اشجته الأعراف الذكية التي تتأرجح من مجامر البخور ، واشتملت نفسه على روعة الخيال الشعري وروعة الديانة .

والشعراء لا يرحون أكثر الناس شعوراً بالجمال كلما عرض لهم في الطبيعة مشهداً قاتناً .

ولعل الديانة أكثر ما يفتن لب الشاعر وذكائه بل لعلها الصورة الفذة التي ينبثق منها حلم الشاعر في الطمأنينة والراحة وسكون النفس الى معاني الحياة الجميلة قد تعرض للشاعر في الديانة دمية من الدمى فيرى في ركودها وصمتها كل ما تحتاجه حياته من نبايع الحياة الثرة الدافقة بل لقد تعرض له في الديانة رسوم عافية فيقبل عليها ويدرس غناءها فلا يخرج من درسه الا وقد حال ذلك الغناء المطلق الى حياة مرحة راغدة .

وكذلك كان شأن امية بن أبي الصلت الشاعر الذي انسجمت الديانة في خاطره وغالطت ذهنه حتى اصبحت حلياً من الذاحلامه وابهج امانيه ، وحتى اصبحت كل ما عرض له من الدمى والصور حافزاً لشجونه مثيراً لسكونه .

لم يكن التعس يدري الى اين مساقه ومصيره ؟ فقد جعل يمشي بخطى راعشه وكانت الدهاليز التي تنيرها مصابيح ضئيلة تبدو له كأنها عالم بعيد الغور والعمق فبلغ به طوافه حجرة يظللها سقف من المرمر فأومأ اليه الراهب بالا يعدو

في خطوه هذه الحجرة وقال له :

— هنا ميئك في هذه الليلة

فتغلغل امية في اعماق الحجرة وقفل الراهب راجعا الى مثواه في الدير فلما خلا الشاعر الى نفسه في تلك الحجرة المترعة بكثير من التصاوير والدمى تنفس الصعداء وفتح عينيه كأنه استفاق من غشية طويلة وعكف على ملابسه ينزعها في تودة ورفق ثم اضطجع على فراش ينم عن حياة وادعة قريرة ، واغمض عينيه ونام نوما هادئا طيباً والأعراف الذكية تملأ جوانب الدير والراهب الذي ساقه الى مثل هذا المساق يصلي في محرابه في كثير من التواضع والورع .

وفي صباح اليوم التالي بكر امية في نهوضه ، فاذا هو عن كذب من ذلك الراهب المحطم الذي فتح له باب الدير ؛ فرأى فيه على ضوء المصباح شبحاً ضاوياً ضئيلاً يزدلف اليه بخطى ضعيفة ويمشي الى ناحيته وهو يكاد يعثر في مشيه وكان الراهب لا يبرح صامناً زميتاً كأنه رسم قديم — فنظر الشاعر اليه كأنه قد عرف فيه صديقاً قديماً وصاح به .

— قل لي الست بحيرا الراهب المبجل ؟

— نعم

— لقد تلاقينا في اللقاء اكثر من مرة واحدة وذلك قبل ثلاث سنوات

افلا تعي شيئاً من امر هذا اللقاء ؟

ثم تلاقينا في صيف السنة الدائرة هنا في قصر آل جمنة !

فحدق الراهب اليه ثم مضى ناظره يجول في الفضاء وراح الشاعر يسأله قائلاً :

— في المرة الاولى كشفت لي عن بعث نبي في العرب ؟

فهمس الراهب :

— بلى بلى .

— وفي المرة الثانية قلت لي ان هذا النبي يوشك ان يطل :

فصاح بحيرا متحمساً :

— نعم نعم .

— اذن فاي حديث جديد تريد ان تكشف لي عنه في هذه المرة الثالثة ! . .

فتح الراهب عينيه كأنما هو قد افاق من حله فاذا هو لم يعد ذلك الشبح الضاوي الضئيل واذا ذهنه يفتح ويتلاّ ثم اذا هو يتحول الى شاب جديد لا يعوزه قليل او كثير من حماسة الشباب ونزواته فخيّل الى امية ان الراهب لم يفقد شيئاً من حمة الحداثة ، واندفاع الشباب ، بل لقد خيل اليه ان الراهب عاد يحدثه بمثل تلك التبرات القوية التي اصفى اليها في الماضي فما شك انه مقبل على خوف شديد .

وتقدم الراهب من امية ثم تقدم وتقدم كثيراً حتى صاقبه وحاذاه ثم امسك يديه فاذا هما تنضحان ثلجاً وقرأ فصاح :

— انظر من هذه الشرفة الى الصحراء . . . حديق طويلا الى هذا الرمل المنبسط الذي تحمله الينا بادية العرب . . . هنالك في هذا الرمل الذي تعصف به شتى الرياح قافلة تسير مطمئنة ؛ في هذه القافلة تجارة الى بصرى ؛ نعم حديق طويلا في هذا الرمل المنبسط ؛ وانظر الى ناحية هذه القافلة التي تسير في ارض لا ينبت فيها الزهر والآس ؛ اذا نظرت الى رجال هذه القافلة وتبينت ملاحهم بدا لك صبي كعقد الجمان في وميضه واشراقه ؛ ولاح لك في هذا الصبي المجيد ذلك الناموس الذي لاح لموسى وعيسى . . .

لقد ولد النبي في اشرف القبائل بل في اكرم البيوت !

وكان امية يتبع بنظراته تلك اليد الراحشة التي اخذت ترسم في الأفق خطوطا وهمية لرمال البادية تسير في وسطها قافلة اصطنعها هذا الخيال الذي يبعثه الورع والتقشف ولكنه لم ير رمالا ولم يلح قافلة فعاد الى الراهب كأنما هو لا يصدق بعض هذا الذي يقوله .

وشد ما كانت حيرته حينما ابصر الراهب وقد حجب عينه خلف غمامة من
دموع الفرح وغاشية من بكاء يهطل ويسح ، فقامت نفس الشاعر من اليأس وراح
يسأله قائلاً :

— اذن فلست هازلاً في هذا الذي تقوله ؟

— كلا كلا !

فلم ينبس الشاعر ولكنه ثنى وجهه وعدا يريد الخروج الى الدير فاستوقفه
بحيرا قائلاً :

— فيم اجفالك هذا ، أرمضك كثيراً أن ينبت في الحجاز هذا التبت الذكي
المتأرجح ؟ واعجباً لكم معاشر العرب ! تعيشون في الصحراء عيشة السائمة وقد الظ بها
الفصل القائط فراحت تهيم في شتى النواحي بينما يغشى تلك المدن التي تركتموها
وراء هذه الصحراء العارية اجني نعم بالظلال الوارقة الرطبة وبينما يحصد هذا
الاجني ما زرعه ايديكم في الحقول التي امرعت في لهث نفوسكم واخصبت في كد
خواطركم وبينما ينشيء هذا الاجني في الارض الزاهرة المورقة حصونا من الحجر
الصلد وقصوراً من صخور الجبال تم عن جبروته وصلفه بينما هي تم عن هذا
الموت البارد المقرور الذي يغشى نفوسكم . . .

في العراق الفرس ، وفي الشام الروم ، وانتم بين هؤلاء واولئك اضنأ بهذه
الصحراء التي لاتدر لبنا ولا تنبت حبا .

واعجباً ! هذه المراعي الفينانة والينابيع الهتانة ، كلها لكم ثم بعد هذا كله تأتون
بالماء فتشربونه آسناً غير سائغ . . .

ايها الشاعر الذي يأتيه الالهام من جمال الارض وجمال السماء لتبدل انغامك
في الروضة الغناء ، والدمنة الوطفاء ، بنغمت عذاب تبعثها نفسك في الاشادة بروائع
هذا الفجر الذي سيظلل نوره البهي عالماً جديداً تفيثون اليه وتحصدون في اديمه
نبات الحياة المتوردة الزاهية .

قال بحيرا هذا كله وراح يصلي في زاوية صغيرة في الدير تاركاً الشاعر في سبحه وغرقه .

ومضت لحظات ، ثم مضت لحظات وبحيرا في غرق عميق ، فما عثم الشاعر ان استجيا من خواطر نفسه الثائرة وضجرتها الاحق فراح ينتحي ناحية بعيدة في الدير رجاء ان يطمئن وان يسكن وقد نسي ابا سفيان ، ونسي صحبه بل لقد نسي تلك التجارة التي نقلته من البلد البعيد ، الى البلد الابعد ، وفاته اغراضها فما عاد يفكر الا في الاطمئنان والسكون .

وعرضت له في الناحية التي انتبذها في الدير قبور ورموس من الممرم النقي فوق حياها مطرقا خاشعاً فضاغف سكونها انفعاله فلج في مخاوفه واوغل في بأسه وخذله شعوره الجائش في التعبير عن هذه الآلام الكثيرة التي احسها فضى يفكر ليجد لها في خاطره كنفا يستريح اليه فما بلغ به الجهد طمحاته ، ولم تكن لديه كلمات كافية لتصوير آلامه الخفية ذلك بأن الاحزان الحقيقية تبقى صامته ساكنة

وخيل اليه وهو واقف حيال القبور انه اصبح ضعيفاً واهناً وان عينه تبتردان بالدمع وانه لم يعد سوى امرأة تلج في الشكاة ، وتبالغ في البث .

واشبهت نفسه المتبرمة بالحياة زهرة يانعة قذفت بها الرياح العابثة الى الرمال لجفت وذبلت وغاب اريجها المتضوع في سفير الرمل المتأجج .

ولم يطل به حجه الى هذه القبور فبرح مكانه وقفل راجعاً الى الراهب الذي اتم صلاته فاجزل له الشاء على وقادته وكرمه واربد الى قصر صرح العدير فلحق بابي سفيان .

في تلك الاثناء مال بحيرا الراهب الى النافذة فتقصى بالنظر وجه الشمس وقد نهدت من خدرها الازرق البهي وغرت انوارها القصور والمعابد نهمس قائلاً : — ستصل القافلة الى بصرى ... انها الآن في هذه البادية ، ثم عاد الى حجرته ليستأنف تأملاته ، واحلامه !

الفصل السابع

في الطريق الى دمشق

قفل امية الى ابي سفيان فالفاه لا يزال في حجرته وهو اشد ما يكون مرحاً واستنشأ وكان الارق لا يبرح مائلاً في عيني الشاعر فجعل سيد بني امية يطيل تأملاته فيه كأنه يريد ان يتغلغل الى اعماق روحه ليفهم اسرارها الحبيسة فابتدره قائلاً :
— يخيل الي انك لم تتم لي ذلك هذه ؟ فاني حادث اشجاك في بصرى حتى صيرك

كهذه الطلول الدوارس التي تعرض لنا في البادية ؟

فانشأ امية يقص على ابي سفيان حديث تلك المشاهد التي عرضت له وهو في دير بصرى فاستثارت شجونه وبعثت اوهامه ، ثم سرد له خبر تلك النبوة وافاض في الوصف واخذ يريق على هذا الوصف شيئاً كثيراً من بلاغته فلم تخرج من فمه عبارة الا اترعها بالانيق المستحب من بيانه ، ثم تبسط في حديثه فذكر حماسة بحيرا ووصف ذلك الورع البليغ الذي غشي الراهب في تصويره النبي فاثرت هذه الصورة المنقولة في نفس ابي سفيان واستثارت حماسها وغيرتها فصاح :

— ان احديث هذا الراهب عن ذلك النبي الذي سيعث في العرب لمي على

شاكلة تلك الاحاديث التي خبر بها ورقة بن نوفل في سوق عكاظ

دلني على مثوى ذلك الراهب الورع فاني احب ان يحسر لي اشياء كثيرة عن هذا النبي

— ولكنني اخشى ان يغمرك مثل هذا الاحساس الغرب الذي غمرني فقل

وانه دخلت على الراهب وانا بعد طليق لا يخامرني غير سكون النفس واطمئنانها

الى العبادة وكنت لا ابرح مأخوذاً بجلاوة ذلك الشذا المعطار الذي ملا جوانب

الدير وارع نواحيه فما ان تص على الراهب حديثه عن ذلك النبي حتى عدت الى

نفسي فاذا هي لا تملك وعياً ولا تصحب ذكرأ واذا انا سادر في حلم مضب معتم

ولكنه حلم يبعث اكثر من الخوف واروع من الرعب اوكنت مطمئنا الى ان
تقشني يبلغ بي هذا المدى الذي بلغه عيسى فاشككت في اني ذلك النبي !...
ولكن الراهب ماعثم ان انتحى ناحية تلك الصحراء المترامية التي ترتادها القواقل
في طريقها الى بصرى وطلق يرسم يديه الراءشتين خطوطا وهمية في أواذي ذلك
الرمل المنبسط المضطرم ثم سمعته يقول كأنه في حلم : انظر الى الأفق هذه هي
القافلة ، انها لتشق غلالة الرمل في يوم صائف ، انها لتتحدرو الى بصرى ... انظر
مليا ، في هذه القافلة صبي كريم افاء الله عليه ما افاء على مرسى وعيسى ! فاجتذبنى
وهمه الى وهم حافر فعلقت نفسي بالأفق وراحت عيناى الى ناحية الرمل تتأملانه
فلم استب قافلة ، ولم المح صيبا ، فادركت اني في مثل هذا الفرق الذي يغشاه
ويحتويه ولكنني صدقت احاديثه وآمنت بصفاتها .

كان امية يتكلم وهو اشد ما يكون تدفقا واندفاعا وكان ابو سفيان الى كله اشد
ما يكون اصفاء وانتباها واكثر ما يكون احساسا بهذا الجديد الذي جاء يحدثه عنه فلما
وقف الشاعر عند هذا الحد في وصفه طوانه بالدير واجتماعه الى بحير اصاح ابوسفيان :
— ليكن طوافنا بالدير غداً فاني لآلذ الاصفاء الى حديث الراهب
عن ذلك النبي الذي جاء يبشر ببعثه وظهوره اما انت فلا يضيرك ان تلقي بطمحاتك
الى هذه الرمال فتحتويها ، ثم تنطلق الى نفسك فتعربها من هذا الالم الممض الذي
يغالبا وترجع الى الشعر فلعل الشعر يرد اليك صبايتك في السكون والشعر كما
علت تجديد للقوى الذاهبة والآمال الخائبة ، وكان النهار قائظاً لفاح الأوار
فضى ابو سفيان يحدثه قائلاً :

والآن لم نبتد بهذا النبي الذي يغمر جنات القصر فليس يطفيء سعي نفسك
غير الابتعاد بالظل وغير الفرق في هذه الخضرة الناعمة المساء التي تغشى هذه الجنات
وانطلق الى جنة النصر ، والأرض راقت افقاً وحسنت مرتفعاً ومشى الشاعر
الى جانبه وقد غام بصره بوكف اليم .

في تلك الأثناء كان قصر المنذر الغساني يغص بالوافدين من اشراف البلقاء وحواران وندمر والشام ، وقد نفر هؤلاء من اماكنهم البعيدة لاستماع شعر حسان بن ثابت احد شعراء يثرب .

وكان حسان يرثى الشام في فصل الصيف القاطن فيزل على ملوكه وامرائه ويجد في اولاد الحارث بن ماريه وهم النعمان والمنذر والمنذر وجبله وابو شمر اخوة يحدبون عليه ويجلون ذكره ويكرمون اثره بل لقد كان هؤلاء كلهم يفتحون امامه قصورهم في البلقاء وفي حوران وبصرى فيدخلها مطهئن السرب وادع النفس كأنما هو في منزله يثرب بين اهله وذوي رحمه . .

وكان حسان قد برح داره منذ اسابيع وهو بعد ريان الشباب ، حلو الجرس ناعمه ، صديح الوجه ، لم يبلغ العشرين من العمر فلما اتى بصرى في تلك العشية كانت قوافل ابي سفيان تحط رحالها في الأسواق .

وأراد المنذر ان يبالغ في تكريم الشاعر فدعاشيوخ غسان الى قصر الحارث بن ماريه ليسمعهم شعر حسان فقرأ الشاعر قصيدته بصوت ناعم النبرات : ثم تدفق كالآتي المنهمر فصاحة وبيانا فاشجى سامعيه واستثار عواطفهم ومشاعرهم ولما بلغ في قصيدته قوله :

اولاد جفنة حول قبر ابيهم	قبر ابن مارية الكريم الافضل
بيض الوجوه نقية احسابهم	شم الانوف من الطراز الأول
يسقون من ورد البريص عليهم	بردى يصفق بالرحيق السلسل

خلع عليه الملك المنذر رداءه وادناه منه .

وبينما كانت اشعار حسان ترعش شيوخ غسان من الحماسة والزهو اخذ الليل ينشر ذوائبه الفاحمة على الرمال وطفقت قافلة صغيرة تشق غلالة الصحراء تحت الغسق التماساً للظلال الرطبة ثم انحدرت الى الطريق المؤدية الى بصرى وفي اثرها بعض الفرسان

بكر ابو سفيان في نهوضه من فراشه وهو اشد ما يكون تشوفا الى حديث
الراهب بحيرا ، فلما احتوته حجرة امية الفاه يرعش فصاح به :

— لقد بالغت في القلق وارى تماذك في هذه الهواجس التي تزخر في نواحي
نفسك قد يفضي بك الى آلام مضنية واني لاحب لك ان تغدو مطمئناً وان تنزع
من نفسك اثر هذا الطموح الذي يفترسها ويتأكلها

فلم ينبس امية وانطلق مع ابي سفيان الى الدير فاعاد الراهب عليهما حديث
ذلك النبي بمثل حماسه الاولى وغيرته الماضية وزاد على ذلك قائلاً :

سأبرح بصرى بعد ليال الى دمشق فاجتمع الى احبارها لأحدثهم بشأن هذا
النبي الذي سيكون بعثه اول علائم الحياة في صحراء العرب ! . .

فقال ابو سفيان :

— اذن دعنا نودعك

فصاح الراهب :

— لماذا لا تبقون في ضيائقي ؟

— سنلحق بدمشق في هذا المساء لنعرض لتجارتنا في اسواقها ، فاذا انقضى الغد

عدنا الى مصلاك في اليوم الذي يليه فجز رأسه هزة الفرح واردف :

— ان ابواب مصلاي ستظل مفتوحة لكما ولكل قادم من الحجاز !

— لقد اصبح كرمك مثلاً سائراً في جزيرة العرب ! . . .

فتبسم بحيرا وقال :

— لا تبالغ في المدح والثناء ايها الشريف النيل فان عملي يبدو لك ضئيلاً اذا

ما قسمته بهذا الكرم الذي لا يبرح شعار هذه الخيام التي تترامى لنا تحت الفضاء

واني لا قسم لك ولست كاذباً ان خيام الاعراب في صفاتها وطهارتها افضل بكثير

من هذه القصور الشائخة التي لا تتسع لغير الاهواء والشهوات والتي قامت صروحها

وبروجها على مناكب البائسين والمكدودين فقال ابو سفيان :

— حسبك هذا الذي قلته فإلقد والله حبت الى البادية كثيراً وانسيتني بعض هذا النعيم الذي تذوقته في الحضارة .

واستأنف بحيرا حديثه قائلاً :

ناشدتك الله ألا تنسني من زيارتك ، ثم التفت الى اميه وقال له :

— لعل صلاتك في الدير لا تكون الأخيرة ؟

وارتد بحيرا الى ابي سفيان فهمس في اذنه قائلاً :

— سيخرج من ابنائك ملوك يدلون الروم عن هذه البلاد ! وسيكون ابناؤك

جندا لهذا النبي العظيم ينصرونه اذا قعد الناس عن نصرته ولا تقعد بهم همهم عن تأييده في دعوته .

فرعش ابو سفيان وهم برفع صوته فثناه الراهب واراده على السكوت وقال له :

— سنتقابل كرة اخرى اليس كذلك ؟ ..

— بلى وفي هذا الدير

— نعم في هذا الدير ، ولكني اناشدك الله الا تفتح فك فيعلم الروم بامرك

ويفكر قيصر في قتلك . . . قل لي انك ستدفن هذا السر الذي افضيت به اليك في غلالة نفسك !

— هديء روعك فلن يبلغ الروم اعماق نفسي ا .

وشد ما كانت فرحة الراهب حين تلقى هذا الوعد فعاد الى ديره حافل النفس

بالشباب والقوة وارتد الى مصلاه وليس في ذهنه سوى معنى واحد وصورة واحدة :

معنى النبوة وجلالها ، وصورة ذلك النبي وجلاله ، ثم جعل يتخافت بصوته وهو راكع على رخام المعبد :

— امتدي ياظلال هذا الفجر الجديد على اكناف عمري الزاهب وانيري

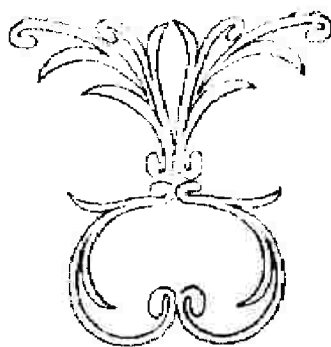
غسقها الفاحم .

ثم عاد الى حجرته شاعراً بحلاوة الاستخذاء لذلك الصوت الذي تدفق في

نواحي روحه ، وهو يناديه الى الايمان بذلك النبي الكريم .

وفي المساء اجتاز ابو سفيان بن حرب وامية بن ابي الصلت الطريق المؤدية الى دمشق في طلعة القوافل .

وبعد ايام برح حسان بن ثابت بصرى مودعاً قصورها ومعابدها وملوكها
فدخل جنات الغوطة تحت ندى الصبح الباكر ولقي أولئك الفتيان اللاهين المرحين
فسألهم ان يدلوه على طريق دمشق فدلوه فواصل سيره كما يذكر القراء ، حتى بلغ
ناحية الدير ، ونزل ضيفاً على احباره ، وفي صباح اليوم التالي لقي الشاعر ابا سفيان
في جنة الدير مع امية فلحق بهما ، وبرح الثلاثة المعبد متوغلين في اسواق دمشق تحت
ذوائب المساء .



الفصل الثامن

العرب بين الروم والفرس

طغَتْ على بلاد العرب في أواخر القرن السادس موجة قلق أغرقت في سدقتها حياتها الاجتماعية والسياسية فاندثرت الدولة التي ينتظم بها الأمن والسكون وضاعت الأسرة وهي قوام المجتمع وأصبحت البلاد من ساحل البحر الأحمر الى ساحل البحر الأبيض موزعة بين الفرس والروم الذين تنازعوا على البلاد المعروفة بخصبها وإمراؤها وثروتها كالعراق والشام وكان اضمحلال الأسرة في بلاد العرب صادراً عن اضمحلال الديانة في القبائل العربية العاكفة على عبادات مظلمة مغمورة ليس لها غرض أدبي تقصد إليه او غرض اجتماعي تحوم حوله ؛ فنشأ عن اضمحلال الأسرة نفي في وحدة البلاد السياسية أنفضى إلى قيام عصيات مستقلة في بعض الأنحاء البعيدة عن المراعي والينابيع كالجزاز ونجد لم تستطع البلاد معها أن تتمتع ولو قليلاً بالطمأنينة التي تنشيء الأسرة وتنشيء البيت والحقل .

وهذه الحالة المريبة التي شملت بلاد العرب شجعت الروم في القسطنطينية على التبسط في نواح كثيرة من امصار الشرق فخضعت لهم الشام وفلسطين وأرادوا الناس على النصرانية وهي ديانتهم فعكف عليها أهالي فلسطين والبلقاء وحموران والشام وتدمر ولبث العراق في نجوة ولكنه لم ينج من الفرس الذين نافسوا الروم في خلق الملوك والممالك في العراق .

واصطنع الروم عرب الشام في قتال الفرس ووجدوا في ملوك غسان المنتصرين نزوعاً إلى المعارك ولعل أروع الملاحم التي شهدتها سهول الشام والعراق تلك التي خاض غمارها الملك الحارث بن جبلة الغساني الى جانب القائد بلزاريوس الروماني الذي بعث به يوستانيوس صاحب

القسطنطينية الى قتال كسرى انوشروان . ملك الفرس فلقد احتدمت المعركة وخاضها الفساسنة والمناذرة الى جانب الروم والفرس ؛ وكان الحارث الغساني قائداً جيوش العرب المنتصرة ، وبلزاريوس قائداً جيوش قيصر ثم انكشفت المعركة عن انكسار الفرس وارتدادهم فرأى يوستانيوس أن يكتني بهذا النصر فمنع جنوده من التوغل في بلاد الفرس واراد كسرى على الهدنة فوافقه عليها وكان الروم في ذلك العهد يوغلون فتحاً في افريقية .

أدرك كسرى ماربجه الروم من الهدنة فاحتقه ذلك فتزع الى تقص الصلح وطلب الى المنذر بن ماء السماء بن امريه القيس الثالث عامله على العراق ان يغزو الشام وكانت المنافسات قائمة بين الحارث الغساني والمنذر اللخمي على طريق في البادية فلما اجتاح المنذر حدود مملكة الفساسنة انتصر قيصر لعامله الحارث الغساني وانتصر كسرى لعامله المنذر بن ماء السماء فدارت الدائرة في هذه المعركة على الروم ، وبلغ الفرس وحلفائهم من عرب العراق اسوار القسطنطينية بعد ان تركوا الشام والعراق طلولاً عافية ، وخربات ممزقة ، فاستعان قيصر قائده بلزاريوس الذي كان في افريقية ، فهاجم هذا القائد المناذرة في بلادهم وتوغل فيها وامتد برحفه الى بلاد الفرس وترك الحارث الغساني وجنوده خلفه حتى لا يكون لهم نصيب في النصر فاحفظ عمله الحارث فعاد الى بلاده وبلغ كسرى امره فارتد على الروم وخرجهم من بلاده .

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة سار المنذر بجنوده الى الشام فنصب خيامه على عين اباغ ، في واد ظليل على شاطئ الفرات وأرسل الى الحارث يقول له : اما ان تدفع القدية فانصرف عنك ، واما ان تأذن بحرب . فاجابه الحارث : انظرنا ننظر في امرنا ، فجمع الحارث جنوده ومضى الى المنذر وأرسل يقول له : انا شيخان فلا نهلك جنودنا والرأي عندي ان يخرج رجل من ولدي ورجل من ولدك فمن قتل خرج الى مكانه آخر واذا فني اولادنا خرجت انا

اليك فن قتل صاحبه ذهب بالملك ، فواققه المنذر لكنه غدر به وانزل له بعض رجاله بدلا من اولاده فعلم الحارث بالمكيدة بعد ان قتل له ولدان من اولاده وحمل على المنذر برجاله واقتلوا قتالا شديدا حتى قتل المنذر وهزمت جنوده .

وتوارث عرب الغساسنة في الشام وعرب المناذرة في العراق هذه المنافسات التي وجدت من الروم والفرس ما يغذيها وينمها .

حلت هذه المنافسات الغساسنة على أن يسألوا الوافدين إليهم من العراق رأيهم في أيهما أفضل ملك غسان . أم ملك العراق ، من ذلك ان ابا قيس بن رفاعه كان يقد سنة الى النعمان بن المنذر اللخمي بالعراق وسنة الى الحارث الغساني بالشام فقال له الحارث يوما وهو عنده : يا ابن رفاعه بلغني عنك أنك تفضل النعمان علي فقال وكيف افضله عليك اييت اللعن فوالله لقفاك احسن من وجهه ولاملك اشرف من ابيه ولا بؤك اشرف من جميع قومه ، ولجندك اعز من جنده ، وانك من غسان ارباب الملوك وانه من لحم الكثيري النوك فكيف افضله عليك؟ .

وكان هذا النوع من التنافس سببا في إفساد ضمائر الرعية فجعل الذين يسيحون في أطراف العراق ينقلون الى المنظره صورة مشوهة لملوك غسان وجعل الذين يختلفون الى الشام ينقلون الى ملوك غسان صورة مشوهة لآل المنذر ولم تنقطع المشادة بين ملوك العرب فاستمرت على اسوائها حتى اتصلت بنواحي تدمر حيث بنو ربيعة حلفاء الروم في حروبهم مع الفرس والمناذرة

امتد هذا القلق الذي شمل الاذهان والضمائر والنفوس الى بلاد العرب جميعا وكان بعضها خاضعا للنجاشي ملك الحبشة النصراني الذي كان يجري على سنن الروم في إفساد الضمائر وتعطيل الأخلاق وكان طبيعياً جداً أن تنجم عن هذه الأحوال الشادة معارك وملاحم تعطل ما بناه الفكر المذهب من صروح وقصور ومدن عامرة ، من ذلك أن عرب الحيرة بقيادة المنذر الثالث كانوا قد اجتاحوا تدمر فدمروا فيها قصر برقع الذي بناه الحارث بن جبلة في البرية وحطموها شرفاته

وكان عمرو بن الحارث قد بنى بعض القصور الشاحخة في دمشق ونواحيها فلما توغل
عرب الحيرة في الشام لم يمتنعوا عن احراق هذه القصور التي كانت مفخرة خالدة
للعصر الفسائي ولم يتورع الفساسة عن مجازاة عرب الحيرة في اضرار النار في
قصور الحيرة التي بناها المنذر بن امرئ القيس اللخمي فجعلوا عاليها سافلها واتلفوا
زروعها وكرماتها وجناتها .

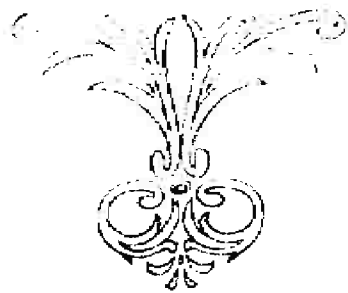
وبينما كان العرب المنتصرة في الشام والعراق يتبارون في التقتيل والتذريح اذا
عرب الجاهلية الذين صدفوا عن النصرانية واليهودية يسبحون في وثنية جافة قاسية
فكانوا يندون البنات في غير شفقة ولا رحمة وكانت مذاهبهم محتلفة في الواد،
وطريقة الواد ان الرجل منهم كان اذا ولدت له بنت فاراد ان يستحيها البسها جبة
من صوف او شعر ترعى له الغنم والابل في البادية وان اراد قلبها حفر لها بئراً في
الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظري ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب
حتى تستوي البئر بالارض وكانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فخضت
على رأس تلك الحفرة فاذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة واذا ولدت ولداً حبسته .
ومن عاداتهم انهم كانوا يدخلون عشرة على امرأة ، وذلك إنما يكون عن رضى
منها وتواطؤ بينهم وبينها ، فاذا حملت ومرت ليال بعد ان تضع حملها ارسلت اليهم
فلم يستطع رجل منهم ان يمتنع حتى يجتمع عندها فتقول لهم « قد عرفتم الذي كان من
امرکم وقد ولدت فهو ابنک يا فلان تسمي من احبت باسمه فيلحق به ولدها » .

هذه هي حالة عرب الجزيرة في اواخر القرن السادس لم يكن لهم دين يزهدهم
في هذه التقاليد المستقبحه او فكرة معينة تردعهم عن الاسراف في التقتيل والتذريح
والاحراق ، بل لم يكن لهم غرض سام يحفزهم الى الاعمار والانشاء في هذه الارض
الغنية بجناتها وزخرفها ومعادنها فكانوا يوغلون في الاجرام بينما كانت الشعوب القوية
التي ورثت عن قديمها السلائق الطيبة والشرائع المهذبة تكتسح في جوارهم تلك
الارض التي تخرج نباتاً طيباً حسناً .

تنبت الفكرة النبيلة في الأرض التي شهدت الوف المآسي والوف الفجائع ثم
تستحيل الى عقيدة ثابتة توثقها تلك الأحزان والأشجان التي تخلق الأمة وتخلق
معها حرمتها وعظمتها واثرها في الأنشاء والابتكار فلا تلبث هذه العقيدة وقد
استساغتها الأمة وارتضتها في جملة تقاليدها ان تغدو ديانة مقدسة تجد فيها عزاءها
ورجاءها .

ولدت النصرانية في أرض مترعة بالمآسي وكانت يوم مولدها فكرة ضعيفة
واهنة فوثقتها الأحزان والأشجان ، ثم استحالت الى ديانة منشئة مبتكرة تعاف
هذا الورع الجاف الذي يحملها على الاكتفاء بوطن ضيق الحدود لا يتسع امام
شهادتها وحماتها ثم هي امتدت ، وامتدت كثيرا حتي بلغت في زحفها المجيد الفجاج
البعيدة والشواطئ ، والخلجان والمدن العامرة فلم تعد تستسيغ غير القباب الشواخ
والقصور المنيفة في الجنات الزاهرة عن كذب من الامواه الهادرة .

فهل ينبثق من ظلمة هذا الغسق القاتم الذي يغطي آفاق بلاد العرب فجر بديع
يحمل الى هذه البلاد التي تعبت من كبرياء الجاهلية فكرة منشئة مبدعة تستحيل الى
ديانة موثقة تعاف هذا الاعتزال الذي عافته النصرانية حين اتسق ببيانها ؟



الفصل التاسع

دروع امريء القيس

استأنف الفرسان الثلاثة سيرهم في اسواق دمشق تحت اشعة الكواكب ؛
وابو سفيان في الطليعة والى جانبه حسان بن ثابت وامية بن ابي الصلت ، وكانت
الاحاديث بينهم طلية عذبة تناولت ما غبر من حياة الفرسان في الحب والفروسية
والاسفار . وقد نسي الجميع احاديث بحيرا وطرحوها ولم تعد ذكرياتهم التي
تطفح بالروعة تخالج خواطرهم واذهانهم لانهم وجدوا في دمشق افقا جديداً فتح
امامهم عالما جديداً يموج بالانسة والفرحة ولعل امية بن ابي الصلت كان
اشد رفيقه استئناسا الى هذا الافق الجديد فقد لالا الفرح في وجهه وطفق
يلقي على حسان كثيراً من الاسئلة عن سياحاته واسفاره في العراق والشام وحسان
يجيبه ويصف اسفاره وصفا بارعا بليغاً ، فالتفت ابو سفيان الى الشاعر وسأله قائلاً :
— اي البلدين احب الى نفسك ، العراق ام الشام ؟

فاجاب حسان :

— ما كان في قدرتي ان أوثر العراق على الشام ، او أوثر الشام على العراق
فها قرمي وفيهم كل دمي ، وهنالك قومي وفيهم كل دمي على اني اذا كنت احب
هذا الشرف العالي الذي تسطع بروقه في وجوه الفسائين فاني ايضا احب في
اللخميين تلك الحية التي تعصف بنفوسهم وتحذوهم الى وصل الارحام والى العطف
على الاسرة العربية والحذب عليها فالملوك المناذرة ابطال معامع لا تثار الا لاستبقاء
هذه الاواصر التي تربط بعض الاسرة العربية الى بعض ؟

واذا كان يطربني في ملوك غسان اغراقهم في الحذب علي وتماديهم في ايشاري
على شعراء البادية فان الذي يطربني في ملوك العراق انهم يفتحون قصورهم للوافدين

من بادية العرب ، فلا ينزل عليهم شاعر الا تهافتوا على اثاره وتبجيله والا حبه
فوق هذا الذي يستحقه شعره وقريضه . وانهم ليفعلون ذلك من غير ان يسألوا
الرجل عن لونه وصباغه ، ومن غير ان يسألوه عن قبيلته واسرته .

في ذات عشية وفدت على النعمان بن المنذر ، فلقيت رجلا ببعض الطريق فقال
لي : ابن تربد ؟ قلت : هذا الملك ؛ قال : فانك اذا جئته متروك شهراً ثم تترك شهراً
آخر ، ثم عسى ان يأذن لك ؛ فان انت خلوت به واعجبته فانت مصيب منه خيراً وان
رأيت أبا امامة النابغة فاطعن فانه لاشيء لك عنده ؛ فقدمت عليه ففعل بي ما قال ثم
خلوت به واصبت ما لا كثيراً ونادمته ، فينا انا معه اذا رجل يرتجز حول القبه ويقول
انا ثم ام سامع ذو القبه الواهب النوق الهجان الصلبي
ضاربة بالمشفر الأذبي ذات نجاء في يديها جلبي
في لاحب كأنه الأطبي

فقال النعمان ابو امامه ائذنوا له فدخل فحياه وشرب معه ووردت النعم السود
ولم يكن لاحد من العرب بعير اسود غيره ولا يفتحل احد لخللا اسود الا ؛
فاستأذنه النابغة في الانشاد فأذن له فانشده قصيدته التي يقول فيها :

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم بيد منهن كواكب

فامر له بمائة ناقة من الابل السود برعاتها فما حسدت احدا قط حسدي له في
شعره وجزيل عطائه ، فصاح ابو سفيان :

— لقد ورث النعمان هذا الكرم عن كسرى .

— ماذا ا يكون لأعجمي مثل هذا الفضل على عربي ؟

قال ابو سفيان :

— اسمع ولا تستعجل ، اهديت الى كسرى خيلا وادماً فقبل الخيل ورد الأدم

وادخلت عليه فألقي الى مخدة كانت عنده فقلت واجوعاه اهذه حظي من كسرى

ابن هرمز ؟ فخرجت من عنده فما امر على احد من حشيه الا اعظمها حتى دفعها

الى خازن له فاخذها واعطاني ثمانمائة انا من فضة وذهب وعلمت بعد ذلك ان
وظيفة المخدة كانت الفأ الا ان الخازن اقتطع منها مائتين !
والتفت ابو سفيان الى حسان فاذا هو قد اغرق في الضحك فقال له :
— ما الذي اضحكك ؟

فقال حسان ! اتعلم ان حديثك لم يزهديني في النعمان ، بل حبه الى ! فوالله
ما رأيت فضيلة في ملوك الفرس والروم الا عدت الى مصدرها ومنبعها فوجدتها
بعض هذا الذي يبدو في شمم الغساسنة وعنفوان المناذرة !
فالتفت ابو سفيان الى امية بن ابي الصلت الذي جعل ينصت الى هذه الأحاديث
من غير ان يشترك فيها وسأله قائلاً :

— الديك ما تقصه عن اسفارك ؟ ولكن احترس ان تقص علينا شيئاً عن
حياة الرهبان واقاصيصهم ، فانها ورب الكعبة عملة وباعثة الى يأس شديد ! فظل
امية صامتاً فاردف السيد الاموي ! الا تلذ الكلام على اسفارك ؟
فقال امية ملتاعاً :

ناشدتك الله الا تعرض لذكر اسفاري ...

— اذن فانت لن تحدثنا عنها بعد هذا اليوم ؟

وكان الفرسان الثلاثة قد اقتربوا من شاطئ بردي فاظلمتهم بواسق الحور
واراق القمر كثيراً من الوانه الزاهية على الشجر والماء فترسلوا في السير ، واخذوا
ينظرون الى بهاء المساء وقد اوطف في كل ناحية وانهم كذلك اذا صوت استغاثه
يخرق اسماعهم فلما يدوا من دعر ، وارعدوا من خوف ومضوا الى ناحية الصوت ،
مسلفين اليه الأذان فروعهم فيه نغمة حزن عميق فصاح حسان :
— صوت امرأة ؟ ...

فقال امية ..

— نعم صوت امرأة عريية طاح بها الغم واليأس فأخذت ترسل آهاتها الى قلب الليل

فقال ابو سفيان !

يا للذل ! يا للعار ! امرأة عرية تبكي مثل هذا البكاء وليس في البلد من يهدد
حزنها والمها ؟

وظل الصوت مرتفعاً على اجنحة المساء حتى ملاء الفضاء المغدر وقد تخلله كلام
شديد على سامعيه !

يا للعار ! يا للعار ! ارومي يذال مني ، وجزيرة العرب نائمة ساكنة متلذذة بالرمال ؟
واختلط نشيج هذا الصوت الراعش بعزيف الماء الهادر ، وراح الشجر متميذاً
على شاطئ النهر واحتوت المشاهد جونة عابسة فما عاد الفرسان يسمعون غير صليل
الورق ، وصدى تكسر الماء على ضفاف النهر فثار مشاعرهم وطغت حماسهم فصاحوا :
— ليك ! ليك .

وفي خفة الوميض امتشق الفرسان سيوفهم ، فاذا لها بريق في تلك الجونة
الجاهمة ، ثم طلع القمر فلاح للفرسان على ضوءه قصر التفت به الأعتاب والظلال
وقامت على جنباته غابة صغيرة من شجر الجوز فنازعهم حماسهم اليه ، وودوا لو
انهم يتسلقون جدره وشرفاته لولا انه قائم على الضفة الثانية من النهر حيث ينبعث
ذلك النشيج الاليم ، فقال حسان :

— لنعبر النهر الى الضفة الثانية فان الصوت يتفجر من نواحي القصر .

فقال ابو سفيان :

— لمن هذا القصر الرفيع الذرى ؟

— لعله من قصور الروم ! فانبرى امية قائلاً :

— بل هو لآل جفنه ملوك الشام .

فاجفل ابو سفيان واردف :

— يا للآمل الخائب !

فقال امية :

— اراهن على ان آل جفنة ابرياء من تعذيب الشاكية الباكية ! واردف حسان :
— لقد نزهت حياتهم عن المخابث فما اسأوا الى امرأة .

فقال ابو سفيان :

— لقد تطاغى انين الناعسة فماذا نفعل ؟

قال حسان !

— لنخترق الماء .

وتضاعف النشيج فخلعت نبراته الشجية نفوس الفرسان فدفعوا بأفراسهم الى
الماء وعبروا النهر ...

انصاحت غيوم الليل وبرز القمر في الأفق تلتف به حاشية من الكواكب
وانكشفت المخاضر امام الفرسان فأوغلوا فيها واخذوا يفتشون عن تلك الشاكية الباكية
بين الأدواح والأفنان فما ابصروا لها خيالا فانقلبوا الى منابت الجوز ومضوا متوغلين
في كشيده وامية بن ابي الصلت في الطليعة !

وفي تلك الاثناء لاح لامية خيال متلفع بثوب غاتم اللون وقد راح مستنداً الى
شجرة من شجر الجوز فترجل عن فرسه ونهد الى ناحيته فاذا هو حيال فتاة في
سن سبع عشرة سنة ، فتفرس في جبينها وراحت يده تمس يدها المقرورة الباردة
واخذت عيناه تنظران الى عينيها الغائمتين فوقع على احزان نفسها الشديدة فارتد
الى صاحبيه صارخاً :

— ياللام الممض ! ياللام الممض !

ثم عاد الى صوب الفتاة فلاحق به صاحباه وطفق الثلاثة يتقصون ملابسها
الغائمة بالنظر، ويتفحصون وجهها الرائع الحسن وقد صوحه الحزن واذبله الهم .
لقد تحدث الثلاثة اليها فما نبست ، وظلت عيناها اللتان فتحهما الرعب تنظران
الى الفضاء الافيح كأن طيفاً مزججاً قد لاح لها من بعيد فارادها على هذه الوقفة
الذاهلة فقال ابو سفيان :

— اهي وحدها هنا ؟ قال امية :

— نعم ويخيل الي ان خيالات الشجر في هذا الليل الفاسق قد اخافتها
فاحتبس منطلقها

— اذن فأنت تعتقد انها كانت تهذي ؟ . .

وتحركت الفتاة فتحركت عينها الذاهلتان الى ناحية الفرسان ، وجعلت تنفرس
في حركات عيونهم ، وفي ملابسهم ، ثم اخذت تعي اصواتهم حتى اطمانت نفسها الى
وجوههم فهمست قائلة :

— من انتم ؟

فصاحوا :

— من بني ايلك !

فغشيت وجهها نشوة فرح اكيد ، واثنت تأمل في اريدتهم ووجوههم فما
شكت في انهم اصدقاء توافوا الى نصرتها من مكان قريب فقالت لهم :

— من انتم ؟

فقال حسان — سكني روعك فانك في حمى ابي سفيان بن حرب سيد آل
عبد شمس ! اما انا فاسمي حسان بن ثابت من يثرب ، وهذا الذي كان اشدنا
اسراعا في اللحاق بك هو امية بن ابي الصلت من اسياد ثقيف ! .
فتهلل وجهها واشرق وعافت مكانها على الشجرة وقالت .

— اذن فما عدت تحت رحمة ذلك العليج هيباس ؟

فصاح الثلاثة :

— ومن هو هيباس الذي تذكرين ؟

قالت :

— هو قائد الرومان في هذا البلد ؟

— بالرجل النذل . . .

— نعم لقد كان ندلاً في نزوله علي وأنا اهم بخفق باب هذا القصر .

— واين هو هيباس الذي اخافتك صورته الى هذا الحد ؟

— احدثق بي فرسانه من كل ناحية ، اما هو فقد اخذني بين ذراعيه ، يريدني

على سوء ، فصحت وافرطت في الصياح لعلي اسمع صوتي من في القصر ، فضاع
لحامي في هدير الماء ، وغمرتني موجة يأس شديد ، وخيل الي ان قائد الرومان بالغ
مني سؤله ، فأوغلت في الصياح ، حتى حمل الي هذا الهواء الرطب صدى اصوات
بعيدة فردت الي سكينتي ، ولكني بقيت على صياحي وبقي الهواء يردد تلك الأصوات
البعيدة التي خرقت اذني حلوة سائغة واما غصت الغابة بالأصداخ خيل الي ان يدي
هيباس املتستا من يدي ، فنظرت الى الرجل فاذا وجهه قد ارتد مسفوفاً شاحباً ثم
تركني هائماً على وجهه فلحق به فرسانه وهم لا يرون طريقهم من فرط الجزع ، اجل
ابها السادة فر هيباس النذل من غير ان يسمي !

فقال لها ابو سفيان :

— ممن انت ايتها المرأة التي اثار شجوها شجوي ؟

فصمت ولم تنبس فسألها حسان .

— من اين اتيت ؟

فحدثت الفتاة الفرسان الثلاثة بنظرات صامتة تم عن اى بليغ ولكنها بقيت

على صمتها وسكونها فقال حسان :

— لماذا لا تحسرين عن اسمك امام هذا القرشي النبيل ؟

وقال امية :

— تكلمي ! لعلك غسائية ؟

فهمست قائلة :

— كلا .

— اقرشية انت ؟

— كلا ؟

— اتكونين من بنات بكر بن وائل ؟

— كلا !

— افى تذاب وريعة قومك وعشيرتك ؟ فصاحت بلهجة متحمسة :

— كلا ! انما انا من كندة ايها السادة !

فصاح ابو سفيان :

— لك الله ما اشد زهوك ، ولكن كندة فروع كثيرة ، فمن ايها انت ؟

قالت : اتعرف هذا الشعر ؟

تطاول ليالك بالاثمد ونام الحلي ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الارمد

— هذا الشعر الذي تغنين هو لأمرئ القيس بن حجر ملك كندة وصاحب

قيصر ، فهل كان ابوك في حاشية هذا الملك ؟

— انظر الى وجهي ياسيدي فهل ترى عليه طلعة امرأة تسلك من رجل يمت

الى حاشية الملك او الى بعض حرسه ؟ ... !

— اكان ابوك صديقاً من اصدقاء الملك ؟

— كلا !

— لعله اذن احد قواده ؟ ...

— لا هذا هو لا ذاك ! ..

فضحك ابو سفيان واردف :

— اخاف كثيراً ان تزعمي ان امرأ النيس كان زوجاً للمرأة التي ولدتك !

فصاحت الفتاة :

— انه ابي ايها السادة !

فضحك الفرسان الثلاثة وقال مية هازلاً :

— اليس في قصة هذه المسكينة ما يضحك ؟ لقد بت اشك في صدق احاديثها

عن هيباس وفرسانه ا قالت الفتاة :

— اتضحك ياسيدي علي . وثوب حدادي لم يخلع بعد ؟

خشي اميه ان تبعث فتهجه الهازلة فيروع الفتاة بعض الشك فتكلف الجدو قال لها :

ليس في الامر مزاح ولكنني اردت ان اعلم اي صلة لك بهذا الشاعر الذي

لم يترك في بادية العرب على رحبها وامتداد اطرافها قبراً يحجج اليه الناس كما يحجون

الى الكعبة !... ولعلك لا تستغربين ان ييدر منا هذا الذهول ونحن من الذين

عرفوا شعر الملك الذي خلف في نفوسنا الوالهة بموض الذكر برغم اختلاف الليالي

وتعاقب السنوات ، وبرغم هذا الفضاء الخفي الذي يحجب شمس الاموات عن الأحياء .

فقال الفتاة وقد لجت في تأثرها وانفعالها :

— ولكن في نظراتكم اشياء لا يستطيع ان افسرها بغير العبث !...

فسألها ابو سفيان قائلاً :

— اين عشت بعد موت الملك ؟ قالت :

تركني ابي تحت حماية ابن عمه يزيد بن الحارث بن معاوية فعشت بالقرب منه في

بصرى عن كئيب من قصور الغساسنة .

— اتهلين ؟

فاحمر وجهها وسكتت فسألها اميه قائلاً :

— وكيف تدلين على صدق هذا النسب ؟

— اريدون دليلاً ؟

فصاح الفرسان الثلاثة :

— نعم نعم نريد دليلاً ، ودليلاً ناصعاً !...

— هذا هو ملك الشام في قصره ببصرى فأنطلقوا اليه واسألوه عن مولدي وبمضي

فقال الجميع : يكفي هذا الذي تقولين . وسألها حسان قائلاً :

— لماذا أتيت الى دمشق ؟

— حملتني اليها ذكريات قديمة ولكنها ذكريات شجية تقض المضاجع .

لما اراد امرؤ القيس بعد قتل ابيه الخروج الى قيصر استودع السمـوأل بن عادياء الغساني دروعاً واسلحة ، فلما مات امرؤ القيس غزاه الحارث بن ظالم ، فتحرز منه السمـوأل ، فاخذ الحارث ابناً له وكان خارجاً من الحصن فصاح الحارث بالسموأل فأشرف عليه فقال : هذا ابنك في يدي وقد علمت ان امرأ القيس ابن عمي وانا احق بميراثه منك فان دفعت الي الدروع والا ذبحت ابنك ، قال اجلني فاجله : فجمع اهل بيته ونسائه فشاورهم فكل اشار عليه ان يدفع الدروع ويستنقذ ابنه فلما اصبحت اشرف عليه فقال له : ليس الى دفع الدروع سبيل فاصنع ما انت صانع ، فذبح الحارث ابنه وهو مشرف ينظر اليه من الحصن ثم انصرف بالحية فوافى السمـوأل بالدروع الموسم فدفعها الى ورثة امرئ القيس فتنازعوا وفزعوا الى الحارث ابن جبله الغساني ، فحبس الملك الدروع عنده ثم مات الملك الحارث فبقيت الدروع عند ابنه المنذر وامتنع ورثة امرئ القيس عن المطالبة بذلك الارث الذي جشمهم كثيراً من العناء .

تعاقبت السنوات والليالي ونسي الناس حكاية هذه الدروع حتى دعاني يزيد ابن الحارث بن معاوية اليه وهو على فراش الموت : ونحن يومئذ في بصرى ، نعيش في ظل الغساسنة فقص علي حكاية الدروع وارادني وريثة لهذا الارث المضمحل الذي تركه ابي فجئت قصر الملك في بصرى فاذا كرتة قصة الدروع فحسر لي عن جزعه واسفه وقال لي : ائتمد حمل ابي هذه الدروع الى ملك الروم ، فلم يعد ثمة سبيل الى انتزاعها منه ، سمعت هذا منه فشجيت نفسي ورأيتني حيال واجب لافتر من قضائه :

وهنا تلظى حماسها وسطعت عيناها ببروق غريبة فقالت :

« اليس غريباً ان يضع الروم ايديهم على هذا الارث المجيد وهذه قصورهم

ومعابدهم وصروحهم المشيدة تغص بالشيء الكثير من بهاء النصر ورواء الفتح ! .
ليت شعري اي قيمة لهذه الدروع النائمة في زوايا قصورهم بجانب تلك النفائس
الغالية التي حملوها الى القسطنطينية من اراضي العراق وارااضي الشام ؟
لقد قر في عزمي ان اتحدث الى الروم بشأن دروع ابي فهبطت دمشق
وحاولت ان اجتمع الى عمرو بن الحارث صديق قيصر .

فصاح الفرسان الثلاثة :

— ولكن عملك جريء ...

— نعم انه عمل جريء . فان فتاة ضعيفة مثلي ما كان يظن احد ان حملها الضئيل
يحملها على طرق ابواب القصور ومع هذا كله عدت الى نفسي فرأيتني متصلة بذلك
الغابر الذي يوثق ما بين الاحياء والأموات ، ولمست في نفسي حافزاً يحفزني الى
الاستبسال ، فهبطت دمشق في ليلة ساجية مطمئنة كان القمر فيها اكثر
ما يكون بهاء واشراقاً ، وفزعت الى عملي وقد احتواني سكون الغسق ، واشتمل
على صمته الرائع وكنت لا اعاف الالتجاء الى الناس لأسألم عن الطريق المؤدية الى
قصر البريص الذي اعتاد ملوك غسان ان يفزعوا الى افيائه في فصل الصيف
القائظ ، فدلني الناس على القصر فشيت اليه وانا مطمئنة الى عطف الغساسنة وحبهم
وجعلت امشي في طريق تغص بأشجار ذات افياء وافنان ونهر بردي يلوح معتلاً
ثائراً ، لقد فكرت في عبوره لعلني اقرب من قصر البريص ، الجائهم على شاطئه فعبرته
غير حافلة بثبجه المتدافع ، ولا مكترثة لموجه الدافق حتى بلغت الضفة ، وحتى
لمحت ذلك القصر الغارق في بهاء الطبيعة وسكونها .

وخيل الي وانا في غرق عميق تدفعني اليه تأملاتي الحائرة المشتتة في هذه الظلمة
الراعبة ان الفضاء يزخر بأصوات مبهمة تتغاير الى سمعي ممزوجة بهدير المياه
ووسوستها فغشيني الخوف وغمرني بعض الذهول فكدت اقل راجعة ولكن
ذلك النور الضئيل الذي تفجر من شرفات القصر في تلك الاثناء حمل الي بعض

السكون . ثم ما لبثت تلك الأصوات المبهمة التي تغايرت الى اذني ممزوجة بهدير الماء والتي حسبتها لأول وهلة صدى حفيف الورق الذابل ان حالت الى اصوات منكرة ما شككت في انها اصوات قطاع الطريق الذين اعتادوا الالتحاف بالنسق في خلال عكوفهم على اجتراح الاجرام البشعة .

فلم يذهب هذا الحادث المباغت بروعي ، ولم ينزع من نفسي سكونها وجلدها فاثبتت الى باب القصر وجعلت اخفقه في كثير من العنف لعل الذين اشتملت عليهم جدره وردهاته يتبارون في نصرتي .

وكان الليل يجيش بالتعقيم والطبيعة المتوردة الزاهية قرية وادعة والطريق عاطلة من روادها فتأبرت على قرع الباب في غير جداء وقد خيل الي ان القصر خلي من ذويه او ان هؤلاء غرقى احلام ، وصرعى او هام ، لا يسمعون ركزاً ، ولا يحسون امراً . وهنا سكنت حركة هذا الدم الذي يجيش في اعماق نفسي وتملكني خوف واي خوف ! فاغمضت عيني حتى لا ارى الأفق والماء والعشب والكلاء ، وغام بصري بدمع كنت حبسته للوهلة الأولى ، ثم مضت دقائق ومضت دقائق اخرى فتفتحت عيني فاذا انا في حرجة صغيرة يلتف بها بعض الفرسان وقد اخذ احدهم بذراعي وطفق يدنيني اليه صائحاً :

— الى اين تفرين ؟ انت لي في هذه الليلة ؛ . . .

فوارى ابو سفيان عينيه بكفه استحياء وصاح :

— ياله من جري . . ياله من نذل . .

— نعم ياله جريئاً ، فلقد اراد الي ان اصحبه فأبيت ، وافرطت في الصياح فقال لي :

« ايه ايها البدوية الناعمة الملساء ! فيم هذا الخوف الذي يتدافع في نفسك وانت

في ذراعي اجمل فتيان الروم ،

فصاح الفرسان الثلاثة . . .

— الم يكن معك سلاح تصوينه الى صدره ؟

— كان سلاحي الوحيد ابائي وشلمي

وظفق الرومي يغدق علي كثيرأ من الفاظ الحب ممزوجة بلهب نفسه وقد اراد اكثر من مرة ان يقبلني فعصيت فجعل يقول لي :

« لماذا تنأين عني ؟ الا تدرين انك قد وقعت على هيباس فارس الروم واطلهم الخلاحل ، فصحت به « لن تنال مني وورائي عصبة كريمة من قومي » فانتنى يضحك فبكيت وكنت ابدأ شاخصة الى هذا القصر الذي شهد وحده هذه المأساة المؤثرة وقد غاب لحامي في كظة التيار ولما رأيت العليج يسرف في بغيه صحت :

— اين انتم ياملوك غسان ! اين انتم ؟

وددت لو ان رخام هذا القصر يتحول الى قلوب تشعر وعيون تبصر ولكن القصر بقي حجارة صماء في بقعة خرساء .

وبالغت في الاستغاثة حتى حل الي هذا الهواء السائغ صدى اصواتكم فردت الي رباطة جأشي ؛ ورحت اضرب ذلك العليج هيباس على جبينه وهو بعد لم يخجل ولم يتورع ، ثم صحت :

« اليس في البلد من يغار على الكرامة ، ..

فاذا اصواتكم تعصف وتقترب ، فأجفل الرومي وصحبه ، فما عادوا يدركون شيئاً من الأمر ، ثم اذا هم يعودون الى افراسهم وقد خاضوا بها الماء وتواروا في صميم الغاب فاحتوتهم ادواحه المرسلة ، وبعد قليل فتحت عيني فرأيتني بين ذراعي هذا الفارس المجيد ، وأشارت الى امية :

هذه هي قصتي ايها الشرفاء ما كان لي ان ابالغ في وصفها وهذا الشجن الذي يغمر نفسي صورة صحيحة لها ..

فقال لها ابو سفيان :

— ستكونين في كنف ما اقت في هذا البلد . قولي لي هل نسيت حكاية الدروع ؟
— كلا كلا ، فلقد نذرت ان اطالب بها حتى اظفر بها ، فاذا لم يقدر لي الفوز

في استردادها نرعت الى استئارة هذه الحية المتوارية في رمال الصحراء حتى تتحول
رمالها المشبوبة الى فرسان يغضبون لكزامتي !
— ولكنك تقدمين على عمل قد يعرض سادات العرب لمكآره واسوء لأن
الروم اشداء حذقوا الحرب وخبروا صروفها .
فقال الفتاة :

— لقد انستك المدينة الخضراء تلك الصحراء الجرداء، وتنبأ بك هذا النعيم الوارف
الظل عن الأصغاء الى صوت الحق فما عدت ترى في بادية العرب ابطالا وفرساناً
واصبح الروم في نظرك ذوي خطر ؟

اين هؤلاء العلوج الذين اسميتهم فرساناً من فرسان قومي ؟ ان لي في هذه
البادية ابناء عم سأسنجيشهم واستفهم حتى تتحول البادية الى شواطع عاصف وحتى
تنقلب بيوتهم ومساكنهم وقصورهم الى جيش متنقل تغطي راياته هذا الأفق .
وضاعف حماسها في روعة جمالها فجعل الفرسان الثلاثة يحدقون اليها وقد
استهواهم اسرافها في وصف فرسان البادية، وكان ابو سفيان يحس لذة في حديثها
الذي خلت نبراته من الرياء والملق فقال لها :

— ما اردت في حديثي ان ارفع من شأن المدينة الخضراء وانا لم انس بعد
هذه البادية التي ولدت فيها بين الفرسان المساعير ! ان للبادية في نفس ابي سفيان
مثل هذه الحرمة التي يحسها حيال البيت الحرام . . . ولكنني ضنين بالدماء ان
تسفع لا اقل ولا اكثر .

— اذكر ايها السيد اتنا نعيش في زمن الشعراء والفرسان ! بل اذكر هذا
الذي يقوله العرافون في كل مكان عن بعث نبي في العرب يرث الروم والفرس في
بلادهم وامصارهم .

فهبت الفرسان الثلاثة من حديثها واستوى ابو سفيان على فرسه صائحاً .
— ويحك من انحك هذه الأحاديث ؟

— انطلق الى سطيح الكاهن واسأله عن هذا النبي ...

منهم انطلقوا اليها السادة الى سطيح واصفوا الى حديثه العذب عن ذلك النبي الذي سينتصف للعرب من الروم والفرس .

فصاح الثلاثة :

— سطيح ! سطيح !

— لا بأس ان تمضوا الى مشواه في نجران ، بل لا بأس ان تسألوه الشيء

الكثير عن هذا النبي الذي اصبح ذكره يجري على الأفواه في صحراء العرب ... فقال ابو سفيان .

— لقد حدثنا الراهب بحيرا عنه

فامتقع وجه امية بن ابي الصلت ودب الرعب الى روحه وراح يذكر تلك الأحاديث الكثيرة التي خرقت سمعه في اللقاء ونجران وبصرى ولكنه ظل صامتا كالتمثال ، وللمرة الأولى احس ابو سفيان في نفسه بعض الاظلام وبعض الخوف ولكنه لم يدر باعث هذا الخوف الذي حبس لسانه فراح يفكر وبعد قليل التفت الى الفتاة وقال لها :

— اتودين البقاء في دمشق ؟

— لن ابرحها حتى ابلغ الفوز ، فاذا عسر علي ان ارجع الى البادية بدروع

امريء القيس فاني انطلق الى الحيرة لاستنفر ملكها الى نجدتي .

— ولكن عمك هذا قد يسيء الى الفساسة وانت تعلمين ان ملوك العراق

اعداء لملوك الشام .

فعلقت بالصمت خلال لحظات ثم اردفت :

— اذكر ايها السيدان عصرنا هذا هو عصر الشعراء والفرسان اذ كرانه عصر الانبياء

فصاح الفرسان الثلاثة :

— الى اين معادك في هذه الليلة ؟

— لا ادري !

— سنبيع تجارتنا غدا في الاسواق فهل يسرك ان تنطلق معنا الى بصرى .

— نعم ولكني لا استمريء رجوعاً الى بصرى قبل غسل الالهانة التي لحقت

بي في هذه الليلة ...

— وكيف ذلك ؟

— سأعود بقيصر فلعله ينصفني من هيباس فان ابى لجأت الى قتي العرب في هذا الزمن .

— من هو هذا القتي الذي تتحدثين عنه ؟

— هانيء بن مسعود .

فصاح حسان :

— سيد بني شيبان ؟

— نعم فهل تعرفه ايها السيد ؟

— ليس هو اشجع العرب ؟

— نعم .

— ولكن الرمال تحول بينك وبينه ؟

— لن تستعصي هذه الرمال على الخيل الطائرة .

فلم ينبس الفرسان ، وفي تلك الفينة التفت حسان الى ناحية القصر ، فالتى نوراً

جديداً يشع من شرفائه فهتف قائلاً :

— اراهن على ان القصر معمور بسكانه .

وجعل الفرسان الثلاثة والفتاة بينهم يحدقون الى نوافذ القصر فاذا هم يلحون

شبحاً على الشرفة وقد اخذ الشبح ينظر الى الفضاء البعيد فقال حسان :

— لنقدم من القصر لنخفق بابه فلعل الحظ لا يخوننا في هذه المرة

وانطلقت الفتاة الى ناحية القصر واخذت تخفق بابه بشدة ووقف

الفرسان عن كسبهم يجمعون الطريق ...

الفصل العاشر

الحب في الليل

~ ~ ~ ~ ~

قلت لك يامارية في الهزيع الأول من هذا الليل الساجي ان الحب نشوان لا يستفيق ، فهلا مررت به حالماً فليس احب الى نفسي من هذا الفرق الذي تضع فيه تأملاتي وهو اجسي ، ولكنك ايت الا ان يستفيق الحب من نشوته على وسوسة هذه القبل المعطرة التي تطبعينها على جبين هذا الطفل . . .

لقد كانت عواطفي نائمة في اعماق نفسي ، فلما تساقطت قبلاتك على جبیني استيقظت عواطفي فهي لن تستسيع الهجوع مرة اخرى ! . .

— زدني من هذه الكلمات فان سحرها يمشي بي الى عالم يـمـور بالصـور البديعة الموثقة .

— ليست ليالي دمشق ايتها الحبيبة اقل بهاء من ليالي القسطنطينية ، وحبنا الطفل الذي ولد على ضفاف البوسفور سيجد غذاءه في ضفاف بردى الوادع المطمئن ، وسيعيش في هذه الخائل النضرة كما عاش في تلك الخائل الزاهرة التي يظللها افق يزنطية المصحى . . . افلا ترين الى بردى وهو يضحك على شاطئيه تحت مطوية الليل الحلوة ، انك لن تسمعي يا حبيبتى الغالية في هذا الجو جرساً يعكر صفو هذا النهر الذي يجري في غير مد وجزر ، ومهما طغى الماء وتدافع ، فانه لا يلبث ان يفيء الى سكونه والزمن سواء اكان هادئاً مفراحاً ، ام كان عابساً متجهماً لن يعطل سير هذا النهر .

ان هذه الخطوط البيضاء التي يرسمها الموج في تدافعه لاتزال كما كانت قبل عصور ، فليس سيل الى محوها ، وكذلك هو حبنا سيبقى على روائه وطهارته لاتعبث بسكونه هذه الرياح الصاردة .

— دع الحب هذا الذي اسميته طفلاً ينام في القبل المعطرة ، احترس ان توقظه
فأنه يحلم ، نعم احترس ان توقظه فاني اخشى ان تفلت هذه القبلات التي تصبغ شفثيه
بشقي الألوان .

جلس الفتى عمرو بن الحارث الغساني في هذه الليلة القمرء الى حبيته مارية
وبينما كان هيباس يطارد الفتاة هند في تلك الحوالي البعيدة عن العالم ، والفتاة تستغيث
وتبالغ في الاستغاثة كان عمرو وهذا الفتى الذي اصبح جمالاً مداراً للاحداث يقص
على حبيته احاديث الهوى فلم يحرق سمعه ولا سمع مارية صوت هند .

طفق عمرو يتحدث الى حبيته عن تلك الأيام الهائلة التي تصرمت بالقرب منها
على شواطئ البوسفور في القسطنطينية ، ومارية ابدأ مصغية الى كلبه وهي نشوى
لا تعرف صحواً من سكر الحب ! وكانت تقول له من حين الى آخر :

— ليتك بقيت في القسطنطينية ؟ فان ليالي الحب على شواطئ البوسفور لمي
احلى وامتع من لياليه هنا ...

— لماذا لا تحبين دمشق ؟

لقد كان يطرح عليها هذا السؤال وهو ابدأ شاخص اليها فتستحب الصمت فيقول لها :
— لقد اثر سكوتك في كثيراً حتى بت اخشى ان يكون مقامك في دمشق
باعثاً الى ضجرك وما احب ان يعلق الضجر بحياتك وهي لا تبرح غرساً طرياً
يحتاج الى ندى الفرح ، وكان ينظر اليها من حين الى آخر فيشجيه ان تتحول تلك
الابتسامة الحلوة التي لاتفاوق شفثيه الى اخلام خفي فيسألها قائلاً :

— لماذا توارت هذه الابتسامة العذبة ؟ ولماذا تحولت الى هذا القطوب الذي
لا ادرك له مغزى ؟ فتظل عيناها السوداء وان راكدتين ركود مياه الجداول فيضنيه
هذا الركود ويشجيه فيقول لها :

— ناشدتك الله ان تحسري عن هذا الشجن الذي اطفأ وميض عينيك المقدس
فلقد كان لعينيك عبث الأمواج ومرحها فاذا هما متجمدان .

فكانت تؤثر الصمت وتستحب الاثير في نفس هذا الفتى الذي احبها فوق الحب ، وعندها فوق العبادة عاصفة نائمة لا ترى في اثارها غنا ولا ربحاً ، وكان قد نثر على فراشها الذي اضطجعت عليه بالقرب منه كثيراً من الورد وكثيراً من الزنبق فتأرجت اعراف هذه الازهار حتى ملأت نفسيهما فغابا في قرارة سكر عميق : ثم اذا هما يسبحان في متع الالهواء البريئة فصاحت مارية :

— دع جنبا يحلم ... نعم دعه يحلم فأني احب له ان يغرق في لذة الهواجس فلا يستفيق لأن في الاستفاقة ما يكدر ويشجي ...
— لماذا لا تحسرين عن الملك ؟

— ستعلم كل شيء ياربجانة نفسي ...

افاء الله على ماريه الحسن كله وجعل جمالها الخالب فتنة لناظريه ، وحبها وهي بعد في الربيع السابع عشر روحا وخفة ونشاطاً وتوثباً ، ولكن حياة هذه الحسناء ظلت لغزاً من الالغاز فلم يعرف الناس عنها شيئاً
وجل ما عرفه الناس عنها انها ربيبة قيصر ، وان صاحب القسطنطينية ارادها زوجاً لأحد امراء غسان ا

عاشت مارية في قصر البريص عيشاً لم يخالطه غير الحب ولكنها ظلت ابداً متبرمة بهذه العزلة التي فصلت بينها وبين وطنها القديم ، وفي اكثر الاحايين كانت مارية تتحدث الى عمرو عن وطنها الاول في كثير من الحاسه وكانت تسأله :
— لماذا لا نعيش معا في القسطنطينية التي قاسمتني الاعجاب بجمالها الساحر ؟
ثم تسكت فيقول لها :

— الا يروقك ان نمضي بعض العام في دمشق ، في هذا القصر الذي حبسته على سعادتك وهنائك ؟ وكانت تفضل الصمت ، وفي بعض الاحايين كانت دموعها تسح وتهطل فتلقاها يديها البضتين الناعمتين فيسألها عمرو :
— ما الذي يبكئك ؟ يخيل الي ان الم نفسك شديد ؟ فما هو هذا الألم الذي

يخفيه صدرك ويذيعه دمعك ؟

وفي هذه الليلة برح بهما الحب فعازا بناحية بعيدة عن الضوضاء وطفق عمرو يرتقي على صدرها وهي في سكر شديد، وغرق اشد وانهما لكذلك اذا هما يسمعان صوتاً يتفجر من ناحية النهر فتركا متع الحب البريئة وراحا الى الشرفة بحدقان الى الفضاء وكانت انوار القمر قد حسرت عن المخاضر والمشاهد فلاح مشهد الفرسان لعمر و فقال لمارية :

— الا ترين الى هذه الأشباح التي يوارىها الليل ؟

ف قالت !

— نعم نعم ؟ ...

— لماذا ترعشين ؟

— اني خائفة :

— لا تخافي فليس في هذا البلد من يقتحم مشوى عزلتنا الهادي ... واني لمطمئن الى ان هؤلاء الذين يمشون في خفق باب القصر ضيوف ضلوا طريقهم الى المدينة فأجروا اللياذ بالقصر ! ...

قال هذا وتحول عن الشرفه منتحياً ناحية جنة القصر فقالت له مارية :

— اني خائفة ! ...

— لا تخافي .

وفي خفة البرق تهافت عمرو على ايقاظ الحرس فهضوا ولحقوا به يحملون امامه المشاعل .

• • •

قال عمرو بن الحارث لضيوفه وهو ينظر الى وجوههم تارقي والى ملابسهم

تارة اخرى !

— هذا هو قصر البريص فادخلوه على الرحب والسعة

لقد نمت لهجته الوادعة المطمئنة عن طيب اعراقه وشرف اصله ، فما شك ابو سفيان في انه حيال سيد القصر فنظر الى رفيقه نظرة نمت عن اطمئنانه الى محدثه ثم دخل الجميع حديقة القصر ، ولما ترجل الفرسان الثلاثة عن جيادهم اقترب عمرو من ابي سفيان فلاحته له في ملابسه الفاخرة وزينته الباهرة علامة الشرف والرياسة فسأله في كياسة ومداراة :

— من الضيف ؟

— ابو سفيان بن حرب !

— سيد بني امية؟ ونظر عمرو الى الفارسين كأنه يريد ان يسألهما عن اسميهما فصاح حسان :

— حسان بن ثابت .

— شاعرنا الفتي ؟ وقال امية !

— امية بن ابي الصلت .

فانبسطت اساور وجهه وانثنى قائلا :

— انها لليلة جليلة القدر ؛ موفورة الشرف يجتمع فيها هنا تحت قباب البريض

لحسب والأدب والشمم ؛ ثم وقعت عينه على هند فوثق انها ابنة احد هؤلاء

لفرسان الثلاثة فادركت هند اي هاجس يدور في خلده فقطعت عليه تصوارته قائلة :

— هند بنت امري ، القيس بن حجر . فصاح عمرو :

كان امرؤ القيس احب الناس الى جدي الحارث بن جبله .

فصاح الجميع :

— اذن فانت ... ؟

— عمرو بن الحارث بن مارية ذات القرطين سيدة غسان ! ادخلوا ايها السادة

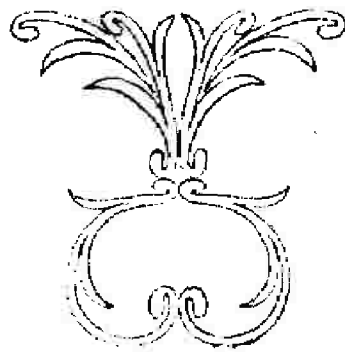
الى قصر ابائي فأني اخاف ان تؤثر رطوبة الليل في نفوسكم التي امضاها التعب ، ومشى

امامهم فلحقوا به الى القصر ، ثم تركهم في قاعة الضيافة وعاد الى حجرته فاذا مارية

تنتظره حائرة مشدوهة فقال لها :

— لم يكذبني ظني فان ضيوفنا في هذه الليلة يجمعون الى نضارة الأعراق
نضاره الأخلاق ، انهم سادة العرب وكفى ! فاطمه أنت نفسها وجعلت تنظر اليه في
كثير من الحذب والحب فقال لها :

— حان لنا ان نفيء الى الراحة باحبيتي بعد هذا القلق الذي استولى علينا ...
لقد شربت كثيراً من رحيق الحب حتى ردتني كؤوسه المترعات بمراحا طائر
اللب ، وحتى اصبحت في حاجة الى رقدة هائلة لا اصطحب معها ذكراً لغير الأحلام
الطاروبة قال ذلك ثم مشى بها الى السرير والقدر يرسل انواره الى داخل الحجر من
خلال الشرفات ، فرقد الحبيبان واخذت الأشعة والظلال ترسم على وجهيهما خطوطاً
ملونة تزيد في روعة هذه الأحلام التي حملت الى نفسيهما لذافة الحب ؟



الفصل الحادي عشر

هيباس

نام ضيوف القصر ليلتهم نوم الدعة والسكون وفي صباح اليوم التالي بكروا في النهوض وتفرقوا في حديقة القصر يستمتعون بالأريج والظل والندى ، وكان ابو سفيان اشدّهم استئناساً بهذه الخمائل الضاحكة المستبشرة التي حملت الى روحه عقب الأزهار المتنوعة الألوان ، وانتحى حسان في جنة القصر ناحية منفردة بينما اخذت هند تروح وتغدو حول السواقي الهادرة ، اما أمية بن ابي الصلت فقد جعل يتأمل في بهاء الطبيعة كأنما قد راقه سحرها واستهواه جلالها ، ثم طفق يذكر ذلك الأنشاد العذب الذي استمع اليه وهو في بصرى واستعرض صلاة بحيرا الراهب وحديثه الشجي عن بعث نبي في جزيرة العرب ، ثم استعرض ذكرى طوافه بدير يوحنا في دمشق ولم ينس حديث هند عن سطيح ، ولما ملأت هذه الذكريات روحه المتوثب مضى بهمس قائلاً :

— ليت حديث هند عن سطيح يكون كاذباً ! .

وحاول ان ينسى هذه الصور فما وجد الى ذلك سبيلاً فقد ظلت كلها تزدهم في فكره وتتجمع حتى خيل اليه ان احساسه اخذ يروح تحت وقرها فاوشك ان يقع على الأرض فتجلد وخشي ان يصبح ضعفه حديث الناس .

وكانت الشمس لم تنبعث من خدرها بعد فأخذ ينعم بمشهد الفجر الساجي وينصت الى غناء البلابل والى حفيف الورق ووسوسة المياه ، حتى انسجمت هذه الأصوات في اذنيه فذسي بعض تلك الهواجس التي غاص في لججها ! . .

وكانت هند في تلك الأثناء عاكفة على قطف بعض الأزهار ، فاجتمع لديها من الرياحين اطار بديع حافل بالألوان الزاهية المتوردة فلما مرت بالقرب منه

مضى يحدق اليها فأنشئت الى الخائل تنتقل من واحدة الى اخرى كالقراشه كأنها لا تريد لقاءه فقطن امية الى هاجسها وادرك انها تجفوه فرفع رأسه اليها وقال لها :

— اتحبين الزهر ؟

— ان كلني بالورد الأحمر لشديد .

— اهذه الأزهار لك ؟

— كلا .

— اذن فأنت تجمعين الزهر لطيف تمثلين؟ .

فاحمر وجهها من الحياء وادركت اي هاجس يجيش في خاطره فقالت له :

— هذه الأزهار كلها لسطيح الكاهن ..

— السطح ازهارك الندية ؟

— لعلك تستغرب ان اهتم بجمع الأزهار لهذا المخلوق الذي حرمة الطبيعة من منحها السخية ، فلم تخلقه على شاكلة البشر الذين ينعمون بالملاحة والشباب والعافية والحب ، حقا ايها السيد ان الطبيعة لغريبة فانها ترض على كثيرين من مخلوقاتها بالشباب والجمال والحب ولكنها لا تمنحهم السرور والقناعة والعواطف الصادقة فان اكثر هؤلاء البؤساء الذين مسخت الطبيعة صورهم واورثتهم البشاعة يعيشون في الناس بقلوب تحس ، وعيون تسح ، فلا يعرض لهم في الحياة الكثيرة التكاليف ، مشهد بائس الا احاطوه بنشيج القلب وصرير النفس ، وسطيح انسان يحس ويشعر ، ولا يمنع دمه ان يفيض اذا عرض له مشهد حافز ..

— إنك لتبالغين كثيراً في تبجيله وإيثاره .

— ولكن سادة قريش يحترمونه اكثر من احترامي له وهم اذا احترموه واكرموا فذلك لانه صادق في حديثه عن المستقبل ، فلقد قص على كثيرين من الخلق حديث ذلك النبي الذي سيعث في العرب ، فجز كلامه نفوسهم وبعث في قلوبهم حلاوة الايمان .

- اذن فاذن تؤمنين بهذا النبي الذي لم يقع بصرك عليه بعد !
- نعم نعم : وكيف لا تؤمن به وهذه الروح التي تثب في اعماق نفسي تأتي على الخضوع للروم والفرس الذين يسرفون في ارهاق قومنا في الشام والعراق .
- تكلمي همساً فاني اخشى ان يسمعك الروم ؟ . .
- ان نبرات حديثي تضع في هدير الماء . قل لي الا تؤمن انت ببعث هذا النبي ؟
- فصمت اميه . وادركت هداي قلق يعصف بنفسه فتركته وشأنه فلحق بها قائلاً :
- الى اين تذهبين ؟
- يخيل الي ان حديثي عن سطوح لا يروقك .
- ولكنك تبالغين كثيراً في تبجيله !
- دعني من الشعراء ياسيدي فانهم لا ينظرون الى الأشياء الا بعين الخيال .
- وانطلقت تعدو حتى اقتربت من حسان فسألها قائلاً :
- لماذا تجمعين هذه الأزهار ؟
- الا تجرحك الحقيقة ان حسرت لك عنها ؟ فضحك حسان حتى اوغل في ضحكه وقال لها :
- لا احسب هذه الحقيقة التي تخفيها في صدرك مؤذيتي ، فهل ازهارك هذه لفتى تحبين ؟
- انا لا اعرف الحب ياسيدي الشاعر بل انا لا ابرح طليقة من اساره كهذا الهواء النقي . . .
- اذن هذه الأزهار ؟
- لقد جمعتها لسطوح الكاهن .
- اتخبينه كثيراً ؟
- كيف لا احبه ياسيدي وهو صوت الحق الذي لم نتعرف اليه بعد في حياتنا ؟
- اذن فانت لاتزالين تحت وقر احاديثه عن ذلك النبي ؟

— لقد آمنت بالنبي قبل بعثه فهل يشجيك هذا الأيمان ؟

— في فؤادي لسطيح مثل هذا الذي في فؤادك : فلقد آمنت بالنبي قبل ان

انصت الى احاديث سطيح !

— كان الله لك ...

ونظرت اليه باسمه مهتلة وهي تكاد تطفر من الطرب ، فاقترب ابو سفيان منها

وهو اشد ما يكون تشوقاً الى حديثها . فقال لها :

— الا تريدن مقاستي هذه الرياحين ؟

قال حسان ضاحكا :

— لقد ادمى الشوك يديها وهي عاكفة على قطف هذه الأزهار التي ستزين بها

مفرق سطيح !

فققه ابو سفيان وقال لها :

— لعل هذا المسيح قد اخرج الشيطان من روحك حتى استحق وردك ؟

— كانت نفسي حائرة متبرمة بالحياة فاخرجها الى عالم يمور بالفرح .

— اين هو هذا العالم التي تتحدثين عنه ؟

— انه في الأيمان الذي يحمله الينا نبي العرب .

فهمس ابو سفيان قائلاً :

— دائماً هذا الحديث ! .. دائماً هذا الحديث ! ..

— ايشجيك ياسيدي ان تؤمن ؟

— كلا... ولكن ثقي اتنا سنجتمع الى سطيح .

— متى يكون هذا الاجتماع ؟

— بعد ايام قليلة .

وفي تلك الاثناء اقبل عمرو بن الحارث وهو ~~يشتد~~ ما يكون مرحاً خف

الفرسان الى لقائه فقال لهم :

— يخيل الي ان الحديث ذو شجون ؟

فقال ابو سفيان :

— كيف لا يكون ذلك وبيتنا شاعران ونبه ؟

فضحك عمرو واردف :

— دلوني على هذه النيه ؟

— دونك هنداً ، فنظر عمرو الى هند التي ظلت صامته وقال لها :

— انبيه انت ؟

— انه يمزح ، ولعله قد اراد ان يحدثك عن ذلك النبي الذي بشر به سطيح

الكاهن قبل بعثه !

فبهت عمرو ، وراح في تفسير ما ذهبت اليه في حديثها ، واخذ ينظر الى الفرسان

الثلاثة كأنه يحاول ان يعلم شيئاً منهم عن هذا الذي ارادته هند ، فلما لم يحبه احد

على سؤاله التفت الى هند وسألها قائلاً :

— لقد سمعت شيئاً عن هذه النبوة من فم بحيرا فهل قص عليك سطيح شيئاً

جديداً عنها ؟

— اتيت سطيحاً في ذات عشية ، فوجدت في صومعته بعض التجار الوافدين

من جزيرة العرب ، فجعل ينظر اليهم ويستعرضهم امامه كأنه يبحث عن ضالته بينهم

وشفتاه ترعشان من الألم ، فلما لم ير ضالته بين هؤلاء التجار قال لهم « اني

لا ارى ذلك الصبي المبارك بينكم على اني واثق من بعثه وظهوره »

ولما سألوه « من يكون هذا الصبي المبارك ؟ » اجابهم :

« هو ذلك النبي الذي سيعث في بادية العرب ! » ثم رفع صوته وناداهم قائلاً :

— اليس بينكم قرشي واحد ؟

فلم يحبه واحد منهم ، فدنوت منه وسألته :

— الا تستطيع ان تقول شيئاً غير هذا الذي قلته عن بعث النبي ؟ فتناول يدي

وهزما بعنف حتى خيل الي انه قد انتزعا، فأردت افلاتا منه فما استطعت ثم قال لي:
«عودي الي بعد ايام، ولم يزد على ذلك شيئاً،...»

فتركته وانا غير قادرة على خنق هذا الشعور الجديد الذي انبثق في نفسي
فلقد استهواني حديثه وجعلني مؤمنة : فصاح عمرو :

— يا حديثك اللذ ! ناشدتك الله ان تذكرني عند سطوح ، ثم التفت الى
الفرسان قائلاً :

— ان سطوحاً لا يكذب .

واخذ الفرح يغمر وجه هند فتالت :

— الم اقل لكم منذ هنية ان سطوحاً لا يكذب ! ...

فهرامة رأسه هزة الرجل الذي اشتمل عليه اليأس وراحت عيناه مخضلتين
بالدمع وادرك انه لن يدرك حله في النبوة .

ولم يفطن عمرو الى حسرته فالتفت الى الفرسان وناشدهم ان يأكلوا
على مائدته فانطلق الجميع الى مائدة انيقة في قاعة القصر الكبرى وراحوا يملأون
بطونهم الجائعة .

في تلك الفينة كانت مارية في حجرتها بالقرب من الشرفة المطلة على جنة القصر
وقد امتلأت روحها بطائفة من الهواجس المرة والآلام المذيبة ، فأخذت تلهو
بالزهر الذي حملة اليها عمرو في الصباح الباكر رجاء ان تقصي عنها آلامها الممضة
فما وجدت في البفسج تلك الأعراف التي تترع روحها مرحاً وعزاء .

باللغراب ! ايعجز الزهر الفراح ان يترع روحها عزاء ومرحاً وهو الذي
ينقل بالمحزونين واليائسين الى عالم يمور بالطمأنينة والسكون ؟ في الماضي ، نعم
في الماضي الذي طوى في غضون حوادثه سرها المحجب كانت تنزع الى الورد
والزهر لتجد في كنفهما ذلك العزاء اللطيف الذي يبدي سحب احزانها فتأنس، روحها

الى العبق وتجدد فيه بعض الدعة . وبعض الرجاء . فلا تلبث ان تنسى ولو الى امد
هذه الاشجان المرة التي تحطم ابنى احلامها وانضر آمالها .

— وا رحمتاه . لا تقع عيني في هذه الحياة الا على المشاهد الجاهمة فان العيش هنا
تخالطه الوان لا اجد في صباغها ذلك الاشرار الذي يبيد اليأس . بل لست اجد
في نواحي حياتي كلها نجوماً ولا ارضاً . ولا ظلاً ولا فضيلة . وكأما راحت عيناى
، حنان عن ضجيج المفارح لا اجد غير الصمت وغيرته من متاعب حساسة .
ولكنها ليست متصلة بالحياة والموت حتى اصبحت غارقة في بحر عظيم الدوامي
ليس له شاطئ . ولا صدى فهو ابدأ صامت ساكن لا تتحرك . لقد كانت تتحدث الى
نفسها بهذه الالهة اليائسة ثم تقول :

من انا ؟ ومن ان اتيت ؟

لما اردت ان اسأل عن ابي وامى ومن عساهما ان يكونا . سخر تبسم نفسه من
حزنى واجابني قائلاً :

انساين كيف وجدت في هذا العالم ؟

ثم نمتك وضحك كثيراً حتى بدا لي في ضحكك انه عابث بحزنى ساخر من ابنى

وبعد حين وضع يده على كتفى وقال لي في غير جفاء :

هانت كالأقحوانة عثر عليها الرعاة في شواخ الجبال .

اننى فأنا يتيمة كالأقحوانة لا اقل ولا اكثر . . . ظلت هذه الممرات جس الأمانة

تزدحم في خاطرها المتوثب فراحت تبكي بينما كان عمرو الذي احبته برقة بوجه

اباً وادماً وحبيباً عن كئيب من ضيوفه الذين اسماهم سادة العرب .

ونادت الى زهرة ندية من البنفسج فأدنتها من فمها . وغمرتها بسيل من دموعها

المدرار وقالت :

— هذه الزهرة المباركة اللطيفة هي احب الأزهار الى نفسى . لقد كان عمرو يعرف

قيمة هذا العرف الطيب الذي ينبعث منها جأني في الصباح الباكر بكثير من البنفسج .

هي الزهرة الأولى التي اخذتها منه ، بل هي الزهرة الأولى التي افنيت فيها
روحى وعقلي وهو اجسى ! .. واتبع فكرها على حين غرة بقبس غريب ، فراحت
تنصت الى شدى البلابل السارحة في جنة القصر وهي بعد على الشرفة لحولت هذه
الذخات العذاب احزانها الى قابل من العزاء فابتسمت وقالت :

— حذقت اليأس حتى اصبحت بارعة في فنونه والوانه ، ولكن الطبيعة المرحمة
لا تزال العنصر الوحيد الذي يدخل الهناء الى نفسي ، ان لهذه البلابل المفردة الجمجمة
ماونة تنقل بها من فضاء الى فضاء ، ولكنها لن تحمل هذا الثقل ، ولا تعاف الاثنا ،
وبل الى انها غريبة مائة مائة ، ولكنها حسنة اعرف بالفرح عن نفسي التي لم
تعرف اليه بعد !

جعل الله او كارك هاتمة ايها الطير والاليفة التي ردت الى عواطفى وفكري الزاهل ..
واخذت مارية تصحك . رند طرحت شجونها وآلامها ، ثم سرحت طرفها
في الافق الساجي كأنها بذت الغرق في الزمان الخائفة .

جلس عمرو الى جانب أمية بن أبي الصلت وحسان بن ثابت الشاعرين وطفق
يسأله عن بلاد العرب وعن سوق تكاذب وشعرائها وهو الذي احب الشعر والشعراء ،
فأبهر حسان بحديثه عن سوق تكاذب بأبجئة نفمة عالية حببت الى نفسه
السياسة في جزيرة العرب فما طرب لحديث كحديث الشاعر عن امرئ القيس
ابن حجير وكانت عند في خلال ذلك تنصت الى حديث حسان وهي اشد ما تكون
مرحاً واستملاً . ثم هزتها كبريائها فما عادت تملك نفسها فصاحت :

— زنى من شعر الملك ايت اللعين !

فتعلق حسان في حديثه عن امرئ القيس حتى ذكر تفاصيل قتل ابيه
وامرؤ القيس يومئذ بدمون من ارض الشام مع نديم له يشرب ويلاعبه بالترد فوافاه
رسول ابيه وقال له وقتل حجره فلم يلتفت الى قوله ، وامسك نديمه فقال له امرؤ القيس

«اضرب، فاضرب حتى اذا فرغ قال ما كنت لأفسد عليك دستك، ثم سأل الرسول عن امرأته كله فأخبره فقال .

تطاول الليل علينا دموت دموت انا معشر بانوت
وانا لأهلنا محبوت

ثم قال: ضيعني أبي صغيراً، وحناني دمه كبيراً، لاصحو اليوم، ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً امر، ثم شرب سبعة فلما صبحا آلى الا يأكل لحماً، ولا يشرب خمرأً ولا يدهن بدهن، ولا يلبس بلابو، ولا يغسل رأسه حتي يثار بأبيه ولما بلغ حسان هذه الناحية من حديثه تفرقت الدموع في عيني هند فقالت :

— كفي كفي فأن هذه الحكاية معروفة ايها الشاعر، ولكنها حكاية مؤلمة توقظ في نفسي كبرياء هذا الملك الذي ادرك ثأره ومات مغترباً نازحاً ! بل ان حديثك عنه يذكرني بعاري... هذا العار الذي لحق بي من هيباس ولم اغسله بعد !!...
فوثب عمرو صائحاً :

— اي هيباس تعنين ؟

فنهضت هند ونهض الفرسان الثلاثة معها واصطابع وجه عمرو بلون الحناء ورأى في عيون الفرسان بريقاً لم يطمئن اليه فقال :

— اي هيباس تعنين ؟

— هيباس قائد الرومان .

— واي شأن لهيباس معك ؟

— لقد دهمني برجاله بينما كنت في طريقي الى القصر، واراد ان ينال مني ، ولكن هؤلاء الفرسان المساعير الذين بعثهم السماء منعوا العار عني، فاقدمت بتراب أبي على الثأر بالآهانة التي لحقت بي ! فاصفر وجه عمرو وضاع صوابه وقال لهند :
— اتقولين حقاً ايها الفتاة ؟ ... !

— ابيت الاعم ايها الهمام ! ان حديثي واضح كفلق الصبح .

لجعل عمرو ينظر الى الفرسان الثلاثة كأنه يحاول ان ينترع من نفوسهم سر
هذا المعنى الذي حار في تفسيره .

فقال ابو سفيان :

— انها صادة ، وقد نجت من العار بفضل هذه السيوف .

— وهياس ؟

— فر كما يقر اللص في غسق الليل ، ولو تمهل في فراره لوقعت عينه على مشهد

لم يره الأحياء والأموات ..

— اي هند ! لماذا قعدت عن قتله ؟

— كنت عزلاء لاسلح في يدي ، يا للص ! اردت اليه ان لا يسرف في جنونه

وناشدته الشرف والمروءة فما اصاخ فجعلت اصيح من اعماق نفسي ، اليس في

هذه النزاحي فارس من آل جفنة المغاوير ؟ ولكن من في القصر كانوا غرقى

احلام ، وصرعى اوهام ، فضاع نشيجي المؤلم في وسوسة المياه ! ..

فقال عمرو :

— صدقت فقد كنا نياماً لانسمع صوتاً ولانحس ركزاً .

— واوغلت في صياحي حتى غص الفضاء على رجه بفحامي ، وحتى تقل

الهواء العاصف صرير نفسي الى هؤلاء السادة الذين اضافوا الى بهاء الأعراق

بهاء الأخلاق ! فنفروا الى نجدتي ، وانا نفس يتردد وشعلة تنطفئ ، فاحمرت عينا

عمرو من الغضب والتفت الى هند واردف :

لوعلت غسان هذا الذي تحيفك لما ترددت في قذف فرسانها الى المعركة الحراما ..

ثم التفت الى ابي سفيان قائلاً :

— لم تدهشني هذه المروءة ، ولم يذهلني ان يصدر عنك مثل هذا العمل الرائع

فقد كان شرف غسان ضائعاً فرد الينا سليماً غير مثلوم .

ويحي لو كان الحارث بن جبلة حياً لما ابطأ في غسل هذه الأهانة ؟ انه ما كان يجد

شفيعاً لهيباس غير الموت وسيموت هيباس ! اجل سيموت هيباس ! فهل يرضيك موته يا هند ؟

— النار ولا العار .

— قري عيناً فلن يطلع صبح الغد على هيباس وهو في الأحياء .

فصاح الجميع :

— انقله ؟

— ساطلب دمه الى قيصر فان ضن به علي هجرت هذا القصر ولحقت بالبادية

فانها لاتضيق بفرسان غسان .

كانت هند في تلك الفينة حائرة اللب مضطربة الفكر لاتملك كلاماً تقوله وقد ادركت اي حمية اثارها ، واي حماسة اذكتها ، فاقتربت من عمرو حتى حاذته فامسكت به ورمته بطرف ندي ثم احنت رأسها الى الأرض وغاصت في لجم هو اجسها ، وظلت يدها في يدي عمرو حتى استفاقت من ذهولها فرفعت رأسها اليه وقالت له :

— ناشدتك الله ان تترث في عمك فاني لا احب لك هذه المغامرة القاسية

وانت في ميعة الشباب بعد . . . الله يعلم ما تجره هذه العاطفة النيلة التي تشور في نفسك من الكوارث والآلام . ثم التفقت الى الفرسان الثلاثة قائلة :

— ساعدوني ايها السادة في تسكين خواطره الثائرة . .

هدئي روعك فلن تشرق شمس الغد حتى يكون القصاص .

وساد السكون ضيوف القصر ، فما عادو ينبسون كأُن على رؤوسهم الطير

وكانت نفوسهم تزخر بعواطف شتى : عاطفة التوجع لهذه الفتاة التي صيرها غضبها

شبه مجنونة ؛ وعاطفة الاحترام لهذا الشاب الذي ارتضى لنفسه الغرق في تيار

حوادث قد لايجني من ورائها خيراً : وعاطفة ناشئة من حرصهم على غسل جريمة

اذا ظلت بلا قصاص لازم عارها فرسان العرب الى الابد .

وانهم كذلك يمشون في التفكير المضني اذا باب الحجرة التي آوت مارية اليها
ينفتح واذا مارية على عتبة وهي اشد ماتكون التباعاً وارتماضاً فشخصت انظار
الجميع اليها . وقد ارتاعوا لظهورها بينهم ، وكان ابو سفيان اشد هم ارتباعاً من
مشهدها المؤثر . فجعل يمدق اليها تحديقاً غريباً متواصلاً ، ثم وضع يده على
جبينه كمن يذكر شيئاً قديماً عرض لمخاطره على حين غرة وراح يهمس قائلاً :
— ابن رأيت هذا الوجه ؟

وتقدم حسان منه وقد فاض قلبه بمثل شعوره واحساسه فقال له :

— الا ترى على وجهها خيال هند ؟

وكذلك فعل امية ، واخذ الفرسان الثلاثة في تلك اللحظة ينظرون تارة الى
ماريه واحياناً الى هند الغارقة في تأملاتها ، وصاح عمرو :

— ماريه ! ماريه ! كيف اتيت الى هنا ؟

فتقدمت الفتاة من الفرسان الثلاثة وقالت لهم :

— لقد سمعت ايها السادة حواركم وانا على الشرفة فأثرت قصة هذه الفتاة في
نفسي كثيراً حتى لم استطع حبس دمعي ، وحتى اصبحت خائفة على حياة عمرو وهي
الغالية عندي .

ورفعت هند عينها الى مارية فتلاقت النظرات فاذا هذه خيال تلك ، واذا تلك
خيال هذه . وادرك عمرو هذا الشبه في الفتاتين ولاح له كذلك ان انسجاماً بديعاً
يتربع نغمات صوتيهما . فجعل ينظر الى الفرسان فاذا هم في مثل حيرته وارتباكهم ! واخذت
هند التي استجاشها هذا التماثل في الحلقة والجمال والعمر تهمس في نفسها : ان لها
نظراتي وجبيني وعمري وصورتي ،

ولم تكن ماريه اقل شجناً من هند فقد طفقت تقول : ان لها نظراتي وجبيني
وعمري وصورتي . فمن هي هذه الفتاة ؟ .

وراحت هند تسأل نفسها : من من هذه الفتاة ؟ ، ثم اقتربت من ماريه

وقالت لها :

— لقد سمعت حكايتي التي اثرت في نفسك كما تقولين ؟

— نعم ، نعم ، اثرت حكايتك في نفسي كثيراً حتى لم استطع حبس دمي وكنت واقفة على الشرفة انصت الى صوتك وانظر الى حركاتك والمح هذا الشجن الذي يخطف على جبينك فما شككت في انك اهل للرحمة وانك جذبرة بالعطف ، ولكني جزعت كثيراً حينما رأيت سيد غسان يتهدد ، انه قتي بأسل يغضب للشرف وهو فوق ذلك روح حساس سريع التأثر .

ثم التفتت الى عمرو وقالت له بصوت ناعم رقيق :

— قل لي انك عدلت عن التحرش بهيلاس ! نعم نعم ، قل لي انك عدلت عن سفع دمه لأن قلبك الطيب الرقيق يعاف مشهد الدماء المسفوحة ، ولأن يديك الرحيمين ما تعودتا غير الأحسان الى المسيء . . . اي كارثة اليمية تنزل بي اذا انت ابيت الأصغاء الي . . .

وشخصت الى ناحية هند وقالت لها ناشجة شاجنة :

— ايها الفتاة التي ماثل لها المي كما ماثلت صورتها صورتي . حولي بين عمرو وحدته وحماسه فأني اخشى عليه ! ناشدتك الله ان تندي عارك ولو الى امد حتى لا يذكر عمرو نذره الدموي !

وراحت تنظر الى ابي سفيان ورقيقه وقد نم بريق عينيها عن اليأس والاسى وقالت
— الا تشاركوني في قلقي وليس فيكم الا السيد الغطريف ؟

رق فؤاد هند لهذه الفتاة الشاكية المتأللة وحال قلبها الذي كان يخفق منذ قليل للأن تتقام الى رحمة سامية ذابت فيها جميع عواطفها فشخصت الى ماريه وقالت لها :

— ليسكن روعك فلن يضرج عمرو يده بدم ذلك النذل ، ثم التفتت الى عمرو قائلة :

— ابيت اللعن ايها الهمام ، لقد زهدت في الثأر من اجل هذه الواهية فدع

هيلاس وشأنه .

— هند !

— ان لي في الحياة غرضاً اسى من غرضي في الانتقام ! فقد مات ابي وهو يلح علي في قضاء الواجب الذي لاسيدل الى التفاوض عنه وهذا الواجب يسألني ان لا امزج به واجبا يعوقه ويعطله واحسب الحافي في غسل الآهانة التي لحقت بي من هيباس معطلا لواجي الأول الذي لا استطيع التخلي عنه ؟

— هند !

— دعاني يزيد بن الحارث — وهو الذي اقامه ابي وصيا علي — اليه وهو يحتضر وكنت في تلك الاثناء في دسكرة بعيدة عن بصرى بين اهلي وذوي رحمي، فما ترددت في الأصغاء الى ندائه الاخير، فخرجت في ليلة كالحقة في غير رداء اتزمل به ورحلت هائمة علي وجهي في طريق تدفع الى بصرى، فكان البرد اللاذع يتلقاني في كل ناحية ويرتمي علي نحري فما راعني رياحه المقرورة، ولا ارمضني زمهريره القاسي، بل واصلت السير حتى اتيت يزيد وهو لم يغمض عينيه بعد .

اخذ ناظري وجهه الذابل فد الى يده الراعشة، وراحت عيناه الغائرتان تدمعان فاقبلت اسأله هذا الذي يريد ويأمله في دعوتي اليه فارادني علي الجلوس فجلست؛ وجاء اهلي جميعا فتيانا وفتيات ليروا بقية ما ابقت الايام من الفتى الذي عاش ايامه الماضية مخموفاً بالشرف وحسن السمعة .

وكان اذا تراءى لهم خيال يزيد وهو ذاهل غشيت حدجاتهم دموع اصفى من ندى السماء وراحت نفوسهم قلقة منكشة، وهنا تحرك فتى كندة وتمايد في سريره وكانت الشمس قد اطلقت وغابت في حمرة الشفق، فاصغينا اليه فاذا هو يتحدث الينا عن دروع ابي وقد اودعتها السموأل بن عادياء الفسافي قبل ذهابه الى قصر وقد ابى السموأل ان يسلم الدروع الى الحارث بن ظالم وآثر ان يسلمها الى ورثة امرئ القيس، ولما امتنع السموأل عن تسليم الدروع قتل الحارث ابنه وهو مظل عليه من شرفات الحصن؛ ومضى في سبيله والسموأل اشد ما يكون حرصاً

على الأمانة التي تسلك اليه من أبي . وتعاقبت الأعوام وتصرمت الليالي ومات
السموأل بعد أن اسلم الدروع الى ورثة أبي ولكن أبناء عمومي تنازعوا على هذا
الأرث فارادني يزيد وريثة لدروع أبي وقال . انطلقى الى ملك الشام ولا
ترجعي حتى ترد دروع ابيك اليك ، ومات هذا الفتى بعد أن اصغى الى قسبي :
نعم مات مطمئناً الى وفائي بالوعد ، فقال عمرو :
— ثم ماذا ؟

— جئت الملك المنذر في بصرى وقصصت عليه حكاية الدروع فقال لي ان
اباه الحارث قد بعث بها الى قيصر فعدت الى بصرى ملتاعة واجمة ولكن اليأس
ظل بعيداً عن نفسي فلم يتسرب اليها وها انا لا ازال ماضية في قضاء الواجب
الأول فلن اغمض جفني حتى استرد دروع أبي ا رأيت انها الهام كيف يحول
الواجب الأول بيني وبين واجب الثأر . . . قل لي ناشدتك الله انك عدلت عن
مطاردة هيباس .

فصاح عمرو :

— لقد اثرت قصتك في نفسي كثيراً حتى لم اعد قادراً على حبس عواطفى الجائشة
ثم رق صوته رقة غريبة واردف . ناشدتك الله ان تمكثي بيننا هنا في هذا القصر
فاني عما قريب سألحق بقيصر في القسطنطينية وسترافقني مارية في رحلتي هذه وقد
يكرن من متع نفسك ان تذهبي معنا الى قيصر ؟
فقالت مارية :

— ناشدتك الله ان تمضي معنا الى القسطنطينية فلقد يراك قيصر وينصت
الى حديثك الشجي فلا يتردد في تخفيف شجونك ! ان حكاية هذه الدروع بسيطة
جدا ولا احسب قيصر يضرن عليك بارث ليس هو من حقه بل هو من حقك
وواصل عمرو حديثه قائلاً :

— نعم امكثي هنا الى اليوم الذي نمضي فيه الى قيصر .

فقال ابو سفيان :

— ليس لها ان ترفض طلبك بعد ان عرضت عليها الحماية والمجد .

فقالت هند بلهجة راعشة :

— لقد قبلت هذا الذي اردتني عليه .

فانيسطت اسارير الجميع ووثبت ماربها الى ناحية هند فسكت بيدها وقالت لها

— لقد انقذني عمك من يأس شديد ! ثم همست في اذنها همسة خفيفة :

— ستكونين لي اختا افرع الى حنايتها وشقةتها ،

فدنت هند منها وارذفت : أنت تقولين هذا القول ؟ قالت نعم وقد اصبح في

قدرتك ان تنقي بحبي وعطفي قالت ما ارق قلبك ياسيدي !

رأى الفرسان الثلاثة ان مقامهم بالقصر لم يعد مستساغا بعد ان اطمأنت

هند الى كنف اصحابه فطالب ابو سفيان الى عمرو ان يأذن له واصحابيه بترك

القصر وقال ان قوافله لم تعرض تجارتها بعد في اسواق دمشق وهو في حاجة الى

الرجوع الى الحجاز مع اميه بن ابي الصلت ، فرجاه عمرو ان يبقى اياما عدة فاجاب :

— لقد وعدت بحيرا الراهب بزورقة قريية واخشى ان يطول انتظاره على غير جدوى

فالفت عمرو الى حسان قائلا :

— وانت ؟

فضحك الشاعر واجاب :

— لم اربحيرا وانا في بصرى ، وقد كنت سمعت عنه روايات كثيرة حملها

العرب حتى الى خيامهم في البادية فكنت اجد فيها لذة ومتعة ، ومنذ ذلك اليوم

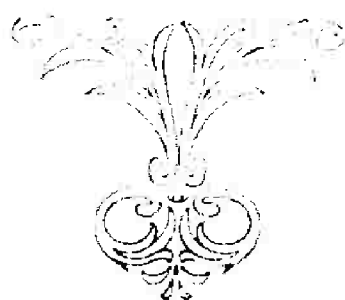
البعيد اصبحت تواقا الى رؤية هذا الناسك الذي يحفظ الشعر ويرويه . . .

فقال عمرو :

— الا تعود الينا ؟

فقال حسان :

— سأرتحل غداً الى البقاء فلا اعود منها الا في موسم عكاظ المقبل . . .
وافبل الفرسان الثلاثة على عمرو يودعونه ثم امتطوا غوارب جيادهم ، وبرزوا
القصر الى دير بحيرا ، وفي تلك الاثناء التفت عمرو الى ماريه وقال لها :
— لقد حبتك السماء هذه الفتاة الكريمة التي ستعيش في قصر ابائي كاحدى بنات
الحارث بن مارية .
فضحكت ماريه ومسكت بيدي هند قائلة :
— وستكونين هنا في دعة وخفض عيش الى اليوم الذي تبلغين فيه غرضك
من دروع ابيك ؟



الفصل الثاني عشر

موسم الشعر

غادر الفرسان الثلاثة قصر البريص حوالي المساء ، فقتضوا ليلتهم في دير قديم اعتاد اميه بن ابي الصات ان يفرع اليه في اسفاره الى الشام وفي صباح اليوم التالي عرضت قوافل ابي سفيان تجارتها في الأسواق فاقبل عليها تجار البلد حتى نضبت ، ورأى ابو سفيان ان عمله قد تم في دمشق ففكر في زيارة بحيرا الراهب في صومعته وقد كان معه على موعد ، كما رويناه في الفصول السالفة ، فوقعت هذه الزيارة من نفس اميه موقعاً طيباً واحسن حاجته الى الراحة والى الدعة بعد الشجون التي برحت به في تلك الليالي التي سلخها في دير بصري وفي قصر البريص عن كتب من عمرو بن الحارث الغساني وقد نسي حديث ماريه وهند ، ونسي ايضاً حكاية هيباس ومأساته المؤثرة ، ولم يعد يذكر غير حاجته الى التعبد والتقشف في الدير وغير الاستماع الى احاديث الرهبان وكان ابو سفيان لا يعمل صحبته ولا يعاف حديثه وقد وثقت القرابة بينهما برغم التفاوت البعيد الذي يفصل بين آرائهما في العبادة فلقد كان ابو سفيان مصطحباً على عبادة الأوثان مسرفاً في معاشرة الحسان ، شديد الشغف بمرح الحياة ونشاطها ، حتى ليستويه عقب المرأة من بعيد ، فلا يلبث ان ينطلق في اثره ، اما اميه فقد كان ورعاً متمشياً شديداً الولع بالكتب القديمة ، عزوفاً عن الناس الا عن الرهبان ، ولم يكن مغهور الصيت في الحجاز ولا في الشام بل كان له في بلاد العرب كلها صيت لامع لعل العامل المؤثر في ذبوعه هو انتماءه الى آل عبد مناف فقد كان جده لأمه عبد شمس بن عبد مناف سيد بني اميه .

ولم يكن في الشعراء خاملاً بليداً بل كان من شعراء الطبقة الثانية وقبل من شعراء الطبقة الأولى ، وقد صيره عكوفه على مطالعة الكتب القديمة انساناً تزخر

نفسه يشتى الأحلام والهواجس فأخذ يحدث عن ظهور نبي ، يجمع اليه العرب ويؤلف مابين بطونهم وقبائلهم وانخاضهم وكان يرجو ان يكون ذلك النبي الذي بشر به الرهبان في معابد حوران والبلقاء والشام .

لقد نمت هذه الهواجس في روحه حتى أصبح شديد الزهد في الدنيا فأخذ يحضو الاختلاط بالناس ، وعرف ابو سفيان هذه الأهواء الدينية التي تطفو في نفسه فانطلق يسخر منه ويتأفف من اكثاره الأحاديث عنها ، وفي بعض الأحيان كان ابو سفيان يلومه على هذه الوسوس التي علقت بلبه وعقله ، ويقول له :
« ان طمحك الاحمق قد باعد بينك وبين مسرات الحياة فاصبحت هازلاً وافسد الهزل عليك الرياسة ! فكان يقول له

— دعني وتأملاتي ..

— ولكنها تأملات معتوه ... احترس كثيراً ان تفاجئي بمثل هذه الأقاصيص المملة التي يحدثك بها هؤلاء الذين طابت لهم الحياة في الصوامع ولخير لك ان تنصرف الى الشعر فانه باعث في نفسك بعض العزاء الذي لاتعثر عليه في وسوس يملها عليك ايغالك في كتب الرهبان .

وانهما لمضيان في الطريق الذي يدفع الى دير يوحنا حيث ينتظرهما بحيرا اذا بأبي سفيان يلتفت الى اميه ويقول له :

— احترس ان تغلب عليك هذه الهواجس فاني اراها قاذفة بك الى دنيا لاحظ لك فيها واني ليرمضني كثيراً ان ارى شعلة ذكائك تحبو ، وان يأخذ بصري نفسك فلا يقع منها الا على رسم محيل على اني لست ادري هذا الذي يطوح بك الى انتماس العزاء في اوهام اصطنعها الناس وجعلوا لها هذه المظاهر التي يضيق العقل في روائها وهي قليلة الجداء في حين انك واجد في الحب سعادة دائمة وهناء مديداً وافقاً ساجياً لامطر فيه ، وشمساً لاحتس في فيها قرأ ولا برداً ! وفي حين انك واجد في العقار نشوة بتفتح لها ذهنك وينتفش تحت تأثيرها فكرك فتغدو الدنيا

في عيدك وهي قصيرة في الديانة فضاء بعيداً لانهاية له في الحب ولكنه فضاء يعج بالطمأنينة ويزخر بالمفارج .

بل لا ادري لماذا تستخذي مثل هذا الاستخذاء للاوهام وانت تعلم اي رجل هذا ، افتحسب سطيحاً انساناً له ما للناس كاقة ؟ أعزب عنك انه حيوان له عيان ورأس وليس له يدان ورجلان ، ايكون هذا المسيح الذي لا يحتوي على غير اللحم ، اقوى منك على حذق المستقبل وما يطن ؟ اتحسبه صادقاً في هذا الذي تحدث به الى تلك الفتاة ؟

— حسبك هذا الذي تقوله !

— ولكنني اخشى عليك الجنون !

— الا تذكر هذا الذي قاله بحيرا ؟

— لقد اخذ بحيرا عن سطيح ، والناس في بصرى وحوارات لم يعنوا بهذه الأحاديث التي لم يقيم الى الآن دليل على صدقها ...

• هب حديث سطيح صحيحاً لاملق فيه ، افيشجيك ان يرث العرب الروم والفرس في هذه البلاد الحالية بالثروة والخصب ؟

ناشدتك المروءة ان تنزع من نفسك هواجسها المرة فهذه هي الحياة امامك وهي موازة بعناصر الفرح واللذة ، فافتح صدرك لها فانها وحدها قادرة على اطفاء هذا الضرام الذي يتأجج في صدرك . فلم ينبس اميه ، وظل على صمته حتى بلغ الفرسان الدير لما عرض الدير للفرسان تنفس امية الصعداء وتهافت على خفق بابه ؛ وبعد قليل فتح له الباب فتوغل الفرسان في مساربها ، بعد ان تركوا جيادهم في المربض . وكان بحيرا في تلك الساعة مكباً على المطالعة في حجرته الصغيرة .

لم يرفع بحيرا رأسه الا حينما عرضت له وجوه الفرسان فترك كتبه وخف الى الترحيب بضيوفه وكان فرحه بآقاء حسان عظيماً ، ولم يشأ ابو سفيان ان يرهق الراهب بسؤال ما عن سطيح ولعله قد اراد في تغاضيه عن ذكره ان لا يفتح

تلك الجروح التي يعاني اميه آلامها وهي جروح كثيرة لا سبيل الى معالجتها
الا بالنسيان .

كذلك بحيرا فإنه تجنب الخوض في مسائل الديانة احتراماً لأبي سفيان الذي
عاف الأحاديث عنها، ورأى ان ادب الضيافة يريد على المبالغة في الحرص
على عواطف ضيوفه وبين هؤلاء الضيوف سيد من آل عبد شمس ، فقصر احاديثه
على سوق عكاظ، وصارح ابا سفيان برغبته في حضور الموسم الجديد الذي سيكون
خصباً مرعاً بقصائد مائة يلقيها شعراء البادية الفتيان .

وتناول حديثه شعراء الطبقة الأولى منهم فترحم على امرئ القيس بن حجر
وقال : كان امير الشعراء في غير نزاع ، ولو ظل حياً ، ولم تشتمل عليه ارض الروم
لجاء بالمعجزة الباقية ، ثم تغنى بشعر النابغة الذبياني وسأل حسان بن ثابت اذا كان
النابغة سيحضر موسم العام في عكاظ واراد اليه ان يذكر اسماء الشعراء الفتيان
الذين يعدون في الطبقة الأولى .

فأجابه حسان قائلاً :

— بلى ان النابغة سيحضر هذا الموسم شأنه في السنين الماضية وستضرب له
كالاعتاد قبة من آدم بسوق عكاظ فتوافيه الشعراء وتعرض عليه اشعارها واول من
انشده في العام الماضي الأعشى ، ثم انشدته انا في هذا العام . ثم انشدته الحنساء بنت عمرو
ابن الشريد ؛ وسينشده في موسم العام المقبل شعراء عديدون من نجد والحجاز
والعراق واليمن وبين هؤلاء فتيان حذقوا الشعر من عبس وربيعة وعدنان .

— ليت الله يفسح في اجني حتى لا احرم نضارة هذا الموسم الذي سيكون
خصباً بالفكر الراجح ...

فضحك ابو سفيان وقال باسماء :

— ولكنك قوي وباست كالشجرة الفرعاء وفي وسعك ان تشهد موسم هذا
العام ، بل في وسعك ان تشهد مواسم الأعوام المقبلة .

ولم تناول احاديثهم غير الشعر فأسهب حسان في وصف شعراء الموسم الماضي واطرى الشعراء الفتيان الذين سيكونون نجوم الموسم المقبل ثم انتقل الى ذكر ملك الحيرة وتشجيعه النابغة على احياء هذه المواسم التي ترفع من قدر الشعر والشعراء في جزيرة العرب وقال :

— وفي الحق اننا نعيش في عصر الشعراء فان الماضي قد تعرف الى ملوك الشعر امثال امرئ القيس وزهير بن جناب الكلبي ، وطرفة بن العبد من بني بكر بن وائل ، وعدي بن زيد ، وزهير بن ابي سلى المزني ، واحسب شعراء هذا الموسم سيكونون من الفتيان الذين جمعوا الى نضارة الحسب نضارة الأدب ووقفوا بين اغراض الفروسية ، واغراض الألمعية ، وسيكون في جملة هؤلاء عنزة العبسي وقيس بن زهير ، وعروة بن الورد ، وهؤلاء الشعراء الثلاثة هم فرسان العرب في هذا الزمن الذي نعيش فيه .

فصاح بحيرا مشدوها !

— لقد سمعت الشيء الكثير عن شهرة عنزة في الفروسية وعليت ان لشعره تلك الروعة التي تصحب ملاحمه ا فهل صحيح هذا الذي يتحدث به الناس ؟
— جمع عنزة اليه مجد المعركة الخراء ، وشرف القصيدة الزهراء .

— زدني من احاديثك ؟ من هو افرس فتيان العرب ؟

فصعد حسان زفراته واجاب قائلاً :

— ناشدتك الله الا تذكرني بفارس الفتيان فان هذه الذكرى توقظ في نفسي آلامها الراكدة وتبعث فيها كثيراً من الأشجان .
ثم تأوه وقال :

— لقد مات هذا الفارس الذي تسألني عنه .

— ما اسم هذا البطل الذي ترعش ذكراه الممضة صوتك ؟

— ربيعة بن زيد المسكدم ، لو عرفته وهو في ريعه السابع عشر لما ترددت في اكباره

واجلاله ! فلقد كان يخوض المعركة وادعاءً مطمئناً ، فلا يؤوب منها الا وقد اترع نفسه بعقب الظفر ، وكانت بسالته حديث النساء والشيوخ في خيام الأعراب وكان وفاؤه اسى من استبساله في مواقف اليأس .

شهدته في معركة تلظت فيها حمرة الشفق ، فرأيته يثب على خصومه غير مكترث ولا قلق ثم رأيته يعود من المعركة وهو اشد ما يكون مرحاً وتوثباً كأنه لم يخض الغمار ، ولم يلتحف الغبار ! فأثار مشهده شجاعة الشيوخ الذين اشفوا على الفناء فأحس هؤلاء انهم يماثلونه في النجدة والكبرياء .

يا اسفا ! لقد مات في ريعه السابع عشر ، ذأنطفأت تلك الشعلة الطاهرة التي كانت تنير حلك هذا الليل الذي يغطي آفاق جزيرة العرب .

اتيت رسمه والفجر لا يبرح ندياً رطباً ، فعمرت ناقتي على قبره ورحلت اذرف عليه دمعاً هو في صفائه وطهارته كالدمية الوطفاء . ناشدك الله ايها الراهب المبجل ألا توقظ في نفسي حسراتها النائمة واحزانها الراكدة !

فوثب بحيراً وقد احمرت عيناه ورعشت يداه ثم حاول ان يتكلم فخنقته عبراته فما عاد يطبق كلاماً فجعل الفرسان الثلاثة يطيلون التحديق اليه وهم لا يدرون اي شجن يضني نفسه ويدويها وراح ابو سفيان يتساءل عن معنى هذا الألم البليغ الذي هدد قوى الراهب هداً !

وخيل الى حسان ان حديثه عن ريعة كان الباعث الى اثارة عواطف الهرم فاراد ان يلطف من كربه واستعان رفيقيه في تسكين هذه الآلام التي اعتورتها ! ولكن الراهب مالبت ان اطمأن ، فاذا جبينه يتلألاً ، واذا ابتسامه وادعة تحرك شفتيه ثم اختفت تلك الحلقة الشاردة من عينيه فاغمضهما اغماضة خفيفة وبسط يديه الى نضاء الغرفة بينما راح الفرسان الثلاثة يرقبون حركاته وهم في حيرة من امره ! لقد ثنى أميه وجهه حتى لا يرى هذا المشهد وهمس ابو سفيان قائلاً :

— ليتني جفوت هذا الدير

وصاح حسان : جن الرجل !..

في تلك الاثناء تقدم بحيرا من النافذة فأطل منها على المحاضر ومضى ناظره يحول في الفضاء غامراً الحقول والمراعي وهو لا يراها ، ثم ما لبث ان اشرق وتبال وطفق يتكلم كأنما ارتفع له شبح من مكان بعيد فراح يحدثه .

«... هذه هي القافلة ، انها تمشي في رمال الصحراء وادعة مطمئنة ، وهذا هو ذلك الطفل الذي افاء الله عليه الشرف والمجد والتواضع والعمل النبيل الصالح »

« انظروا ، هذه هي الشمس تريق بهاءها على جلال الموكب ، وقصد اهتزت الرمال تحت هذا الزحف المجيد ! يا لهذا الزحف الرائع الذي يمضي باصحابه الى العيون والأنهار والخلجان والبحار .. يا لهذا الزحف الرائع الذي لا ينتهي الا عند ابواب المدن الكبرى في الشام والعراق » .

« انظروا معي : ان النبي قد ظهر وهو يقترب من بصرى حتى يكاد يدخلها » ثم شمس الى ناحية الفرسان الثلاثة وكانوا ينظرون اليه وهم لا يفقهون هذا الذي يقوله فتابع حديثه قائلاً :

« ليس عصركم ايها الشرفاء عصر شعر فحسب ولكنه عصر النبوة وعصر العقائد العاقلة المهذبة التي ستجعل من الصحراء كاسياً رافهاً . لقد بعث الله في العرب نبياً كريماً ورسولاً عظيماً يسوقهم الى خير مساق ويعرفهم بالفضيلة الباقية التي تصقل النفس وتمشي بها الى عالم يموج بالطمأنينة ... »

« وهذه الجنات الزاهرة التي يتسم فيها الأيقاح والورد . وهذه المياه الهادرة التي تغسل المراعي وتسقي العشب ستذوب في ابتسامة مضيئة تلمع على شفقي ذلك النبي » . وراح بحيرا الى مقعده رابط الجأش حافل النفس بالسكون فجعل الفرسان الثلاثة ينظرون اليه وقد خالطهم الذعر . وكان حسان اهدأ ذهنأ ، واصفى خاطرأ من رفيقيه بل لقد كان اكثرهم استعدادأ لفهم هذا الذي يحول في خاطر الراهب .

في الاسبوع الماضي كاشفه ابو سفيان بحديث بحيرا عن النبي فما ارتاع ولا

اجفل ففتح نفسه لجمال الديانة وصفائها ولم يجد في الشعر وحده غذاء الروح ورجاءها . بل لقد وجد في الديانة ذلك الغذاء الذي يودع شعره الرواء والبهاء . ولم يكن يشجيه ان ينبت في صحراء العرب ذلك النبات الضاحك المتورد وهو الذي يعلم حاجة هذه الصحراء الى الزهر والنبات ! وحسب الصحراء في عقيدته هذه الجاهلية الربداء التي يضيع فيها الفكر واللب . بل حسب هؤلاء الأعراب جفاء العيش ونضوبه في بادية يختلف عليها النهار والليل وهي ابدأ سادرة حائرة .

٨ لقد شهد حسان الوف المحارك التي تثار لهفوة بمترحها بدوي ساذج فلا يلبث سعيها ان يمتد حتى يحرق الخيام والبيوت ، وحتى يتأكل النفوس البريئة ، وحتى يستأصل الزروع والكروم فكان يقول :

لماذا تكون الشام بزخارفها ونفائسها وعجائبها ومروجها وانهارها وجبالها وبحارها لهؤلاء الروم وهم غرباء عنها ؛ ولا تكون لهؤلاء الأعراب الذين لا ينقصهم شيء من وضوح الألمعية واتساق الذكاء ؟ !

ازدحمت هذه الخواطر المتوثة في ذهن حسان في الأسبوع الماضي حينما انصت الى حديث ابي سفيان . وفي هذه المرة استجاشت روائع بحيرا هذه الخواطر وحركتها ففضى الشاعر الى الراهب حتى اطمأن الى سكونه ، ثم سأله في رفق ودعة :

— من لقمك هذا الحديث ؟

— كتبي وعلي ؟

— اتؤمن بهذا النبي الذي حسرت لنا عنه ؟

— لقد آمنت به وهو لا يبرح جنينا في احشاء امه وانا اليوم اشد ايمانا به من الأمس !

— هل في الشام من يقول قولك ؟

— اذا كان الشك بقرض نفسك ويؤذيها الى هذا الحد نأني في تدريك ان

تمضي الى نسطورا الراهب في بصرى او الى مطيح الكاهن .

— وابن اجد سطيحاً هذا ؟

— تجده في سفوح الجبال عند نهر الأردن ، او في الأطلال النبطية ما بين
البلقاء وحصن تيماء .

— اتدري ما يقول سطيح ؟

— اذا انطلقت اليه روعك حديثه واشجاك ، فلقد اتيت سطيحاً منذ اسابيع وهو في
صومعته فرأيت عنده خلقاً كثيراً يخطبهم ويصف لهم ذلك النبي ، فأصغيت اليه فاذا هو
يتدفق فصاحة وبياناً ، فاستهواني وصفه الخالب لذلك الديانة التي تدعو الناس الى العبادة
النقية الصافية والى نبذ المعتقدات الجافة البليدة ولما تكلم سطيح على صفات النبي وصور
لسامعيه ضرورته الحسنة وكشفهم بدعوتيه الى البر بالوالدين والعطف على البناات
والبنين رحلت اذرف دمعي الحبيس ، ثم انطلقت وانا حافل النفس بجمال تلك العبادة .
— سأرى سطيحاً غداً . .

ونهمض حسان يريد الخروج من الدير ولكنه ترسل في مشيه وشخص الى
ناحية امية فاذا بهصره يقع على حزنه وجواه ، ولم يفت سيد آل عبد شمس هذا
الشجن البليغ الذي يرزح اميه تحت وقره ، فترك مقعده وقال للراهب :

— اتأذن لنا بالرحيل ؟

— الى اين تمضون في هذه الساعة ؟

— الى مكة فلقد مرت بنا ايام عدة ونحن في الشام ؟

ثم التفت الى امية قائلاً :

— الا تشاركني في رأيي هذا ؟

فهمس امية قائلاً :

— بلى !

وودع الفرسان بحيرا بعد ان اجزلوا له في الثناء ومضوا في اسواق دمشق

متوغلين وكان زفيف الرياح الصدى الوحيد الذي يخالط زفرات نفوسهم !

الفصل الثالث عشر

القصاص

لما مات يوستانيوس (١) صاحب القسطنطينية وصديق الحارث بن جبلة الحميم خلفه على عرش بزنطية يوستينوس قيصر (٢) العدو الألد لكسرى وحلفائه ملوك العراق فسار هذا الملك سيرة خلفه في مصانعة الغساسنة ومداراتهم وعمل على التقرب من الملك المنذر الغساني الذي خلف أباه الحارث على الشام وكان مسوقاً الى مصانعة الغساسنة تحت تأثير عوامل كثيرة ، ربما كان اروعها شأناً واعظمها خطراً حرصه الشديد على حماية طرق الإمبراطورية البيزنطية وقد كان الفرس وحلفاؤهم ملوك العراق يحتاجون هذه الطرق ويتوغلون فيها حتى تبلغ جيوشهم صميم بلاد الروم .

حيال هذه الغارات المتتالية التي قوضت صروح العمران والحضارة ومنعت الفكر الراجح من مواصلة كدحه ودأبه في العمل المجدي المثمر اطلق قيصر يدي المنذر الغساني في بلاد الشام ووسع سلطانه حتى شمل ارمينية وقسماً كبيراً من آسيه الصغرى ثم انشأ الروم خطاً دفاعياً في اطراف حوران يفصل بينها وبين البادية ، وكان هذا الخط قديماً مؤلفاً من عدة حصون بنوها واحكموا تحصينها لرد سيل عرب العراق عن اراضي الامبراطورية .

قام الملك المنذر الغساني بحماية هذا الخط ، وقطع على عرب الحيرة الطريق التي كانوا يتسربون منها الى اراضي الروم ، فامتنع هؤلاء عن الغارات زمناً غير يسير ، ووصلت اليهم اخبار كثيرة عن بطش المنذر الغساني ، فتهيؤوا اقتحام الأراضي التي يمتد عليها سلطانه فرأى الامبراطور يوستينوس الثاني ان يواصل عمله في افريقيه

واوربة بعد ان اطمان الى سلامة حدود الامبراطورية وبعد ان وثق بقدرة المنذر
الغساني على حمايتها ورد الغارات عنها .

وبينما كانت جيوش قيصر تتوغل في افريقية واوربة كانت ملك الحيرة يعد
الجيوش سرّاً لاكتساح الشام رجاء الثأر بآبيه من المنذر الغساني وحكاية هذا الثأر
ان الحارث بن جبلة والد المنذر الغساني الذي مات في سنة احدى وسبعين وخمسة مائة قضى
اكثر ايام حكمه في محاربة المنذر الثالث ملك الحيرة واتصر عليه في قنسرين انتصاراً
رائعاً وذلك ان ملك العراق جهز جيشاً للثأر بآبيه المنذر بن ماء السماء الذي
قتل في معركة عين اباغ فكتب الى الحارث ملك غسان : اني اعددت لك الكهول
على الفحول ، فاجاب الحارث :

« لقد اعددت لك المرد على الجرد » ثم التقى الجيشان بمرج حليلة - حليلة
بنت الحارث ملك غسان - وعصفت ريح الحرب ودامت اياماً لا يتصف الواحد
من الآخر ، فجعل الحارث ابنه حليلة لمن يأتيه برأس ملك الحيرة فخرج فارس
من غسان يدعى لبيد بن عمرو الغساني وشد على المنذر فقتله وكان تحت رايته عرب
العراق فانهزمت وقتل منهم خلق كثير وعادت غسان ظافرة وهذه المعركة هي التي
عرفت عند العرب بيوم حليلة ، وهي من ايام العرب المشهورة وفيها ورد المثل
الطائر ، ما يوم حليلة بسر ،

وقد جرت هذه المعركة في عهد يوستانيوس الاول والحارث بن جبلة الغساني
المعروف بالأعرج . فاثارت ذكراهما حفائظ عرب الحيرة واحنقتهن ولكنهم آثروا
الصمت والسكون مخافة ان يبطش المنذر الغساني بهم ، ولما مضى يوستينوس
الثاني الى الفتح في اوربة وافريقية كثرت اعباء المنذر واتسعت رقعة ملكه حتى شملت
ارمينيه فلم يعد في قدرته ان يتفرغ للتفكير في شؤون الشام ؛ وكان لازماً عليه ان
يسيح في اطراف هذه الممالك الشاسعة التي وضعها يوستينوس الثاني تحت سلطانه فرأى عرب
العراق في متاعب المنذر الغساني ساحة هائلة للثأر فاكتسحوا اطراف الشام

والمندر يومئذ على اطراف جبال طوروس.

وتوغل عرب الحيرة وحلفاؤهم الفرس في حدود بزنطية حتى بلغوا في زحفهم حواضرها فرجع المندر الفساني الى بلاده وجمع الجيوش ورتبها ترتيباً حسناً وحمل بها على مؤخرة الفرس .

ربيع يوستينوس الثاني لزحف الفرس فبعث الى المندر بجيش كبير من جيوشه وناط قيادة هذا الجيش هيباس احد قواده في افريقيه فلما تلاقى العدوان انهزم الروم وتراجعوا وكاد هيباس يقع اسيراً في يدي الفرس وحلفائهم الحيريين ويعزو مؤرخو عصر يوستينوس هذه الهزيمة الى كره هيباس الفساسة وكان المندر عالماً بهذا الكره فمنع جنوده من التوغل وارادها على الرجوع الى الشام ، فاحفظ عمله يوستينوس الثاني فحقد عليه واراد اغتياله اكثر من مرة فلم يفلح

وللرة الاولى في تاريخ الفساسة والروم نشأ مثل هذا النفور بين الشام والقسطنطينية ، بل للرة الاولى يمتنع ملك من غسان عن اصراخ قيصر ومخالفته عاد هيباس بعد انكساره الى دمشق فلبث فيها على قيادة الجيوش وطفق يناصب الفساسة العداء فاحقق عمله المندر فأراد قيصر على عزله وارجاعه الى القسطنطينية فخشي يوستينوس ان يؤدي عزل هذا القائد الى التحاقه بجيوش الفرس فسكت ولم يجب على كتاب المندر .

عاش هيباس في دمشق عيشاً حالياً بالترف والنعم وجمع اليه بعض الفتيان الظرفاء فلما بهم قصره وانقطع معهم الى الحب والعبث والمراح ، ولم يمنعه هذا العيش الجديد ان يسرق اخبار الفساسة فاحاط قصورهم في حوران والبلقاء والشام بالجواسيس .

وكان لعمر بن الحارث بن ماريه ذات القرطين قصر في دمشق يختلف اليه في فصل الصيف للابتعاد بالظلال الرطبة والأفياء المرسلّة فأحاطه هيباس بعيونه ورجاله واوصى بمراقبة الداخلين اليه والخارجين منه .

وكان عمرو قد عاد حديثاً من القسطنطينية ومعه فتاة رائعة الحسن كثرت عنها الأحاديث ولكن امرها ظل سراً حفيافاً جعل الذين كانوا يرونها مع عمرو يتساءلون عنها وعن نشأتها فقال بعضهم انها ربيبة قيصر وقال بعضهم انها حبيبة الفتى عمرو ابن الحارث وان الحب وثق ما بين نفسيهما .

وهكذا كانت هذه الفتاة البضة الناعمة التي جمعت الى روحها الكياسة والظرف والدعة موضع حوار الناس وغرض احاديثهم في بيوتهم وفي خلواتهم الريفية اي شأن لقيصر في حياة هذه الحسنة ؟

لقد كان الناس يرددون هذا السؤال اذا ما احتوتهم منازلهم ودورهم ولكن في غير طائل لأن الجواب عليه لم يكن امراً هيناً ، وربما دار في خلد احدهم انها ابنة قيصر ولكن كثيرين كانوا يرددون هذه المزاعم وينقضونها لأن يوستينوس الثاني ابن اخت يوستنايوس الاول لم يكن قد تزوج بعد !

في ذات عشية خرجت مارية الى جنة القصر فانطلقت الى الأفياء الظليلة للترفيه عن نفسها التي امضها هذا الضجر الذي احسته في عزلتها ، وكان من امتع امانها ان تسبح في خضرة الرياحين في العشيات التي ينيرها القمر ؛ بل ربما كانت تجد في ساعة الاصيل تلك اللحظة المبتغاة التي تصبو الى الفرق في سكونها ودعتها .

وانها تمضي في عثها بالأزهار اذا عرض لها عند باب الحديقة طيف متلفع بالسواد كانت عيناه تنظر ان اليها فروعها بريق هاتين العينين ورأت فيه ما يرمض نفسها ! ثم اختفت تانك العينان فعادت مارية الى حجرتها وهي اكثر ما تكون قلقاً وغماً . وفي اصيل اليوم التالي عادت الى الطواف بحديقة القصر وحاولت المضي في مثل عمل الأمس فتشأها عن فكرتها ذلك الحيال الذي عرض لها في الاصيل الفات ، وخیل اليها انها ترى تينك العينين النضاحتين بالمكر والرياء فرجعت الى غرفها واجمة ذاهلة فلقاها عمرو بين ذراعيه ولم تفتحه مخاوفها وهواجسها ف راحت تتكلف الابتسام وفي الصدر صرير شعبي وان لم يد له في العين لآلاء ولا قطار .

ولما سألتها عن هذه الأشياء الخفية التي تتغير إلى خواطرها راحت تستدري .
الصمت ولم تشأ أن تحسر له عن مصدر القلق الذي تحسه فسألتها قائلاً :

— ألا تحسرين لي عن معنى هذه الكدرة المخوفة التي تغشى وجهك ؟

فلم تنبس !

— اذن فانت لا تحبين الإقامة في هذا البلد ؟ . .

فلم تنبس ؟

فدلف عمرو إليها حتى احتواها بين ذراعيه وقال لها متلطفاً — نامي هنا على
صدري هذا النوم الوداع الذي تتراكض في غمضته تلك الأحلام العابقة بشذا
الحب . . لله هذا الحب المتأرجح الذي يرطب نفسي بنسماته العذاب .

فلم تتحرك وامتنعت عن الكلام فقال لها :

— اراهن على انك شقية بعيشك في هذا القصر ، وعلى ان في حياتك سرأ

لا ترهدين الافضاء به الى فما هو ذلك السر ؟

فسكتت فقال لها :

— الا يغبطك ان تتأسي بحديث مع صديق ، الا يبهجك ان تجلسي الى حبيب

يفهمك كما تفهمينه ويبتك ما تبينه ! لما تلاقينا في القسطنطينية رأيت نفسي تطمئن

الى خواجلها . وكان ايماني بالحب أقوى من اي ايمان آخر ، فهل تزعزع ايمانك

ايها الحبيبة ؟

اذا كان الغناء يلطف من كربك فاني مغنيك ابدع ما عندي من غناء ، واشجى

مالدي من نغم . .

وطفق يغني فكان لجرسه اللذ وقع مؤثر في نفسها فاذا هذه النفس التي لم

تطمئن بعد تلك العشيّة المخوفة تراح الى وسوسة هذا الجرس الناعم فابتسمت

وقالت له :

— حدثني عن الحب ، بلي حدثني عن الحب .

فجعل يعبت بشعرها ، ثم كانت بينهما تلك الأحاديث الناعمة الملساء التي مر بها
القاريء في الفصول السابقة وفي تلك الاثناء كان رجال هيباس يمدقون بالقصر يراقبون
انواره ثم خمدت الانوار وغيب القصر في غسق فاحم فصاح هيباس :
لقد رايتهما يدنوان من الشرفة ثم اشتمل عليهما القصر واحتواهما هذا الديجور
الشامل ، غدا ايها الرفاق ستكون لنا رجعى الى القصر وغداً يكون الاختطاف .
وهم قى الروم برجة ولكنه تردد واجفل وطفق ينظر الى النواحي البعيدة
كأنما قد عرض له شبح جديد ثناه عن الرجوع ، والتفت رفاقه الى الناحية التي
ترأى الشبح فيها فاذا هم يبصرون فتاة تغلو في ركضها الى القصر فصاح هيباس :
— امرأة والله .

ولم يكذبه ظنه فلقد كان الشبح الذي راح يتأمله فتاة في انضارة شبابها وفي خفة
الوميض تماقت رجال هيباس على التحديق اليها فترسلت في مشيها وارتد وجهها
شاحباً مفسوعاً ،

يا عجباً ! من يكون هؤلاء ؟

اخذت تلقى هذا السؤال على نفسها من غير ان تجد له جواباً وخيل اليها في
لحظة واحدة ان هؤلاء الرجال من اتباع عمرو بن الحارث فاطمأنت قليلاً وارادت ان
تواصل سيرها ولكن هيباس اراد اليها ألا تتحرك فجاءت ترمقه مبهوتة وهي
لاتدري اي غرض يبطن .

والتفت هيباس الى رجاله قائلاً :

— اراهن على انها عشيقة جديدة لصاحب القصر ، ايها الرفاق لقد وقع الطائر
في الشرك ، وفي هذه المرة سنعود بالمغانم والمرايح لأن يومنا شديد الحصب .
بلى وربى انها لفرصة مواتية لصيد ، موأمة لربح .

كفت اشارة من هيباس لحمل رفاقه المجانين الماربح على الاحداق بالفتاة فطافت
تستغيث وتلح في الاستغاثة .

ومضى هيباس الى الفتاة واخذ يطرح عليها كثيراً من الاسئلة :

— من اين اتيت ؟

— من بصرى ؟

— والى اين تقصدين !

— الى قصر البريص .

فاحمرت عيناه من الغضب ، واردف :

— اذن فانت على موعد مع عمرو ؟

فاستيقنت الفتاة انها حيال اعداء ولحمت في عيني هيباس بروق الضغينة والموجدة ولكنها لم تستطع افلاتا لان رجال هيباس لم يتوانوا في التضيق عليها وفي تلك الاثناء قال لها هيباس :

— لاسييل الى فرارك . وبعد فلماذا تغرين ؟ افلا بروقك ايتها الحسنة الشاردة

في هذه النواحي ان تقضي الهزيع الاخير من هذا الليل بين ذراعي اجمل فتيان برنطية

— ارجل مثلك يسب امرأة مثي ؟

— اترين في هذا البث الذي احمله اليك سبابا وشتما ؟ يالك من حمقاء . . . لقد

كان ماضي حياتي حافلا بالحب وكان لي خليلات كثيرات فلم يقلن هذا الذي همس به فلك الآن !

— رح في طريقك والا اترعت الفضاء صياحاً .

✓ — ولكن غمضك ينمي في ملاحه وجهك فليتك تمضين في الغضب !

واذ ذاك تولاهما خاطر ملجأ مثل لها حاضرها في الصورة البشعة فاستيقنت

ان عدوها قوي وان السبيل الى الافلات من يديه لم يعد هيناً بل لقد وثقت ان

شرفها لا بد ضائع اذا لم يبلغ صوتها العاصف في اعماق الليل سكان القصر فاخذت

تقاوم جلاديهما وتهرب منهم وتركض امامهم حتى وقفت حيال باب القصر

وظفقت تصيح :

— اين انت يا عمرو بن الحارث ! اين انتم يا ابناء مارية صناديد الشام وفرسانها؟
فضحك هيباس ضحكة ساخرة عابثة وقال لها :

— لله انت من فتاة . ويا فرحة الرجل الذي يشم عبقك الاطهر في هذا المساء
المعطر فادركت الفتاة انه يتعمل العبت باحزانها فانطأقت تلح في البث حتى حمل الصدى
ترجيع نفسها الى الفرسان ، وكان سكون عميق راح هيباس في خلاله يتأمل ، ثم
ردد الفضاء اصواتاً عاصفة حملها الهواء من بعيد ثم اذا هذه الأصوات تصيح :
— ليك . ليك ؟

وتلا ذلك ضجيج في ماء النهر الزاخر . ثم ارتفع صهيل الخيل في الفضاء حتى
خرق آذان الرومان ، فرد الى الفتاة سكونها فبالغت في الاستغاثة وصاحت :
— الي الي ايها الرقود النيام . فصاح الفرسان :
— ليك . ليك ؟

فلم يشك هيباس في خطورة الموقف . فجعل ينظر على ضوء القمر الى ناحية
النهر فاذا هو يبصر فرساناً يخوضون الماء الطامي فريع وهو في موقفه والتفت الى
رفاقه صائحاً :

— لنبعد فان الخطر محقق بنا ؟

وفي اسرع من وميض البرق توارى هيباس وجماعته وراء الأشجار ، ولبثت
الفتاة عن كشب من باب القصر وهي ذاهلة منكشة حتى وصل الفرسان الثلاثة
فأوها فريسة البرحاء والألم .

وبينما كان اميه بن ابي الصلت جائياً بالقرب منها اخذ هيباس وجماعته ينظرون
الى الفرسان الثلاثة عن بعد . فلما انكشفت وجوه الفرسان صاح هيباس :

— لقد عرفت منهم واحداً . . . نعم لقد عرفت ذلك الشاعر الذي يتردد على
الغساسنة ، ثم رفع يده مهدداً متوعداً و ارخى لفرسه العنان فشقت به تلك الغابات
الوارفة ولحق به رجاله .

وبعد قليل عاد الفرسان الثلاثة الى قصر اليريص مع الفتاة هند وكان من امر هذه الفتاة في قصر عمرو ما عرفه القراء في الفصول السابقة ؟

تركنا الفرسان الثلاثة يخترقون طرق دمشق بعد خروجهم من الدير وكانت احاديث بحيرا لا تزال تترع نفوسهم بطائفة من الهواجس المتغايرة . فقد كان بعض هذه الهواجس عذبا سائغا في نفس حسان بن ثابت ، بينما بعضها كان يثير القلق والخوف في نفس امية بن ابى الصلت . ولم يحفل ابو سفيان كثيرا بتلك الاحاديث ولكنه لم يمنع نفسه ان تتأثر باحزان امية وكان يشجيه ان يقع بصره على يأسه . ذلك اليأس الذي جرده من مباهج العيش وحرمة مناعم الدنيا .

وكان المساء قد ارخى ظله في تلك اللحظة . واخذ الناس يتوافون الى بيوتهم مستروحين الى افياثها . بعد ان صير قيظ النهار نفوسهم مكدودة ناصبة وبعد ان غشيتهم لفحاته المضطربة .

وخلت الأزقة والاحياء من عابري السيل فاعادت تحتوي غير الظلال الفاحمة التي تغطي الأفق وتحجب دراريه ولم يكن القمر قد طلع بعد ، فتوغل الفرسان الثلاثة في الطرق ، وراحوا يجتازون الاحياء البعيدة وابو سفيان في خلال هذا المطاف الدجوي يتص على رفيقه بعض الحديث عن اسفاره ورحلاته الى الشام والعراق . ولعله قد اراد بهذه الاحاديث ان يحمل رفيقه على نسيان بحيرا وكله . بل لعله اراد ان ينزع من نفس امية تلك الخلجات الراحشة التي تبعثها في صدره ذكرياته في بصرى وفي دمشق .

ولم يكن يمل سرد الاقاصيص خاصة ما كان منها متصلا بالشباب ونزواته . والصبا وحماقته وابو سفيان بعد في الثانية والعشرين ، لا يتبرم بالاهواء ولا يعافها فجعل يقص حكاية غرامه بفتاة اغريقية افتتن بها وافتنت به وكان منزلها في ضاحية من ضواحي دمشق ، ثم قال :

كانت اللقاء الأولى في صيف العام الماضي ، ولما سألت الفتاة عن اسمها ابت

ان تحسر عنه . وفضلت ان تكون علاقتها بي سرّاً من الأسرار فأبيت عليها هذا الحرص وحاولت اكثر من مرة ان انتزع اسمها من فمها فذهبت مساعي في هذا السيل سدى حتى علمت ان اسمها هيلانة .

علقت بي كما علقت بها وصيرها الحب ذاهلة مجنونة ، وفي ذات عشية اتيتها زائراً وهي اركة ساهدة وللرة الأولى راحت شفتاي تمس شفتيها فرعشت واذا بها وهي الفتاة الغفل الغريرة تنأى عني وتجفوني فلم ادر باعث نفرتها وسبب ازوارها ، وفي غداة اليوم التالي عدت اليها ، فالفيتها على مثل حالها في العشية الفائتة ، فجعلت تنظر الي مبهوة شاردة اللب .

ورأيتني سعيداً بهذه اللقاءة المبتغاة التي كنت احسب الدهر تراخي عنها ، وتباطأ اليها ، ولكن ظنوني الهائلة حالت في تلك اللحظة الى يأس ، فلقد الفيت الفتاة غليظة مدنفه ، وهي تشكو من سعال يحبس انفاسها ، ويمنعها ان تفتح صدرها للهواء فجعلت اسألها عن هذا الذي تشكوه ، فلم تنبس واخذت تنظر الي بعينها الضحوكين العابثين وهي ابدأ ذاهلة كأنها سكرى .

لها الله من تاعسة ، لقد اسمعتها كثيراً من كلمات الحب ، فما اصاغت ، كأنما كانت في غرق تهاوى نفسها في لججه العابسة ، ثم تركتها آملاً ان يبدلها الغد ولكن هذا الذي املته ورجوته لم يتحقق فلقد زرتها في عشية اليوم التالي وحاولت ان ادخل حجرتها رجاء الاستمتاع بأحاديثها ، وشد ما كان جزعي حينما علمت نبأ موتها من خادم هرم كان يسهر عليها ، فما ترددت يومذاك في الرجوع الى البيت الذي يحتويني في الضاحية !

وعلى هذه الصورة مات حيي الذي ولد في دمشق ، وهو لا يبرح في المهد ، فخامرني يأس شديد ووجدتني مكرهاً على ترك دمشق ، وكانت قوافل ابي قد خرجت من المدينة قبل ليلة فلتحمت بها وعدت الى مكة ، ولا يزال ذكر هذه الفتاة البائسة يروعي ويستثير خواطري .

كان أبو سفيان يتكلم بالهجة ثم عن انفعال نفسه وشجوهما فتركت قصته في رفيقيه ذلك الأثر الذي توخى بعثه ، فتناسى أمية أحاديث بحيرا ، وأقبل ينصت الى كلمات أبي سفيان الشجية .

وبينما كان أبو سفيان يقص حكاية هذا الحب القصير العمر طفق حسان يستعرض الصور التي بدت له في قصر عمرو بن الحارث ، فذكر مارية ، وعرضت له ذكرى هند كما عرض له ذلك هذا التماثل الغريب في خلقة الفتاتين ؟

ثم ذكر حكاية هند وهيباس ، فراح الى نفسه يسألها عن معنى هذه المشاهد المتشابهة المنسجمة ! ثم أوغل في تفكيره وتأملاته ولم يستفق منها الا على صوت يعصف في غسق الليل فانتبه الى هذا الصوت الذي اخذ يتضاعف ويشدد حتى خالطته اصوات عدة فصاح :

— يال هذه الأصوات التي يرددها الهواء ، فمر صياحه ابا سفيان وأميه فقطنا الى الأصوات التي اخذت تتعالى وتشتد فجعلنا ينصتان اليها والطريق عاطل من رواده ، والليل منشور الذوائب . والكواكب متوارية خلف سحب فاجم وايس في هذه النواحي غير حفيف الورق وغير وسوسة المياه .

امتنع الفرسان الثلاثة عن السير ، وطفقوا يحدقون الى ناحية الأصوات فقال أميه :

— ليس في هذه الأجراس الهامسة في غسق الليل ما يروق فأولى لنا ثم أولى ان نعبث الطريق التي اعتاد الناس عبورها وهي طريق لا تغطيها الأشجار ولا تلتف بها هذه الغابات الكثيفة !

فقال أبو سفيان :

— ولكنني مضطر الى عبور هذه الطريق الوعرة لأدرك قوافلي قبل ان يشد حلك الليل ، لماذا نحس هذا الفرق ونحن ثلاثة لا يخطئون اذا صوبوا سيوفهم الى الصدور؟ وفي تلك الفينة خرج من خلال الأشجار بعض الأشباح !

ذلفت ابو سفيان الى يساره فرأى ستة من الفرسان يتقدمهم فارس متلفع
برداء اسود فضفاض يتدلى على قدميه ، فأدرك الفرسان الثلاثة انهم سقطوا في
كمين ولكنهم لم يفقدوا رباطة الجأش فاستلوا سيوفهم وصاحوا :
— من القوم ؟

وكرر ابو سفيان هذا النداء :

— من القوم ؟

فلم تبد من المغيرين حركة ولكن زعيمهم صاحب الرداء الاسود مال بث ان
تقدم من ابي سفيان وقال له :
— احترس ايها السيد ان تخطو خطوة واحدة الى الامام فان رجالي يقيمون
على حراسة الطرق والمنافذ ؟
من انت ؟

— ستعرفني بعد قليل .

ثم انحنى ناحية رجاله وقال لهم : انطلقوا بهؤلاء الثلاثة الى البرج فانهم غرضنا
في هذه الليلة .

فاحمرت عيون الفرسان الثلاثة من الغضب وهزوا سيوفهم في حزمة الليل فأذا
لها بريق يخطف الأبصار وصاح ابو سفيان :

— امهددي انت وانا فتي قريش ؟ واراد المغيرون ان يحدقوا بالفرسان
الثلاثة فتراجعوا مذعورين لأن ابا سفيان عاجل احدهم بضربة على رأسه
فهوى عن فرسه الى الأرض ، واثالت دماؤه على الأدبهم ، فاستثار مشهدها
حماسة زعيم المغيرين فصاح برجاله :

— ويلكم فيم هذا الخوف الذي عقل السننم وحطم ايديكم ؟

وفي تلك الأثناء سقط جريح آخر تحت طعنات حسان بن ثابت وكان اميه بن
ابي الصلت لا يزال يفرق المغيرين الذين راحوا يتألبون عليه .

قال ابو سفيان لرعيم الرومان ! من انت ؟ فصاح هيباس :

— الم يطرق سمعك اسم هيباس ؟

— هيباس ، هيباس ؟ أنت هو بطل تلك الليلة الجاهمة ؟ بالك من لص ضم الى

اعتدائه على النساء جريمة الاعتداء على عابري السبيل ؟

— لقد قفوت اترك كثيراً حتى رأيتك في هذا الصباح وانت في طريقك الى

الدير فأثارت سحتك بغضي وغضي . فهل لك ان تحسر عن معنى هذا الهديان

الذي حفرك الى الدفاع عن تلك الفتاة ؟

— ويحك ! أبلغ من صافك وكبرك ان تحسب الدفاع عن امرأة ضعيفة والهة

عبثاً وهذيانا ؟ الا فاعلم اني لا احب لك موت الجبناء الأذال : حتى لا يقال في الغد

ان ابا سفيان بن حرب اراق دم رجل عاثر الجد فجرد سيفك واستعد للمناخة .

— ولكني قائد الجحفل الجرار !!!

— ضيعت فخرك ونبلك في اعتدائك على امرأة على حين ليس من شيم المغاوير

الذين يسوقون الجيوش الى المعركة العابسة المكفهرة متلذذين بجنى النصر وروعة

الشرف ان يخسروا رواء المجد في ساعة جنون وحمق !

— انك لتبالغ في العبث بكرامتي !

— ولكنك بالغت في الزرابة بعفاف امرأة . فمات سيفك ان شئت ، او

انطلق في سيالك ؟

— لن ابرح مكاني حتى ارد اليك اهانة لحقت بي !

— دافع اذن عن نفسك .

ثارت ثورة هيباس قائد الرومان فاستل سيفه وتراجع قليلا الى الوراء ثم

تقدم مصوباً ذباب السيف الى صدر ابي سفيان ، فراحت طعنته في الهواء . فغضى

ابو سفيان يقهقه واثني قائلاً :

— بخيل الي انك لاتحسن المقارعة !

كاد هيباس يحن من فرط الغضب فأستأنف مقارعة خصمه
ولكن في غير جدوى فقد عرف ابوسفيان كيف يتقي الضربات التي انهالت عليه
دراكا واخذ الأموي الكبير يقول :

— انك عاجز عن النيل مني ، وقد قلت لك منذ حين ان سيفي لا ينال الرجل
العائر ، اذن فانطلق في سيلك !... .

— لن ابرح مكاني قبل ان تطمئن نفسي الى موتك !

— لقد امتلأ الأديم بجثث رفاقك فهل لك ان نتقي هذه الرياح التي عصفت
بهم حتى جعلتهم كالهشيم ؟

فالتفت هيباس الى ناحية النهر فاذا طرته يقع على الجرحى الذين اخذوا
يصيحون من الألم ويأجحون في البث وينادون :

— الماء الماء ! فقال ابوسفيان :

— يا للتعاسة انهم يموتون عطاشاً !

— الماء الماء ؟

وفي تلك الأثناء اشرق القمر فحسر عن تلك البطحاء ، وكشفت انواره جنبات
النهر الفائر الثائر ، واخذ هدير الماء يعصف في سكون الغسق ثم راح مختلطاً
بهزيم الرياح ! فحاول هيباس ان يجرب التجربة الأخيرة ، فطعن ابا سفيان
طعنة رابعة ولكن هذه الطعنة ذهبت في الهواء لأن ابا سفيان ترحرح قليلا عن
فرسه ثم عاد فاستوى وحمل على هيباس قائلاً :

— احذر ان يمسك سيفي !

ثم طعنه طعنة خرقت صدره ، فانتال دمه على رداءه الأسود وخرجت من
صدره زفرة عميقة ضاع لها صوابه ، فأطلق لجواده  فان الى ناحية النهر وهو
ذاهل ، فوارته سدفة الليل وحجبته ظلاله الفاحمة .

انتهت تلك المعركة الحامية التي خاض غمارها امية وحسان بتراجع رجال

هيباس بعد ان خسروا ثلاثة من رفاقهم . فأخذ هؤلاء الاشقياء يركضون في تلك
البطحاء وهم لا يدرون معاذهم ومعادهم بعد ان تملكهم الروح والخوف .
لقد كان طبعياً ان تحرك هذه المشاهد المؤلمة من عواطف الفرسان الثلاثة وان
توقظ فيهم شعور الرحمة والشفقة . فصاح ابو سفيان :

— لهم الله من تاعسين !

فصاح حسان : يا لبؤس ! لقد راحوا الى ناحية النهر ! ... الاترون اليهم
كيف خاضوا موجه الهادر ؟

ولمح الفرسان الثلاثة في تلك الأثناء على ضوء القمر هيباس
وقد هم بألقاء نفسه الى اللجج المتدافعة النائرة بينما كان رجاله يهيمون على وجوههم
في تلك الأنحاء المقفرة . فصاح ابو سفيان :

يا للتعس ! الاترون اليه وهو يحرق الى الماء كأنجنون . انها لحاتمة فظيعة .
ما كنت احبها لهذا الرجل . وكان الألم قد افقد هيباس عقله وشعوره فرمى نفسه الى
النهر فاحتواه الماء . وغيبته اللجج النائرة المتدافعة . فتقدم الفرسان الثلاثة من الضفة
واخذوا ينظرون الى ذلك المشهد الحاز . وجعل جواد هيباس يكافح المياه وهو
لا يستطيع افلاتاً من عناصر الماء الجائشة . .

يا لهذا الحيوان المسكين . . لقد كان اربط جأشاً من فارسه على مكافحة التيار .
فلم يشأ ان يموت تلك الميتة المخجلة . فلج في الصباح حتى ترامى صوته الى الأنحاء
البعيدة . ثم خارت قواه ولم يعد قادراً على الكفاح فاستخذى لتلك العناصر المحتاجة
واسلم نفسه لليل الفرق البهيم بعد ان ملاء الفضاء نشيجاً وطمأماً وصريراً . .

ولما احتواه الماء واشتملت عليه تلك الأرباب المغتلمة اخذ القمر يريق اشعته على
النهر الذي يسكن ويظلم بعد تلك المأساة . .

وكانت النظرة الأخيرة التي التي بها الفرسان الثلاثة الى النهر فياضة بالحزن
والآلم فلقد حدثت هذه المأساة الشجية على الرغم من ارادتهم . وربما كان في هذه

الكلمة البليغة التي رثى بها ابو سفيان هؤلاء الصرعى علامة صادقة على نوره من هذا المشهد الأليم فقد جعل السيد الأموي ينظر الى هذا المشهد الرابع وهو يهمس :

— لهم الله من منا كيد !

ثم التفت الى رفيقيه قائلاً :

— لنلحق ببصرى قبل انبلاج الصبح .

والقى نظرة ثانية على النهر الذي سكنت ثورته وهدأت فورته وصاح :

— الى الملاقى ايها الربوع الجميلة .

واستأنف الفرسان سيرهم حتى بلغوا المرائب التي عرست فيها القوافل وكان

الليل شديد النعيم ، والرياح سجواء ساكنة ، والناس غرقى احلام واوهام .

تحركت القوافل في مطالع فجر اليوم التالي فانبسطت خطأ ممدداً من باب دمشق

الشرقي الى الغوطة ، وبينما كان رجال القوافل يلمون بأناشيد الصحراء الليلية

التي الفوها في اسفارهم ورحلاتهم البعيدة اخذ الفرسان الثلاثة يتقدمون القوافل

واجمين متناعين ؟

الفصل الرابع عشر

الملك المنذر

بعث يوستينوس الثاني صاحب القسطنطينية بكتاب الى الملك المنذر بن الحارث الغساني كتب له فيه « لقد صليت في كنيسة ابا صوفيا من اجلك فسألت الله ان يعقد لك لواء النصر في المعارك القادمة ، وانا آمل في مضاء سيفك وقدرتك على طرد الفرس من بزنطية » .

« وليس هذا كل ما ارجوه . بل ان هنالك امنية عذبة طالما صبت الى تحقيقها ، تلك هي امنيتي في الاجتماع اليك والى ولديك الغاليين » .

فكتب المنذر الى قيصر الرومان كتابا رقيقاً جدد له فيه عهود الصداقة التي وثقت في الماضي ما بين الحارث بن جبلة ويوستانيوس الاول وقال له فيه « وليس لي ان ازيد على كتابي هذا سوى مشاركتي لك في الصلاة والدعاء لأن عدونا قوي ومتكبر . » « وقد يكون من اجل امانى وارضاها الى نفسي ان تفسح لي الايام في المجيء الى القسطنطينية مع ولدي » .

لما تلقى المنذر كتاب قيصر كانت جيوش النعمان بن المنذر ملك العراق المعروف بأبي قابوس وصاحب النابغة الذبياني الشاعر ضاربة قباهها في الصحراء بين العراق الشام ، وكان بعض هذه الجيوش يربط على اطراف تدمر تحت قيادة قابوس بن النعمان ، فما تردد ملك غسان حياى هذا الخطر في تجديد عهود الصداقة لقيصر وهو الذي لا يجهل العوامل التي حملت النعمان ملك الحيرة على اجتياح البلاد المتاخمة حدود الشام ، ولرب هذه العوامل صلة بقتل المنذر بن ماء السماء اللخمي في معركة عين اباغ التي انتصر فيها الغساسنة وحلفاؤهم الروم على ملك الحيرة .

وبينما كانت قوافل ابي سفيان تدخل الى بصرى في طريقها الى الحجاز اذا المنذر

يتأهب لدخول دمشق في موكب فخيم لا يماثله في روائه وبهائه غير موكب قيصر
وكان الملك المنذر يحجري على سنن القياصرة في البذخ والترف واحاطة مواصكه
بالفرسان والأمراء وهو على شجاعته وبسالته بر بذويه شديد الحذب على
افراد اسرته لا يطمئن الى عيشه الا اذا خالطهم واجتمع اليهم وانصت الى احاديثهم
وشاركهم سراءهم وضراءهم وكان احب ذويه اليه عمرو بن الحارث صاحب قصر
البريص في دمشق وجبله بن الايهم (١) صاحب قصر « الشعراء » في الغوطة .

لما تلقى المنذر كتاب قيصر جمع اليه الجيوش وعقد الوئها على ابناء عمه ولكنه
لم يشأ ان يغامر براحة جبله بن الايهم وعمرو بن الحارث بل آثر ان يخلد هذان
الشابان الى مراحمهما وقصفهما في مراتع دمشق ومسارح الغوطة ثم قدم دمشق في
موكبه الفخم فاجتاز اسواقها تحت ثلاثين قوساً من اقواس النصر ونزل في تلك
الليلة ضيفاً على ابن عمه عمرو في قصر البريص .

وكانت مأساة هيباس ورفاقه في ذلك الليل حديث الناس في انديتهم ويوتهم
ومجتمعاتهم .

وحكاية ذلك ان مياه النهر رمت بجثة هيباس الى الضفاف فابصرها بعض
القرويين الذين كانوا يزرعون في بساينهم فحملوها الى قصره حيث عرضت في
حجرته أمام بطارقة الروم وفرسانهم .

وكان اثر هذه المأساة شديداً في نفوس الروم ولكن قيصر الذي كان مسوقا
الى مصانعة المنذر الغساني لم يشأ ان يبحث في الاسباب التي ادت الى موت قائده
مخافة ان يستثير عاصفة الاستياء في صدر الملك المنذر الذي عرف بكرمه هيباس ،
وربما كان قيصر يرمي تبعة هذا الموت على المنذر او على رجال قصره ، ولكنه
آثر الصمت والتغاضي استبقاء لصلات الود وحرصاً على اواصر الزلفى في زمن
احدقت خطوبه بالروم ، ونزلت رزاياه بساحات ملكهم الضخم ، بل في زمن

(١) هو جبله الخامس جد جبله بن الايهم السادس آخر ملوك غسان .

الدعوة الى خلع الرق في بادية الشام .

وماذا يستطيع قيصر ان يفعل والفرس يتوغلون في صميم بلاده . وملك الحيرة مشرف على منافذ الشام ومداخلها . وقواده يختلفون على الغنائم في افريقية وفي غيرها من اجزاء العالم ؟

ماذا يستطيع قيصر ان يفعل وهؤلاء الذين احتوتهم الشام ، واشتملت عليهم حوران والبلقاء وبادية العرب يتبرمون بسلطان الرومان .

بل اي جداء يحنيه من التنكر للمنذر ، واراض الشام لانقره على هذا التنكر . ثم هو لا يزال يشعر بحاجته الى سيوف الغساسنة واصطنائها في محاربة الفرس وحلفائهم الحيريين .

كان قيصر يعلم كل ذلك فما وسعه الا ان يشيح بنظره عن العاصفة مخافة ان تجرفه رباحها العابثة .

* * *

لما نزل المنذر بقصر البريص لم يسأل عن البواعث التي ادت الى مصرع هيباس وكان في حاجة الى الترفيه عن نفسه من عناء السياحة بين بصرى والشام فاعتزل الضجيج في حجرته وفضل ان ينيء الى ظلالها ، وفي غضون ذلك كان عمرو بن الحارث عن كشب من الشرفة المطلة على جنة القصر بالقرب من الفتاتين مارية وهند . وقد طفق يتحدث الى الفتاتين عن مصرع هيباس وهو لا يدري كيف مات على لك الصورة البشعة ، فاخذت الفتاتان تنصتان اليه ، وهما في مثل حيرته وذهوله .

قالت مارية :

— اذن فانت ترى ان هيباس لم يمت غرقا ؟

— نعم ويخيل الي ان إهداه القوا بجثته الى النهر بعد ان قتلوا ثلاثة من رجاله

— الم يعثروا على قاتليه ؟

— كلا والغريب ان قيصر الذي تلقى نبأ مصرع هيباس وهو في حمص لم يهتم

بهذا الحادث ، بل تغاضى عنه وكان الناس يأملون ان تثور ثائرته لهذه النهاية البشعة التي صارت اليها حياة هذا الخليع .

— اتعلم السبب الذي حمل قاتليه على قتله ؟

— لقد طوى هذا الرجل في دمشق حياة كلها لذادة وحب وعبث فليس شك انه اراد العبث بكرامة وفاة طاهرة بريئة لم يطلق ذووها سكوتا حيال عبثه فراحوا ينتقمون منه ، الا تعلين ياماريه اي بغض يحسه الناس حيال هيباس واي نفرة تخالط نفوسهم منه ؟

لقد كنت واثماً من هذه النهاية البشعة لأن البغي وخيم العاقبة ، قال عمرو ذلك وهو يوارى عينه بكفه كأنما قد عرض له مشهد لا يحبه فسألته ماريه قائلة :
— ماذا ؟ اني نفسك شجن تخفيه ؟

— لقد رأيت هيباس في حجرته وهو مسجى على فراشه ، فوقعت عيناى على مشهد فجييع غرس في نفسي كثيراً من الوجل والرعب فلقد شهدت خلقة هيباس المشوذة وعيذه المطفأتين وسحته المنكمشة المنقبضة ، فرحت اسأل نفسي : اكان التشويه من عمل الانسان ام من عمل الديان ؟ « وفي الحقيقة ان امواج النهر الجائشة هي التي تركت آثار هذا المسخ في ذلك الوجه الجميل الذي كان موضع غر صاحبها فابتسمت هند ابتسامة خالطها بعض الحزن وقالت :

— ألم اقل لك ان في السماء ربا عادلا ، وان القصاص مهما تباطأ فانه يسرع في ركضه في الساعات الأخيرة ، فلو لم يكن هيباس ظالماً وعاتياً لما مات هذه الميتة البائسة ، بل لولا اسرافه في الظلم والبغي لكان خليقاً بميتة مجيدة فخمة ، لقد انتقم الله لي ، ولكنه ابى ان تصبغ يدك الرحيمة بنجيعة ، فسلط عليه اناسا لا يغتفرون اساءة مذنب ملحف في اجتراح الذنوب وكفاني الله بموته شر فتنة عمياء بين قومي قد تذهب بالصالح والطالح ..

فقال ماريه :

— كنت خائفة من هيباس فان هذا الطاغية النذل مضى يفكر في ثلم كرامتي ، وامتحان عفا في ، ولقد شهدته اكثر من مرتين يروح ويغدو حول جنة القصر في كل العشيات التي كنت اطمئن فيها الى سراح النفس ومتعها فكنت اعود الى حجرتي جازعة مرورة ، فيسألني عمرو في بعض الاحايين عن بواعث الألم الحفي الذي يقرض نفسي ، ويقوض صروح هنائها ومراحها ، فكنت اتحاشى ان اثير غمائه وشجونته حتى لا يغامر براحته ورغد عيشه ، وحتى لا يعرض نفسه لأسواء لا اريدها له .

ولبت هيباس زمناً وهو يروح ويغدو حول القصر كأنما هو يريد ان يهتبل الفرص السوانح لاختطافي ، وفي بعض الاحايين كنت اخاو الى نفسي فاستمع الى خفق قلبي ونشيجه وانا ابدأ مروعة جازعة فكان عمرو يسألني « لماذا انت ذاهلة ؟ بل لماذا انت في هذا الفرق الذي يعريك من احساسك وشعورك ويمنعك ان تفكري في الهناء والراحة ؟

لقد استطعت ان أخنق في نفسي تياراتها العاصفة الى ذلك المساء الذي هاجمك هيباس تحت سدوته ، ثم ابى الله الا ان ينتقم لي ولك معاً في امد واحد فبهت عمرو والتفت الى ماريه قائلاً :

— اكان هيباس ينزع الى اختطافك ؟

— نعم نعم

— اذن فذلك الشجن البليغ الذي غطى آفاق الحياة امام عينيك منبعث عن

هيباس ؟ لماذا كتمت عني هذه الحقيقة ؟ اكنت لا تثقين بقوتي وحماتي لك ؟

— ما كنت أشك في قدرتك على حمايتي ، ولكنني كنت ضئيلة براحتك وراحة

هؤلاء المغاوير من فرسان غسان ، وكنت عالمة بهذا الجفاء الذي يباعد بين الملك المنذر وقيصر ، فلم اشأ ان يمتد عهده والآن وقد انتقم الله من الطاغية فلا بأس من نسيان مآسي الماضي وتباريحه ، واحمد الله على ان الجفاء قد زال بين الملك المنذر

وقبصر . بل احمد الله على انقراض اسباب الجفاء وكان هيباس بعض هذه الاسباب
قالت ماريه ذلك وقد اشتد شجنها وانفعالها وتملكتها هزة كادت تقوض صروح
عافيتها فاخذت تسعل سعالاً ممضاً مذبذباً فاحتبسها عمرو بين ذراعيه وهو جازع وقال لها
— انك لاتزالين عليلة كما كنت قبل ايام ، ويلوح لي ان رطوبة الصباح قد
اثرت في صدرك كثيراً حتى اصبحت لاتستطيعين البقاء طويلاً امام هذه الشرفة فخير
لك اذن ان تدخل حجرتك

— ولكني احب الازهار ، واحب الاطيار

— ومرضك هذا ؟ الاتخشين ان يفضي بك طول وقوفك حيال النافذة تحت
الهواء الصارد الى خطر حقيق ؟ اي هند ساعدني على اقناعها بالرجوع الى غرفتها ، فما
ترددت هند وهي الفتاة الرقيقة الحاذبة التي وجدت في غسان ذلك الملمجأ الوداع
القرير في تلطيف كرب ماريه وتخفيف شجنها وحملها على ترك النافذة ولما
عادت ماريه الى حجرتها بين ذراعي عمرو وهند ، كان الهواء الرطب قد ترك اثره
في صدرها فجعلت تسعل سعالاً كاد يقطع حشاشتها فكادت اكثر من مرة تقع على
حضيض الحجرة لاتصطحب وعيا

لله هذا الذي في نفس عمرو ، فلقد كان ينظر اليها شاجناً والهاً ، دامع العينين ،
وكان يحدثها في كثير من الرفق والدعة حتى يرد الى نفسها مراحها ورغدها ، وحتى
لاترى في افق الحياة تجهما وعبوساً

ولم تعد للحياة في نظر عمرو تلك المظاهر الخالبة الفاتنة وكيف تكون للحياة
مظاهر خالبة فاتنة ومارية مدنفه عليلة ! اليس الحب عالماً يمور بالانسة والفرحة !
الا يعيش المحبون في هذا العالم عيشاً لا يخالطه تبيع وألم ، واذا اعتل عالم الحب
ودب اليه الوهن ، افلا يعتل هؤلاء الذين يعيشون فيه مرحين وادعين !

يا الله ! لقد كانت بضعة ايام من اسي بليغ كافية لامراع الحب بالصور البشعة
والرسوم الكامدة التي تتضاءل فيها الوان الحياة ومفارجها

وتلك الفراشة الجميلة ذات الالوان الزاهية المتوردة ، لم تعد لها قدرة على الطوائف
حول لألاء الحياة لأنها أصبحت تخاف الاحتراق كلما أرادت استشرافاً بذلك اللألاء .
ومن قبل كانت هذه الفراشة الملونة تنهد من وكرها في الصباح الباكر لتحوم
حول أنواره ونواره في النياض والمنايات بين زهر ندى اختلعت ألوانه وتماصرت
هنا وتطاوت هنالك أفانه

ومن قبل كانت هذه الفراشة مرح الحديقة وانسها ونعيمها وكانت لا تعاف
ان تفتح صدرها للهواء النقي يروح ويسري ! ولا تمل ان يلعب شعرها المرسل
نسيم معطر عابق الجنبات

ازدحمت هذه الخواطر المتوثة في صدر عمرو فراح يهمس في نفسه :
— ليس في هذه الصورة التي استعرضتها روح الصحة ولا نضارة الشباب
اواه ! لقد اطفأ الضنى نور عينيها ، ولكنه تخاذل عن اطفاء احساسها ! لك
الله ايتها الحبيبة التي وارىت في غسق احزانها واشجانها شمس سعادتي !

وانثنى عمرو اليها وهو يتعمل الابتسام وقال لها :

— انك ستكونين اوفر هناء في القسطنطينية يا ماريه !

فالتمع وجهها واشرق وهزتها كلمات عمرو فقالت له :

— اذن فسنترك دمشق ؟

— نعم نعم سنتركها وسنعيش طويلاً على تلك الضفاف الساحرة التي انبتق

فجرها في اقمها الممجي ، اتحين القسطنطينية كثيراً يا ماريه

— احبها احبها

— هدي روعك فسيكون طوافنا بها قريباً ؟

— وهند ؟

— انها لن تفارتما ؟

فاشرقت اساريرها ، وتفتح في جبينها الناصل ذلك الزهر الذي كان علامة

الحياة في نفسها واحمى ذلك السعال الذي هدها فما عاد صدرها يرتفع ويهبط
تحت وقره الأشد ثم التفّت الى هند التي اشجاها هذا المشهد الحافز وقالت لها :

— الا يغبطك ان تعيشي بيننا في القسطنطينية ؟

— لن افارقك وساكون لك اختاً بارة ورحيمة !...

— ثقي ان قيصر لا يرضن عليك بدروع ابيك

— وانت ثقي بحبي وعطفي وشفقتي، اواه ! كلما خلوت الى نفسي وسألتها عن رغباتها

وطمحاتها خيل الى ان بين هذه الرغبات ما يدفعني الى البقاء بجانبك لأن المي يماثل

الملك ولأن خلقتي تشابه خلقتك ولأن بعض هذه الرغبات يدفعني الى اتمام واجبين

خطيرين للاول صلة بتلك الدروع التي استبقاها السموكل بن عادياء لديه

وللثاني صلة بحبي الى تلك الجبال المقرورة التي مات فيها امرؤ القيس نائيا عن

الاحبة والاهل !

فقال عمرو

— سذهب معا الى تلك الجبال التي لفظ امرؤ القيس روحه بين

هضباتها الشواخ

فصاحت هند

— قل لي ناشدتك الله اتعرف قبر ابي ؟

— كلا ولكنني علمت حينما كنت في القسطنطينية ان اباك مات في انقرة

من بلدان الروم فشجى يوستنايوس قيصر لهذا الموت كثيرا لانه كان يحب امرأ

القيس ويعجب بفروسيته وشعره ، حتى بلغ من شجوه قيصر وانفعاله ان دعا اليه

النحات روزاس فامر به بصنع تمثال للشاعر !

— ولكن هنالك احاديث كثيرة حول موت ابي فان بعض العرب

الذين صحبوه الى القسطنطينية راحوا بعد عودتهم ينشرون في القبائل اخباراً مروعة

عن موته ، فهم يؤكدون ان ابي لم يكذب يستقر في القسطنطينية حتى لحق به

رجل من بني اسد يقال له الطاح كان امرؤ القيس قد قتل اخا له من بني اسد فاقام الطاح في القسطنطينية مستخفيا حتى تسنى له ان يصل الى قيصر فقال له ان امرأ القيس غوي عاهر ، وكان يرسل ابنتك ويواصلها وهو قاتل في ذلك اشعاراً يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك فبعث قيصر الى امري القيس بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له اني ارسلت لك بحلتي التي كنت لبسها تكرمه لك فاذا وصلت اليك فالبسها باليمن والبركة واكتب الي ، فلما وصلت اليه لبسها واشتد سروره بها فاسرع فيه السم وسقط جلده (١) فهل صحيح هذا الذي يقوله الناس حول موت ابي ؟

فاطرق عمرو وجعلت ماريه تنظر تارة الى وجه هند الممتقع وتارة الى وجه عمرو المتأمل ثم رفع عمرو رأسه واردف:

— لقد مات يوستانيوس صاحب امري القيس وصديق الحارث بن جبلة فمات ومعه سر هذا الموت

— الا استطيع ان اجتمع في القسطنطينية الى تلك الاسرة التي كان امرؤ القيس يعيش بينها ؟

— في قدرتك ان تجتمعي الى هذه الاسرة فتسألها كيف كانت صلة امري القيس بقيصر فاني اعرف عجوزاً شماء تدعى ليلى كانت مصطحبة الحارث بن جبلة الى القسطنطينية ومعه امرؤ القيس يومئذ : فهذه العجوز التي كان الشاعر يتردد اليها في كثير من الاحايين تعرف عن حياته اشياء كثيرة واعتقد ان في قدرتها ان تكشف لك عن سر موته

فصاحت ماريه مشدوهة

— ماذا تقول ؟ اتعرف ليلى الساحرة ؟

— لقد كان يجب علي ان افطن الى هذه الاحزان التي كانت تساوركم منذ

— نعم فماذا الذي يذهلك في هذا الامر فهل كنت تعرفينها انت ؟
— اواه ! انها المرأة الوحيدة التي عرفتني في هذا العالم وقد كنت اراها من حين الى اخر عند قيصر

— اهذا كل ماتعلينه عنها ؟

فاطرت ماريه ولم تنبس

— تكلمي !

— اي غم لك في حديثي عن هذه الشمطاء التي تعرف الشيء الكثير من امرياتي ثم ترض علي بعض الحقيقة التي تعلمها ، وددت كثيراً لو اني استميلها الى حزني والتياعي لعلها ترق وتلين فلا تغرق في اخفاء ماتعلم ، ولكنها كانت كالليل في سكونه وصمته ، وكاللجة في ضوولة اسرارها !

— اكنت واثقة من انها تعرف شيئاً عنك ؟

— نعم فقد كانت ليلى الشمطاء امرأة خفايا واسراروكان يوستانيوس يحترمها ويبالغ في اثارها ويرجع اليها في بعض ماله صلة بحياته الخاصة . وبعض ماله صلة بعرشه !

ولما مات يوستانيوس وخلفه يوستينوس لم تفقد ليلى شيئاً من ذلك العطف الذي كانت تلاقيه في القصر لان قيصر الذي يحب الحياة كثيراً ويعبدها كثيراً كان يتحدث اليها في شؤون القلب والعاطفة فتالت هند

— الاتزال هذه العجوز صليبة قوية كما تعهدين ؟

— هي ابهى شباباً من الشمس واوى من الابد كأن الشيخوخة الذاهبة لم تمس تلك البقايا المقدسة الدالة على الشباب والقوة والعافية . . انها تتكلم ولصوتها غدوية الماء وتجد الكلام بلغة الروم حتى ليخيل الى سامعها انها رومية الاصل ، وان كان الناس يذهبون الى انها من صميم بلاد العرب فتهدت هند كأنها هي وجدت عزاء في هذا الذي تقوله مارية واثنت قائلة

— سأراها وسأجهد كثيرا في الوصول الى اعماق نفسها لي وسأسألها ايضا عن امريء القيس وعن ايامه الاخيرة في القسطنطينية . آه . . قولي لي اعرف هذه الساحرة خلق كثير ؟

فقال ماريه ..

— انها متصلة بجميع البيوت الشريفة في عاصمة قيصر ويسمونها الذين يختلفون الى زيارتها بائعة الحب لانها تهب الحب اولئك الذين عسر عليهم ان يجدوه في بيوتهم ومنازلهم فلم يروا ندحة عن الركون اليها
اما انا فلست في حاجة الى حب ولكني اريد ان اتحدث اليها في شؤون ما برحت مثارا لحماستي

وقطعت هند حديثها فجأة واخذت تنظر الى ناحية الباب كأنها سمعت همسا ثم لم يعد ذاك الذي سمعته همسا بل اصبح صوتا عاصفا ولكنه صوت حلو النغمة عذب المذاق ، وخرق هذا الصوت سمع عمرو فالتفت الى ناحية الباب صائحا
— لقد استيقظ الملك

— ابن عمك ؟

— نعم ، فلقد وصل الملك امس الى دمشق مكدودا ناصبا فما وسعه الا ان يستريح ، وهم عمرو بالخروج من الحجرة ولكنه تراجع امام المنذر الذي دخل الحجرة في تلك الفينة فهضت ماريه احتراما للملك وجارتها هند في نهوضها وتقدمت الفتاتان من المنذر مطرقتين خاشعتين !

كان المنذر بن الحارث بن جبلة ملك غسان وسيدها في الثلاثين من عمره يروع الناظر اليه رأس بديع فوق نحر ابيض محبوب ووجه مستدير تزينه ملاحظة ناعمة ، وانف اقنى ، وفم رائع الابتسامة ، ساحرها واجمل ما في وجه المنذر عيان ساجيتان صافيتان سوداوان تنضجان عذوبة ورحمة وحبلا بل اجمل ما في هذه الصورة البديعة تلك الضفائر التي راحت تهطل على منكبيه

وكان لباسه الانيق الموثى ينم عن حياة رافهة راغدة ونعيم لا يخالطه بؤس وملك
ضخم عزيز ، وصلف بزينه ادب النفس وتواضعها وحلمها
وكان يجري في بذخه على سنن الروم ويساقونهم في الاستعلاء والفخر حتى
راح الذين عرفوه ينعونه بقيصر الشام

لما وقعت عينا المنذر على هند ضحك لها وقال

— ماذا أنت هنا منذ زمن طويل ؟

خفت رأسها مستحيية وقالت

— لقد تركت بصرى منذ اجتمعت اليك في القصر الايض

— اذكر ذلك جيداً ، واذكر انك كنت تتحسبن في حكايتك التي جئت

تقصيها علي وانا في بصرى وكنت تتكلمين على امري القيس بمثل تلك اللهمجة

العالية الفخمة التي تكلم بها امرؤ القيس على ابيه حجر يوم نهض مطالبا بدمه ،

وددت كثيراً لو اني استطيع ان ارد اليك دروع ابيك ولكن قيصر استبقاها

لديه على انني موقن بان قيصر لا يأبأها عليك . فاني سأحدث اليه في امرها حتى

ترد الى اسرة امري القيس الذي احبه الحارث بن جبلة

ثم التفت الى ماريه وقال لها

— لا توالين منذ تركت القسطنطينية مكفهرة السجنة . كأن عيشك المفضل

الأملس في هذا القصر لا يروقك

— مولاي ...

— يخيل الي انك مدنفه عليلة فهل يزجرك جو دمشق الى هذا الحد ؟ لا بأس

ان ترافقي عمراً في رحلته العائدة الى القسطنطينية فلعل جوها البديع يرد اليك

مرحك ونشاطك

ثم شخص الى عمرو قائلاً

— اي عمرو الوديع . لقد الهتك ماريه عن الاحبة والصحب والاهل حتى
نسيت المنذر ، فحنت ماريه رأسها وهي اشد ماتكون خجلا وتابع المنذر حديثه قائلا
— قل لي الا يزال جبلة ابن عمنا في غوطة دمشق
فقال عمرو :

— لم اره منذ عودتي الأخيرة من القسطنطينية ويخيل الي انه لا يحب فراق هذه
المغاني الوادعة التي يفضلها على غيرها من مغاني الشام
— ان الحياة في قصر « الشعراء » جميلة مائعة لاسيما اذا كانت زاخرة بشعر حسان
قل لي الا يزال هذا الشاعر الفتي في دمشق ؟
— لقد برحها منذ ليلتين
— لعله قد شخص الى قصر الشعراء في داريا ؟
— لا أدري

— ابرح حسان دمشق ولا يقصد الى قصر الشعراء ، ؟ اكدلا اصدق هذا الذي
تقصه عبي ، فلعل الشاعر مل صحبتنا فكره المغاني التي اترع شعره بصورها
— قضى حسان ليلة واحدة في قصر البريض مع ابي سفيان بن حرب والشاعر
امية بن ابي الصلت فما طلع الصبح حتى فارق الثلاثة القصر
— كانت ليلتك اذن خصبة بالشعر جياشة بالغناء اللذيذ . ليت شعري كيف لا
تكون ليلتك خصبة بالشعر والغناء ولديك شاعران نابهان
ومضى المنذر يضحك ضحكة رنانة مجلجلة فحنى عمرو رأسه واستغرق في تأملاته
— يخيل الي ان ليلتك كانت مليئة بالشجون فاني اقرأ هذه الشجون في عينيك
الذابلتين الحائرتين : لماذا لا تجيب ؟

فسكت عمرو وانتفضت ماريه من الذعر وخيل الى هند ان الارض تمور
وجعل المنذر يحدق الى سحنة عمرو تحديقا طويلا ، ثم راح ينظر الى ماريه تارة
والى هند تارة اخرى

— لقد كان يجب علي ان افطن الى هذه الاحزان التي كانت تساوركم منذ هنيهة حينما دخلت الحجرة ، حقا لقد كنت مشدوها حينما وقع بصري على جوى ماريه. واحزان هند ، وقلق عمرو ! فاذا حدث ؟ ناشدتك الله يا ابن عمي ان تحسر عن هذا الشجن الاليم الذي يقرض نفسك
فرفع عمرو عينيه الى المنذر وقال :

— صدقت فالقد كانت تلك الليلة عاطلة من صفاء الشعر وبهجة وروائه : خلية من تاج الذاكرة وحصادها ، وكانت كذلك بمرعة بالصور القائمة وكان الشاعر ان قيثارة محطمة لا تخرج صوتا ، ولا تبعث نغما . . .

— هل حدث حادث حطم قيثارة الشاعرين ؟

— نعم ، ولكنه حادث بشع كنت احب ان يظل ذكره حبيسا في اعماق نفسي
— قل لي اني ارض غسان ، وفي ايام المنذر بن الحارث يقع حادث مكدر لشاعرين كريمين ثم يسكت عنه ؟

وكان المنذر في حقه كاللجة الثائرة فجعلت ماريه تنظر اليه وجلة خائفة : وهند في مثل موقفها المضطرب فتابع المنذر حديثه قائلا
— اي عمرو احترس ان تحجب عني الحقيقة

ورأى عمرو ان لا تدحه له عن كشف الغامض فقص على المنذر حكاية الاعتداء على هند وهي في طريقها الى قصر البريص وذكر تفاصيل ذلك العمل النيل الذي قام به الفرسان الثلاثة حيال هذه الفتاة الضعيفة التي تناست مرح الحياة ورغدها في سبيل دروع امري القيس ثم وصف ذلك الشجن البليغ الذي قوض نفسها واورثها اليأس والقهر ولم يذكر اسم المعتدي فاثرت القصة في نفس المنذر وجعلته ينتفض فصاح

— واخجلناه !... ماذا يقول النعمان بن المنذر غدا اذا خرق سمعه هذا النبأ الخافز ؟
افلا يضحك شامتا ساخرأ ! الا يطعن علي كرامة غسان وهو الرجل الذي لا ينفك

يطعن كرامتها . بل اي ميراث مخجل نتركه لغسان التي اهضت في شرفها وكبريائها
سيقول النعمان غداً للذين يلتفون به من عيون العرب وعيون الفرس : لقد كان
جاري امنع من جار المنذر . على انني لست الومه انـ لـج في عتبه وتقريره فان
جار غسان في هذه المرة عاد خائباً يائساً لان غسان لم تدفع عنه ضيماً نزل به
واخجلناه من النعمان : ذلك العدو الالذ الذي عرف كيف يقي ارض الحيرة
من العار . قل لي من يكون ذلك المعتدي ؟ بل قل لي لماذا قعدت عن استنفار قومك
وهم احرياء بان ينصفوك ؟

— ولكن المعتدي لقي حتفه

— امات المعتدي حقاً ؟ لعلك قد قتلتته ؟

— لم اقله ولكن الله قتله ؟

— من الرجل ؟

— هيباس

— هيباس . هيباس : لقد كان الرجل الوحيد الذي لا يعرف حداً للطامع الحاملة
الوضيعة وكنت اعرفه سفاهاً ومغامراً وعاهراً فاما وقد لقي جزاءه فهل تعرف قاتله
— كلا

فسكت المنذر سكوتاً طويلاً مهيباً ثم مضى الى ناحية هند وتناول يديها الراعشتين
وقال لها :

— يا بني الله ايها الفتاة الا ان يرعى الفضيلة بعينه الساهرتين واني لجد مطمئن
الى حياتك مادمت في كف غسان . فحنت رأسها وغامت عيناها بدمع ولكنها لم
تتكلم فكان صمتها صورة لتلك العاطفة الحلوة النيلة التي شعرت بها حيال المنذر
وحيال اسرته ثم رفعت عينيها الى الملك الشاب وقالت له :

— ابيت اللعن ايها الملك ! ليس للنعمان بن المنذر ملك الحيرة ان يساويك في
الشرف او يجاريك في حماية الجار بعد هذا الذي لقيته في مراتع غسان من كرم

وشتم وحماية باقية اطمانت نفسي في ظلها الظليل الى عيش لا يعلق بنواحيه غيم ما طار
— ستعيشين بيننا وادعة راغدة حتى ترد اليك دروع اريك. ثم التفت الى عمرو
وقال له :

— ابعت برجل من رجالك الى جبلة فلعل ابن عمك لا يبطي في مجيئه الى دمشق
ثم رفع صوته قائلاً : سأذهب في هذا المساء الى تدمر لألتحق بجيوش غسان
التي بدأت تزحف الى جيوش النعمان وفي هذه المرة لن أقفل الى دمشق قبل ختام
المعركة التي اسأل الله ان لا يمنع غسان قطف رياحينها الباسمة . ثم ارتد الى مارية
وقال لها :

اي ماريه ستحسين فرحا ونشاطا حينما تعرض لك جنات القسطنطينية الخضلة
وافياؤها المرسله...

— متى نذهب الى القسطنطينية ؟

— بعد ختام المعركة

فضمت ماريه يديها الى صدرها ورفعت عينيها الى الافق ، فاذا هما تشعان
بريقا واذا هي تصلي صلاة خافتة شجية ارادت فيها النصر لجيوش المندرينما
راحت هند تصلي صلاة ليس لها معنى صلاة مارية ثم جعلت تهمس في نفسها قائلة:
« اللهم اصلح بين قومي ، فخرق همسها الضيف سمع المندر فقال لها :

— لقد اثرت صلاتك القصيرة في نفسي فعسى ان يبلغ ترجيعها السماء فلا
تراق دماء العرب في الصحراء العارية المجدة

في اصيل اليوم التالي سار موكب المندر الغساني في طريق تدمر تلتف به عصابة
كريمة من فتيان غسان فخرجت دمشق كلها الى وداع الملك تنثر على اقدامه اهبى
ازهار الغرطة واجملها ، وكان رسول عمرو بن الحارث الى جبلة بن الايهم في غضون
ذلك يخترق بجواده تلك الارض الظليلة المؤدية الى داريا

الفصل الخامس عشر

جبله بن الایهم

اطفلت الشمس في تلك الجنة الحادرة التي افتن بها شعراء العرب في الجاهلية حتى راوا يسمون ظلالها الوارفة عالم الجن والسحرة وحتى ابتكرت مخيلاتهم صورة بارعة لم تعرض لاذهانهم في صحرائهم المشبوبة

وليس يخطيء من يقول « الشعر والسحر يجتمعان في غوطة دمشق ، ويلتقيان على ضفاف انهارها » وحواف سواقيها . بل ليس يخطيء هؤلاء الذين حسبوها جنة الاحياء قبل ان تتحدث الديانات عن جنة الاموات

زارها من شعراء العرب في الجاهلية امرؤ القيس بن حجر سيد كندة وكان معه الحارث بن جبله الغساني فنزل منها بناحية سكاء الجميلة حيث قصور آل جفنة وكرماتهم وافتن بها وسحره ماؤها وعشبها وزهرها ؛ واحتوى شعره على افق جديد ما كان له به سابق عهد ثم زارها النابغة الذبياني فنزل بداريا واستهواه زخرف الطبيعة فيها واحب الانزواء تحت افيائها ولم يعد في قدرته ان يترك مغانيها الحافلة بملاذ الحياة وصورها المنمقة البديعة بعد ان وجد في الطبيعة المرححة الضاحكة خصباً مقدساً لم يحده لافي العراق ولا في الجزيرة وكان النابغة يفد سنة على المناذرة في العراق وسنة على الفساسنة في الشام فاصبح لا يستمرى غير افناء حياته كلها في عقب الازهار ووسوسة الانهار

وزارها حسان بن ثابت فاتسق لشعره في ضواحيها ذلك الجمال الذي لم يتسق لشعر غيره من شعراء الجاهلية فلست تقرأ بيتا لحسان الا استهوئك عذوبة مقتبسة من عذوبة ذلك الماء الذي يجري متطامنا في سهول الغوطة وجناتها والا اشجتك تلك الصور الفاتنة التي لا يقع بصرك عليها في الشعر الجاهلي

بل لقد يستهريك في شعر حسان ذلك النغم اللاذ الذي هو بعض ضحك الطبيعة
ومرحها وتوثبها !

تعيش الطبيعة في شعر حسان في شباب متجدد ، وتجد في هذا الشعر الصافي جميع
عناصرها المستبشرة الوادعة ، فالحب وإياليه الصائفة القمراء ، والقبل المطبوعة على
الشفاء الحمراء ، واعياد الفصح الحالية بالمفارج والمغابط ، والطواف بالمقاصير
والجنات والأصغاء الى الأنشاد الساجي المظمئن : ثم مشهد الغروب الساجي .
جميع هذه العناصر التي تشتمل الطبيعة عليها لا تبرح الوانا زاهية متوردة يصبغ
حسان بها شعره وشعوره .

أطلقت الشمس في تلك المراتع الهائلة ، فاذا اشعتها تذوب وتفتى في خضرة
الحقول ، واذا انوارها المتوارية تطبع آخر قبلات الوداع على جبين الورد والبنفسج
والنفاح والادواح الرخية الظل كأن الشمس سكرى تعب ملولة من طوافها في
النهار فوق جبال دمشق فجاءت تستريح في احضان الطفل قبل ان يحتبسها المساء
بين ذراعيه .

وكانت خطوط اشعتها الملونة منتشرة على صفحات الأفق كأنها آثار حريق
مشبوب في حقل من حقول الحنطة .

اي شاعر يراك ايها الشمس وانت تودعين المروج والغابات والأنهار والجبال
والقصور والمعابد والظلال الرخية الساجية ولا يفتن باحتضارك المجيد بين وردة
مفتحة وبنفسجة متأرجة ، ونسرينة ضاحكة . بل اي شاعر يمر بك وانت تتخلين عن
ملكك لأسداف الليل المعتمة ولا يهزه سبحك اللذيد .

في تلك الأثناء كان الفرسان الثلاثة الذين تركناهم يسرون في طليعة
القوافل يجتازون اراضي الغوطة ويقفون على ابواب داريا وكان حسان بن ثابت
الشاعر يعتزل القوافل مودعا رفيقيه اللذين كانا يلحان عليه في العودة معهما الى
الحجاز وقد اخذ ابو سفيان يحاول ان يمضي به عن فكرته فابى وقال له :

— ماذا ، اتريد الى ان اهجّر دمشق ولا ارى جبلة ؟ ناشدتك الله ايها السيد ان تتركني هنا فاني اخشى ان يعلم جبلة بمروري فيحفظه صدوفي عن مغناه ، وانا بعد معترف بحميلة وفضله علي ، وداعا ايها الرفيقان بل الى لقاء قريب في مغاني الحجاز .
وبينما كانت القوافل تجتاز نواحي الغوطة في طريقها الى بصرى اخترق حسان ابن ثابت داريا متجها الى ناحية « قصر الشعراء » فتنة هذه الضاحية ومعجزتها الباقية وكان وهو في طريقه الى القصر ينشد ويغني وقد فاضت روحه بجمال المشاهد الريفية البديعة ، ثم ترسل في سيره متأملا في تلك الحتول الفيحاء التي عرضت له تحت الأفق ، واخذ يردد الفينة بعد الفينة . هذه الكلمات التي تتم عن شجونه

— اي اغاني العذاب ، انك ستجدين غذاءك على موائد الملوك الصيد ، وسترين في وجه جبلة الصييح اروع اوزانك والحنك . . من ذا الذي يراك ايها الجنات الخالصة وينسى هذا الالهام الحني الذي يحرك ازهارك ورياحينك ويترعك بالالوان الجميلة المستحبة ، بل اي نفس تبصر غروب شمسك ايها الجنات ولا يغمرها هذا السحر الذي يبعثه اثلاق مغانيك وربواتك .

لقد كنت ايها المراتع الهائلة عبي الدائم العطر وكنت نغما لقصائدي .
احتجبت الشمس ، فترجل حسان عن جواده ومشى به الى ربوة زاهية يغشاها النوار ويزينها الريحان ، فجلس اليها محذقا الى القصر القائم على ذرى هضبة محاذية ، ثم اخذ يتأمل كأنه يصلي ، وكأن الطبيعة وحدها محرابه ومصلاه ، ولم يستفك من هذه الغشية اللذيذة الا على صوت غناء شجي ترسله الغابة الملتفة بالقصر الى اذنيه فانصت الى الغناء كأنما قد استهواه جرسه العذب ثم تنهد قائلا :

— افاء الله عليك نعمه السوانع يا قصر جبلة فلقد رددت الى نفسي الحائرة بعض العزاء ، فان اشادك في هذا المساء قد فتح امامي عالما جديداً يمور باللذة والفرحة وكان القصر مضيئاً في كل ناحية من نواحيه ، فترك حسان الراية وتدفق اليه حتى وقف على بابه واخذ ينصت الى الغناء ، فخرقت سمعه اصوات ناعمة فلم يشك

في انهما اصوات فتيات حسان اشتمل عليهن القصر في هذا المساء فطفرت نفسه الى دخول القصر ، واحتبس منطقه ، وراح احساسه بتحقيق للحسان وهو بعد لم يبصرهن ثم مضى يتمثل بمجلس جبلة بن الايهم يذنب ، فخليل اليه انه حافل بالجمال والحب ورغد العيش ولكن شيئاً واحداً ظل ينقص هذا المجلس وذلك هو شعره .
لقد راح حسان هامساً :

— ساغرق نفسي في غمار هذه الأصوات الشجية فلعلها تغيب في سحرها .
ثم ترك جواده في الغابة الصغيرة واقبل يصعد القصر سائراً بين اعمدة ضخمة من المرمر والبرفير .

ومضت فترة من الزمن ظل خلالها يذكر هذا النعم المقيم وهو يتنقل بين الأعمدة كطائر اقلت من قفصه ولكنه بقي حائراً لا يدري معاذاً يعوذ به ويرتاح اليه وكلما اراد ان يمنع قلبه الحفوق اشجاء لذيد النغم وهزته الأعراف الذكية . فاصبح لاغناء له عن التوغل في اعماق القصر حتى يصل الى ذلك المكان الذي يصدر الغناء عن نواحيه ، ويألفها من مباغته لذيدة يحملها الى جبلة امير قصر الشعراء في هذا المساء الساجي وهو في مجلس حافل بنزوات العيش ومجاناته ، بل يألفها من مباغته تحمل الى هذا المجلس الضاحك المستبشر نوعاً جديداً من الطرب والمرح لا يجده جبلة في غير شعر حسان وقريضه .

ومرت بخاطره ذكريات قديمة : ذكريات مقدسة وقورة حملته في حاضره الى سنوات بعيدة ماضية ، كان يتردد فيها الى جبلة في داريا وفي ضاحية بلاس ، وكان على عرش غسان في ذلك العهد الملك الحارث بن جبلة فملأت هذه الذكريات خواطره فاستعرض خروجه من يثرب حتى قدم على الحارث وقد هياً له مديحاً فقال له حاجبه ان الملك قد سر بقدومك عليه وهو لا يدعك حتى تذكر جبلة فاياك ان تقع فيه فانه انما يختبرك وان راك قد وقعت فيه زهد فيك وان راك تذكر محاسنه ثقل عليه فلا تقدي . بذكره وان سألك عنه

فلا تطنب في الثناء عليه . بل امسح ذكره مسحاً وجاوزه الى غيره فان صاحبك
جبله اشد اغضاء من هذا واقل حفلا به . وذلك ان صاحبك اعقل من هذا وابين
وليس لهذا بيان فاذا دخلت عليه فسوف يدعوك الى الطعام وهو رجل يثقل عليه
ان يؤكل طعامه ولا يبالي الدرهم والدينار . ويثقل عليه ان يشرب شرابه فاذا وضع
طعامه فأصب منه بعض الأصابع فشكر حسان يومئذ للحاجب . ثم دخل على الحارث
فسأله عن البلاد وعن الناس وعن عيشه بالحجاز حتى انتهى الى ذكر جبله فقال :
كيف تجد جبله فقد انقطعت اليه وتركنا فقال حسان : انما جبله منك وانت منه .
ولم يجر الى مدح ولا عيب وجاز ذلك الى غيره . ثم قال الحارث الى بالغذاء
ووضع الطعام ودعا الحارث اصحاب برابط من الروم فاجلسهم . وشرب القوم ، وقام
الساقى على رأس حسان فقال اشرب فأبى الشاعر حتي قال الحارث له اشرب
فشرب . فلما اخذه الشراب انشده شعراً فأعجبه فقال حسان للحارث ان رأى الملك
ان يأذن لي بالانصراف الى اهلي فعل ، قال الحارث قد اذنت لك وامرت لك
بخمسمائة دينار فاخذها حسان وخرج الى اهله (١)

مرت هذه الذكرى الماضية بخاطر الشاعر فاصطبغ بحياه بأرجوان وغامت
عيناه بدمع فراح متكئاً على العمدة القائمة وهو اشد ما يكون شجناً وانفعلاً .

ثم تقدم من باب الحجرة والغناء ينبعث من اعماقها فأخذ يهمس :

— لا ادري كيف يستقبلني جبله في هذا المساء !

وحاول ان يخفق الباب فتردد ، واخذ يجمع خواطره المبعثرة فما استطاع لها
جمعاً فقال :

« ترى اين هو جبله ؟ انه بين الخليلات والحبيبات ولا ريب »

ثم تشجع وتشجع كثيراً وراح الى المصاييح التي تنير الأروقة فأطفأها ، وكان
ذلك علامة على قدوم ضيف الى قصر الشعراء ، ثم وقف ينتظر وينصت حتى انقطع

غناء المغنين وسكنت رنات العازفين ثم فتح الباب من الداخل على مصراعيه فاذا
بمجلس جبلة ينحسر امام عينيه فوقف الشاعر على عتبة الباب وقد تلمكه الحياء فما عاد
يتقدم خطوة ولكنه ظل يطيل النظر الى مجلس جبلة صامتاً كالتمثال !

وكان جبلة جالساً على عرش من الذهب وقد جلس الى يمينه رجل له صغيرتان
وعن يساره رجل آخر . فلما فتح الباب واطل حسان نهض جبلة عن عرشه صائحاً
« من الضيف ؟

فسكت حسان ولم ينبس فكرر جبلة صياحه .

— من الضيف ؟

قهل وجه حسان واقبل الى ناحية جبلة مفعم النفس جذلاً وطفق يصيح
راعش الصوت من فرط الفرح :

— لعلك لم ترتقب معادي في مثل هذا المساء ؟

فوثب جبلة صائحاً :

— ابن الفريعة ؟

— نعم حسان بن ثابت !

فترك جبلة عرشه واقبل الى ناحية حسان متهللاً باسماء .

« لقد كنت اتحدث عنك الى هذين ، ثم اشار بيده الى الرجلين الجالسين الى

يمينه ويساره واردف : قدمت اهلاً ونزلت سهلاً ، ثم اجلسه بين يديه واستنلى قائلاً

— يخيل الي انك جد تعب ! فهل قطعت الينا مسافة طويلة ؟

— كنت في دمشق ، فلم اشأ فراقاً لمغناها قبل ان استروح الى حديثك

— اي حسان لقد جاءت زيارتك المباغلة حاوة في هذا المساء ! قل لي اتعرف هذين

فحدق حسان الى الرجلين طويلاً وراح ضاحكاً .

— اما هذا فاعرفه وهو النابغة واما هذا فلا اعرفه (١)

فقال جبلة : لقد ظننتك تعرف علقمة بن عبدة ، فاذا بي ارى الايام قد احدثت اثرها في نفسك حتى باعدت بينك وبين الذين يحبونك .

— ياخير الفتيان ان صورتك لتطفو في نفسي حتى تمنعها ان ترى غيرها من الصور ! ثم التفت حسان الى ناحية النابغة وقال له :

— اي زياد كيف انت ؟ واي ربح عاصفة حملتك على متونها الى هذه الضواحي ؟
خفى النابغة رأسه كأنه يفكر ثم رفع عينه الى الشاعر قائلا :

— اتيت الهمام — يريد جبلة بن الایهم — لأكله في اسرى بني اسد وبني فزارة
فقاطعه جبلة قائلا :

— لقد اصاب حصن بن حذيفة في غسان قبل ذلك بعام (١) وبلغني انه لا يزال يجمع الجموع ليغير على ارضنا ، فانت ترى ان حصنا عظيم الذنب الينا فقال النابغة ايت اللعن ان الذي بلغك باطل .

— دعنا من هذا ، ثم التفت الى حسان وقال له مازحا :

— يا ابن الفريعة قد عرفت عيصك ونسبك في غسان (٢) فارجع فاني باعث اليك بصلة سنية ولا احتاج الى الشعر فاني اخاف عليك هذين السبعين النابغة وعلقمة ان يفضحك وفضيحتك فضيحتي وانت والله لاتحسن ان تقول :

لا يبعد الله جيرانا تركتهم	مثل المصاييح تجلو ليلة الظلم
لا يبرمون اذا ما الألق جلله	برد الشتاء من الاحمال كالآدم
هم الملوك وابناء الملوك لهم	فضل على الناس في اللاؤاء والنعم
احلام عاد واجسام مطهرة	من المعقة والآفات والاثم (٣)

اني اريد شعرا كهذا يرافق الأبد في خلوده وما احسبك قادرا على مجارة

(١) شعراء النصرانية ج ٥

(٢) الاغاني

(٣) الشعر للنابغة الذبياني قاله في زيارته لغسان

زياد في شعره وهو اشعر شعرائكم بل هو اشعر العرب (١)
فامتقع وجه حسان واخذ الألم الصامت الممض يطل من عينيه ، وفطن جبلة
للوعة وحسرتة فحاول ان يلطف من كربه فقال له :
— سلهما ان كانا يأذنان لك بالشعر !

فالتفت حسان الى الشاعرين النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة وقال لهما :
— بحق جبلة الاقدمتاني عليكما فقالا قد فعلنا فقال جبلة هات يا ابن الفريعة
فقال حسان :

لمن الدار اقفرت بمعان بين شاطي اليرموك فالصمان
فحمى جاسم فابنية الصفر مغنى قتابل وهجان
فالقريات (٢) من بلاس فداريا ففسكا فالقصور الدواني
ذاك مغنى لآل جفنة في الديبر وحق تصرف الأزمان
قد دنا الفصح فالولائد ينظمهن سراعا اكلة المرجان
يتبارين في الدعاء الى الله وليس الدعاء للشيطان
صلوات المسيح في ذلك الديبر دعاء القسيس والرهبان
قد اراني هناك حقاً مكيئاً عند ذي التاج مقعدي ومكاني
فصاح جبلة ، هذا وايبك الشعر لا ما يعللاني به منذ اليوم هذه هي والله البتارة
التي بترت المدائح ، احسنت يا ابن الفريعة : هات له يا غلام الف دينار ثم التفت
الى حسان قائلاً : لك علي في كل سنة مثلها ، ثم اقبل على النابغة الذبياني فقال له قم
يا زياد فهات الشاء المسجوع ، فقام النابغة وقال خطبة مائة طرب لها جبلة وصفق
ثم رفع جبلة عينيه الى جارية كانت قائمة على رأسه وقال :

• بمثل هذا فليثن على الملوك ومثل ابن الفريعة فليمدحهم ثم امر باطلاق

(١) شعراء النصرانية ج ٥

(٢) القريات وداريا وبلاس وسكا من قرى الغوطة وكانت كلها للنساسة

أسرى النابغة قهلل وجه الشاعر وراح ينشد:

ونبتت أنت أبا منذر يساميك للحدث الاكبر
قدالك احسن من وجهه وامك خير من المنذر
ويسراك اجود من كفه — اليمين فقولا له اجر (١)

فكاد جبلة يثب من الطرب، ثم اوما الى غلام على رأسه فولى يحضر فما كان الا هنيهة حتى اقبلت الاخرنة يحملها الرجال فوضعت وجيء بخوان من ذهب فوضع امام حسان فاستعفى منه فوضع امامه خزان خليج وجامات قوارير وادبرت الخمر فاستعفى حسان منها، ثم دعا جبلة بكأس من ذهب فشرب منها خمسا عدداً ثم اوما الى غلام فولى يحضر فما شعر حسان الا بعشر جرار يتكسرون في الحلى فقمعد خمس عن يمين جبلة وخمس عن شماله فالتفت حسان الى ورائه وقد سمع وسوسة فاذا بصره يقع على عشر افضل من الاول عليهن الوشي والحلي فقمعد خمس عن يمينه وخمس عن يساره واقبلت جارية على رأسها طائر ابيض كأنه لؤلؤة مؤدب وفي يده الينى جام فيه مسك وعنبر وقد خلطوا وانعم سجتهمما وفي اليسرى جام فيه ماء الورد فتممك بين جناحيه وبطنه وظهره ثم اخرجته فالتفت في جام المسك والعنبر فتممك فيها حتى لم يدع فيها شيئاً ثم نفرته فطار فسقط على تاج جبلة ثم رفر فرف ونفض ريشه فما بقى عليه شيء الا سقط على رأس جبلة ثم قال للجواري اطربني تخففن بعيدانهن يغنين شعر حسان (٢)

لله در عصابة نادمتهن يوما بخلق في الزمان الاول
ابناء جفنة حول قبر ابيهم قبر ابن مارية الكريم الافضل
بيض الوجوه نقية احسابهم شم الانوف من الطراز الاول

فاستبشر وطرب وقال زدني فاندفعن يغنين ؟

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

فراح جبلة ثملاً منزوفا حتى نسي وقار المجلس وحتى كاد يثب أكثر من مرة الى حسان لولا ان هزته كبرياؤه فاعتدل ثم انفت الى حسان وقال :

— انك في ضياقي فلن يقدر لك ان تبرح هذه المغاني ، ولم يشأ السيد الغساني ان يدخل اليأس على نفس النابغة فمضى يسأله :

— هل اعددت موسم العام في عكاظ يازياد ؟

فاطرق الشاعر يفكر ، وبعد قليل رفع عينيه الى جبلة وقال :

— سيكون موسم هذا العام في عكاظ احفل بالخصب من المواسم الماضية — وكيف ؟

× — كانت مواسم الأعوام الماضية مقصورة على شعراء اليمن ؛ ولكن موسم هذا العام سيحتشد فيه شعراء من اليمن ونجد والحجاز والعراق وبين هؤلاء فتیان جمعوا اليهم الشرفين ، شرف الشعر ، وشرف الفروسية ، ولما علم ملوك العرب بخبر هذا الموسم أراودني على اهداء منهم السنيه الى المجيدين من الشعراء .

— هل اعطاك ملك الحيرة مالا ؟

— نعم لقد اعطاني خمسة آلاف دينار !

فاستوى جبلة على عرشه وهو اشد ما يكون اعتزازاً بمجلسه ثم قال : لن يكون ملك الحيرة اكثر سخاء من ملوك غسان فامض الى عكاظ ، فلقبجوناك عشرة آلاف دينار تنفقها على شعراء الموسم ، قل لي : أيسرك هذا العطاء ؟ فقال الشاعر : انه عطاء ملك فكيف لا يسرني ، قال جبلة : لقد ابهجني انك تكرم عدوي امامي ثم امر النابغة بخمسة دينار ، ومثلها لعلقة وفي تلك اللحظة تقدم حاجبه منه وهمس في اذنيه همساً ضعيفاً ارعشه فارتد وجهه شاحباً والتفت الى ناحية الباب ، فاذا هنالك على عتبة رجل قد حنى رأسه الى الأرض فأشار اليه ان يقترب فتقدم حتى حاذاه وهمس في اذنه :

— ارادني الملك المنذر ان اكون رسوله اليك قبل ان يمضي الى قتال عدوه

النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي يرابط بجيوشه في مكان لا يبعد كثيراً عن تدمر .

فنهض جبلة وقد اشتعلت حميته وقال :

— أمضى بن عمي اذن الى قتال عدوه ؟

— نعم ، وكان خروجه من دمشق في الليلة الماضية ؟

فالتفت جبلة الى النابغة الذبياني واردف :

— ما لأبناء عمنا في العراق لا يقلعون عن هذه الاحقاد التي تحصد الفضيلة في

النفوس ، ناشدتك الله ان تنصح صاحبك الا يمضي في التمرغ فوق الرمال المصبوغة

بدماء الابرياء فان من البر ان ينعم ملك الحيرة بغير الدماء المطلولة في غير اثم !

واني لاحس شجناً كلما رحت اذكر فعل هذه المأساة الحاصدة في هذه النفوس

الفتية التي تدبل في سكير الرمال المتأجج ثم ضحك جبلة ضحكة متشنجة واستتلى قائلاً :

— لقد انجبت مارية ذات القرطين (١) الشعث المغاوير من فتيان غسان

فلعل النعمان بن المنذر الذي يلحف في النار بآبيه لم ينس بعد كبرياء هؤلاء الفتيان

وشتم نفوسهم ! ثم انحى ناحية الرسول وقال :

— اهذا كل ماتحملة الي ؟ ...

— لقد اراد الملك ان تخرج الى موافاته في قصر البريض عند عودته من تدمر

قبل سفره الى القسطنطينية وقد قال لي ابن عمك عمرو بن الحارث ان الملك

سيصطحب معه في هذه الرحلة ولديه وابناء عمه .

— سأكون في دمشق غدا ؟

(١) في المثل خذه ولو بقرطي ماريه ، وماريه هذه هي بنت ظالم بن وهب بن

الحارث بن معاوية الكندي ام الحارث بن جبلة الغساني وجدة جبلة بن الايهم

وهي اول عرية تقرطت وسار ذكر قرطها في العرب . وكانا نفيسي القيمة قيل

انهما قوما باربعين الف دينار وقيل كانت فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما

« بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب »

ثم التفت جبلة الى ضيوفه قائلاً :

— ان هذه الحرب الضروس التي تستأصل الخصب في ارحام الامهات لا تستطيع ان تستأصل خصب هذه الحياة المرحه الفرحه التي نمضيها في هذه الخائل الوارثه الظل وما دامت الحياة تتألف من عنصرين لا يفترقان عنصر اللذة وعنصر الألم فلا يضيرنا ان نمزج غناء القلب بغناء الحرب ، ثم قال للغايات انشدتني قول النابغة في عمرو الا كبر نخفقن بعيدانهن وانشدن :

وصدر اراح الليل عازب همه	تضاعف فيه الحزن من كل جانب
عي لعمر و (١) نعمة بعد نعمة	لوالده ليست بذات عقارب
حلفت يميناً غير ذي مثوية	ولا علم الا حسن ظن بصاحب
لئن كانت للقبرين قبر بخلق (٢)	وقبر بصيداء (٣) الذي عند حارب
وللحارث (٤) الجفني سيد قومه	ليتمن بالجيش دار المحارب
وثقت له بالنصر اذ قيل قد غزت	كتائب من غسان غير اشائب
بنو عمه دنيا وعمرو بن عامر	اولئك قوم بأسهم غير كاذب
اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم	عصائب طير تهدي بعصائب
ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم	بهن فلول من قراع الكتائب
تورثن من ازمان يوم حليلة (٥)	الى اليوم قد جربن كل التجارب
رقاق النعال طيب حجاتهم	يحبون بالريحان يوم السباب

-
- (١) عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الاعرج احد ملوك غسان
 (٢) جلق ارض بالشام دفن فيها الملك عمرو بن يزيد بن الحارث بن مارية الغساني
 (٣) صيداء ارض بالشام دفن فيها يزيد بن الحارث الاعرج الغساني
 (٤) هو الحارث بن جبلة الاكبر
 (٥) يوم حليلة هو احد ايام العرب المشهورة انتصر فيه الغساسنة على المنذر ملك العراق وحليمة هي بنت الحارث بن جبلة .

- كني كني فان مثل هذا الشعر ان يبلى ...
ثم التفت الى ناحية حسان واردف :
— لعلك لاتفارقنا بعد هذه الليلة ؟
— ناشدتك الله ان تسرحني فان اهلي ينتظرون اويتي !
— ولكن الصيف الذي تحب افناه في غياض دمشق وجناتها لم يغرب بعد .
— تركت في بيتي ابا شفيقاً واما رؤوما مازلت انصت الى خفق فؤأديهما برغم
هذا الفضاء الأفيح الذي يفصل ما بين الحجاز والشام !
— عدني برجة قرية الى هذه الربوع .
— لك هذا الذي اردت !
— وانت يا زياد ؟
— ان موسم عكاظ قريب فليس في طاقني ان اطيل مكثي في الشام .
— اذن فانت عائد الينا في العام المقبل لتحدثنا عن الموسم ؟
— نعم ، ولكنني أحب ان افء الى هذه الديار وهي غنية بالهناء والمرح
— سيرافقك رجالي الى حدود البادية !

❦

قضى جبلة بن الايهم مع ضيوفه زلفاً من الليل في غناء وطرب وفي صباح اليوم
التالي ودع النابغة الذبياني مغاني داريا ومضى في الطريق التي تدفع الى بادية العرب
يرافقه حرس جبلة واسرى بني فزارة وبني اسد الذين نعموا بحريتهم .
وفي الصباح نفسه انحى حسان ناحية بصرى تواكبه رجال من غسان ارادهم
جبلة ان يصحبوا الشاعر الذي احبه الى مشارف البلقاء .
وفي اصيل ذلك اليوم تحرك موكب جبلة الفخم الى دمشق ليلحق بقصر عمرو
ابن الحارث م

الفصل السادس عشر

ابو قابوس النعمان ابن المنذر

كانت النصرانية في الشام وفي بعض اليمن ، وبعض الحجاز ولكنها لم تنسرب الى العراق الا في اواخر القرن السادس وقيل ان النصرانية اجتاحت العراق في عهد المنذر الثالث من ملوك بني لخم الحيريين وكان من معاصري الحارث بن جبلة الغساني ملك الشام ويوستانيوس قيصر صاحب القسطنطينية ، ولكن بعض مؤرخي العرب ومؤرخي الروم لا يقرون هذا القول بل يذهبون الى ان النصرانية دخلت العراق في الثلث الاخير من القرن السادس اي في عصر الملك النعمان بن المنذر المعروف بابي قابوس وصاحب الغارات الكثيرة على غسان

وتفصيل هذه الحادثة الكبرى ان النعمان بن المنذر كان له رجلان من العرب ينادمانه احدهما خالد بن المضلل والثاني عمرو بن مسعود وكلاهما من بني اسد ، فحدث ذات عشية ان شرب النعمان مع النديمين فراجعاه الكلام فاغضباه فامر بهما فقتلا وجعلا في تابوتين ودفنا بظاهر الكوفة فلما اصبح وصحا سأل عنهما فاخبر بذلك فندم وركب حتى وقف عليهما وامر ببناء الغريين (١) وجعل لنفسه في كل سنة يومين يوم بؤس ويوم نعيم فكان يضع سريره بينهما فاذا كان في يوم نعيم اتى باول من يطلع عليه فحياه وكساه وناداه يومه وحمله فاذا كان في يوم بؤس اتى باول من يطلع عليه فقتله وطفى بدمه الغريين ، فلم يزل كذلك حتى خرج في غداة يتصيد على فرسه اليحموم فاجراه على اثر غير فذهب به الفرس في الارض

(١) الغريان بنا آن مشهوران بالكوفة يقال هما قبر مالك وعقيل نديهي جذيمة بن الابرش وسميا غريين لان النعمان بن المنذر كان يغريهما بدم من يقتله اذا خرج في يوم بؤسه

ولم يتدر عليه وانفرد عن اصحابه واخذته السماء بالمطر فطلب ملجأ يتقي به حتى دفع الى خباء فاذا فيه رجل من طي يتال له حنظلة بن ابي عفراء ومعه امرأة له فقال لها هل من مأوى قال حنظلة نعم فخرج اليه فانزله وهو لا يعرفه ولم يكن للطائي غير شاة فقال لامرأته ارى رجلاً ذا هيئة وما اخلقه ان يكون شريفاً خطيراً فاذا نقره ؟

قالت عندي شيء من طحين كنت ادخرته فاذبح الشاة لاتخذ من الطحين خبزاً فاخرجت المرأة الدقيق فصنعت منه خبزاً وقام الطائي الى شاته فاحتلبها ثم ذبحها واطعمه من لحمها وسقاه من لبنها واحتال له شراباً فسقاه وجعل يحدثه بقية ليلته فلما اصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال له ياأخا طي انا الملك النعمان فاطلب ثوابك ، قال أفعل ان شاء الله ثم لحقته الخيل فمضى نحو الحيرة ومكث الطائي بعد ذلك زماناً حتى اصابته نكبة وجهد وساءت حاله فقالت امرأته : لو اتيت الملك لاحسن اليك فاقبل حتى انتهى الى الحيرة فوافق يوم يؤس النعمان فلما نظر اليه النعمان عرفه وساء مكانه . وقال له يا حنظلة هلا اتيت في غير هذا اليوم ؟ والله لو سئح لي في هذا اليوم قابوس ابني لم اجد بداً من قتله ، فاطلب حاجتك من الدنيا وسل ما بدالك فالك مقتول قال اييت اللعن وما اصنع بالدنيا بعد نفسي قال النعمان لا بد من ذلك قال : فان كان لا بد فاجلني حتى الم يااهلي واحكم من امرهم ما اريد ثم اصير اليك فتنفذ في حكمك قال النعمان فاقم لي كفيلاً بموافاتك فالتفت الطائي الى شريك بن عمرو بن قيس من بني شيان وكان الى جانب النعمان فقال له :

يا شريك يا ابن عمرو	ما من الموت محاله
يا اخا كل مصاب	يا اخا من لا اخاله
يا اخا شيان فك	اليوم رهناً قد اناله
طالما عاجل كرب	الموت لا ينعم باله

فأبى شريك أن يتكفل به فوثب إليه رجل من كلب يقال له قراد بن اجدع فقال للنعمان أبيت اللعن هو علي ، يدي بيده ، ودمي بدمه . فقال النعمان افعلت قال نعم فضمنه أياه ثم أمر للطائي بخمسمائة وقد جعل الأجل عاماً كاملاً من ذلك اليوم إلى مثله من القابل فشئى الطائي إلى أهله فلما حال الحول وبقي من الأجل يوم واحد قال النعمان لقراد ما أراك إلا هالكا غداً فقال قراد

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غداً لناظره قريب

فذهب قوله مثلاً ، فلما أصبح النعمان ركب في خيله ورجله متسلحاً كما كان يفعل حتى أتى الغريين فوقف بينهما وأخرج معه قراداً وأمر بقتله فقال له وزراؤه ليس لك أن تقتله حتى يستوفي يومه فتركه وكان النعمان يشتهي أن يقتل قراداً ليفلت الطائي من القتل فلما كادت الشمس تجب (١) وقراد مجرد قائم في أزار على النطع والسياف إلى جانبه رفع لهم شخص من بعيد وقد أمر النعمان بقتل قراد فقبل له ليس لك أن تقتله حتى يأتيك الشخص فتعلم من هو فكف حتى انتهى الهم الرجل فإذا هو الطائي قد تكفن وتحنط وجاء بنادبته

فلما نظر إليه النعمان شق عليه بغيته فقال له ما حملك على الرجوع بعد أفلاتك من القتل؟ قال : الوفاء قال : وما دعاك إلى الوفاء قال : ديني قال النعمان وما دينك؟ قال النصرانية ، قال النعمان فاعرضها علي فعرضها عليه فتنصر النعمان وأهل الحيرة أجمعون وكان على دين العرب فترك القتل منذ ذلك اليوم وأبطل تلك السنة وأمر بهدم الغريين وعفا عن قراد والطائي وقال : والله ما أدري أيهما أوفى وأكرم هذا الذي نجا من القتل فعاد أم هذا الذي ضمنه والله لا أكون ألام الثلاثة ! (١)

أما حنظلة فإنه نسك بعد ذلك وفارق بلاد قومه ونزل الجزيرة وباع ماله وبنى ديراً بالقرب من شاطيء الفرات في الجانب الشرقي بين الدالبة والهنسة

(١) أي تغيب

(٢) الأغانى ، بلوغ الأرب

انقطع النعمان منذ ذلك اليوم الى الانشاء والاعمار فبنى في بلاده الكنائس والاديرة والقصور المشيدة الضخمة والمدن والقرى وشجع الفنون والعاد كمن عليها من الفرس والرومان وعلمها قومه ووضع الجوائز السنية للشعراء البارعين كحسان بن ثابت : اوحاتم الطائي . والنابعة الذياني . وكان النابعة الذياني يأكل ويشرب في آنية من الفضة والذهب من عطايا النعمان وابيه وجده (١) بل لقد كان النابعة يعيش في حمى النعمان اللخمي عيشاً حاليّاً بالنعميم فلا يرقد الا على الخز ولا يرتدي غير اللباس الانيق الوثير (٢) بينما كان شعراء عصره يغالبون الحياة ويكافحونها فلا يطل هذا الكفاح الا على آفاق تعصف فيها رياح البؤس والفاقة ...

وبلغ العراق في عهد النعمان اسمى درجات الحضارة والترف فامتلات خزائنه بالذهب واصبح في وسع ملكه ان ينافس اكاسرة الفرس وقيصرة الروم في بهاء الملك وروائه وصار في قدرته ان يمضي بالعراق الى الخلاص من رقابة الفرس . وفي ايام النعمان ذهبت وفود العرب الى كسرى تنافسه في الفخر والاستعلاء ومن هذه الوفود وفد مؤلف من عيون العرب وفرسانهم امثال الحارث بن ظالم المري وقيس بن مسعود البكري وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل وعمرو بن معدي كرب : فوند هؤلاء على كسرى فاستعوه من سحر بيانهم ما حبيب اليه احاديثهم عن العرب وفضائلهم ثم عاد الوفد وهو مثقل بهدايا كسرى وعطاياه

وفي ايام النعمان امتدت علاقة العراق الى الهند والصين وبلاد الروم واتسعت تجارته ونمت وعاش الناس في رخاء لم يألفوه في عهد ملوكه التنوخيين واللخميين ولكن هذا الرخاء الذي انقطع الناس الى مناعمه وملذاته كانت تشوبه حروب دائمة بين العراق والشام وكان ارووع العوامل في اذكاء ضرام هذه الحروب ناشئاً عن

(١) الاغاني

(٢) شعراء النصرانية

التنافس القائم بين ملوك الفرس وملوك الروم وهو تنافس ضئيل جعل فجاج الشام والعراق ميدانا لمعارك لا هبة حمراء عطلت الازدهار والافهام ومنعتها ان تنصرف الى الخلق والابتكار

وقد نشأت عن هذه الحروب ضعائى واحقاد فى صدور الغسانيين واللخمييين على السواء فاصبح العدو يهتبل الفرص للانقضاض على عدوه والتشنيع به حتى حدثت معركة يوم حليمة التى قتل فيها المنذر اللخمي والد النعمان فاستنفر الابن اقوامه رجاء الثأر بابه ورأى فى النفور القائم بين المنذر الغساني ويوستينوس صاحب القسطنطينية فرصة مواتية لضرب عدوه ضربة لا ينهض بعدها فرحف الى حدود الشام بجيشه ، بينما شرع الفرس يتوغلون من ناحية اخرى فى حدود الروم

وفى تلك الاثناء كانت جيوش النعمان بقيادة ابنه قابوس قد بلغت فى زحفها ضواحي تدمر فصالح قيصر المنذر الغساني بعد جفاء استغرق زمنا طويلا واراده على الزحف الى جيوش الخيرى ووضع لسان وفينيقية وفلسطين تحت رقبته وسلطانه وفى نهاية سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة زحف جيش غساني من حصص الى تدمر بقيادة امري القيس بن عمرو الغساني ابن عم الملك المنذر لتقطع الطريق على قابوس بن النعمان وزحف جيش آخر من بصرى الى البادية لحماية طرقها ومنع الحيريين من التسرب الى اراضي غسان ووضع هذا الجيش تحت قيادة ليلى بن عمرو الغساني بطل يوم حليمة وقايل المنذر اللخمي والد النعمان وهو زوج حليمة بنت الملك الحارث وخرج من دمشق جيش ثالث بقيادة الملك المنذر الغساني وكان هذا الجيش اقوى الجيوش ، وقد ابى الملك المنذر يومئذ ان يكون على رأس جيشه قواد من الرومان

والقراء يذكرون زيارة الملك المنذر قصر البريض فى دمشق بعد حادثة قتل هيباس واجتماعه الى عمرو بن الحارث والى الفتاتين هند وماريه ثم خروجه الى قتال النعمان اللخمي

الفصل السابع عشر

معركة تدمر

واصلت جنود المنذر الغساني زحفها في طرق واعرة ضيقة تلتف بها جبال
جرداء عارية تظلها شمس مشوبة وافق مضطرم ثم نصبت خيامها في ضاحية جيروود
على كتف الطريق المؤدية الى تدمر

ولما استراح المنذر في دير قديم مع حاشيته وابناء عمه دعا اليه رؤساء الجيش
وقواده فأرادهم على رقابة الطرق والمعابر في الصحراء حتى لا تتسرب اخبار الجيش
الى العدو المرباط على مسافة ليلة من تدمر

وكان النهار قائظا لفاح الاوار فانقطع القواد والرؤساء الى انشاء المحارس على
الحدود برغم ذلك الهجير الذي يهد القوى ويذيب النفوس وفي صباح اليوم
التالي وصل الى جيروود قواد الغساسنة في حمص وبصرى فتحدث المنذر اليهم عن
الخطر الرابع الذي يهدد اطراف بلادهم واستنفرهم الى الاستماتة في سبيل انقاذ
الارض التي دفن فيها عيون غسان ملوكهم وفلذات اكبادهم وقال لهم :

— لقد اردنا الخلاص من الروم فما وفقنا اليه ولا يزال قيصر يأبى علينا تلك
الحرية التي اردناها لبلادنا ، واتم تعلمون انكاشنا عن قيصر وامتناعنا عن اصراخه
في الحرب التي اثارها الفرس خلال ثلاث سنوات عانت فيها البلاد طائفة من
المناكد حفزت الفرس وحلفاءهم المناذرة الى استصفاء الحدود واجتياح الاراضي
والعبث بالجنات والحقول ، حيال هذه الكوارث الشجية رأيتني مسوقا الى
مصانعة قيصر بعد ذلك الجفاء ولكنني احببت ان احسن الى قومي فلا تراق
دماؤهم فدعوت النعمان الى طرح السلاح ورجوته ان تكون بيننا
موادعة طويلة نستريح اليها ، ولكن النعمان تمادى في استهتاره وعبثه بكرامتنا فراح

يجشد الجيوش على اطراف بلادنا ، يا للعار ! يا للعار اردنا الى الروم حرية بلادنا
فاني الفرس ومن والاهم من المناذرة الا ان يتداعى بناء الحرية . فاذا اريق في
هذا اليوم دم بري في هذه الصحراء فان اثم ذلك يقع على من في العراق من ابناء
عمنا الذين جعلوا انفسهم خولا للفرس وعبداناً لرؤسائهم

وحينما اراد النعمان ان يمضي في الثأر بأبيه الذي قتل في يوم حليلة عرضت عليه
صالحاً فاني وبعث الي قاتلا : « ليس لدم ابي كفؤ غير دمك » فاتم ترون من ذلك
ان النعمان ماض في سيله حتى يقتلني بدم ابيه

وسكت المنذر كأنه يريد ان يستوثق من تأثير حديثه في نفوس القواد
والرؤساء فكان له ما اراده فان الذين اجتمعوا اليه لم ينبسوا ولكنهم خرجوا من
مجلسه الى جيادهم فركبوها ومضوا يلتحقون بالجنود فجاء سكوتهم دليلاً على انهم
يصانعون المنذر ويساهرونه في اغراضه ومقاصده ولم ينقض اسبوع حتى
ظفرت جيوش غسان من اماكنها للوثوب على جيوش النعمان بن المنذر
ملك الحيرة

خيم الغسق على تلك الضواحي الدانية من تدمر واخذ القمر يريق اشعته على
الرمال التي شهدت الوف المأسى والفجائع منذ نشبت اول حرب بين ملوك
العراق وملوك الشام واخذت نسائم الليل اللينة الرطبة تحمل الى خيام المناذرة
القائمة على جداول متفرقة مبعثرة بعض العزاء فيجد الغزاة في الرطوبة صباة
نفس برح بها قيظ النهار وحره

يا للبؤس ! لقد قطع الغزاة المراحل واختلف عليهم ليل ضرير النجم ، ونهار قانظ
ثم مروا بالاوادية والصحارى والقرى وعرضت لهم آثار العمران في الاماكن
الخصبة الممرعة فقوضوا صروحها ودكوا معالمها كأنهم يحاربون في ارض اجنية .
رقد بعض الغزاة في الخيام ، وجعل بعضهم يروح ويغدو حول مسيل

الماء ولأصواتهم في هذا القفر الأفيح عصف الرياح ! بل لقد كان بعضهم يغلو
في ضحكه ومجونه واستهتاره بالموت !

ثم تعالى هذا الضحك حتى اكتظ جوف الليل بعصفه فتساقى الجميع انهم
يقيمون مأدبة سخية من لحومهم وجسومهم للطيور الجوازة المنقلة في فضاء البادية
وفي تلك الفينة حملت اليهم الرياح صدى بوق بعيد ، فانتبهوا له وراحوا ينصتون
الى رعوده وقد تقلصت شفاههم الضاحكة ونصت وجوههم المتوردة فما عادت تضي
وخالط نفوسهم الرعب

تجلجل صوت البوق كرة اخرى فاستفاق الرقود في الخيام وقاموا الى اسلحتهم
وفي اقل من القليل تحولت تلك الاماكن الوادعة المطمئنة الى ارض جائشة ثائرة
وتبارى قواد الجيش من كل فج عميق ، وهم يصيحون :
العدو ، العدو !

وانتشر الخبر في مثل خفة الوميض في خيام الحيريين فاخذ قوادهم يتطلعون الى
الافق البعيد فاذا ابصارهم تقع على اشباح زاحفة تحت ظلال الليل الفاحمة
وبعد قليل اطل قابوس بن النعمان بن المنذر فتعالت الاصوات بالهتاف له حتى
غص الأفق بالصدى

— لقد هاجنا ملك غسان على حين غرة !...

فهزت هذه الكلمة البسيطة نفوس الحيريين وفجرت حماسها فاخذوا يصيحون
— يا لثارات المنذر ، يا لثارات المنذر .

لم تمض ساعات قليلة من الليل حتى اشتبك العدوان في معركة لاهبة ، كان
الليل الساجي وكواكبه من شهودها ، وكان صليل السيوف الصدى الوحيد الذي
يملا الفضاء ويعطل سكونه ! ؟

لها الله من ليلة اختلطت فيها روعة الفسق بروعة الدم المراق !
قاتل الحيريون قتال اليأس ، حيال عدو ضخم اخذ يلتف بهم من كل ناحية

حتى سد عليهم المذاهب .

حمي وطيس المعركة وحالت الارض الى لجج مواردة ، يتدافع في هزيمها القاصف
صليل الصفاق . وصدى تكسر الرماح ، وجلبة العجلات ، واصوات الابواق ،
ونشيج الجرحى ، وغمام القتلى !

لم يفقد الحيريون رباطة جأشهم بل كانوا يصدقون الحملة على اعدائهم حتى
كادوا اكثر من مرة يشقون صفوفهم !
يا للهلول ، يا للرعب !

اصطبغت الجداول التي كانت تسقي تلك البطحاء بالنجيع الاحمر وتهافت العدو
على خيام عدوه يضرهم فيها النار الحاصدة في غير رحمة ولا شفقة .

وحجب الأفق دخان النار التي كانت تحمل في لهبها المتصاعد الى السماء المتوارية
صورة حراء لكبرياء الانسان وصلفه وجبروته !
وتلك السهول التي امرعت في الماضي وازهرت وكانت مظهراً فتاناً لجهود
الانسان وكدحه حالت الى هشيم .

وذلك الفضاء الذي كانت تنيره شمس دافئة تريق انوارها على العشب فكسبه
الحياة والنماء والخصب تكثرت معالمه وخبث انواره فهو محاط بلهب احمر يشق
مداه الأفيع وله رنين العواصف في ليالي الشتاء !

وفي النهاية تمكن الحيريون من اتقاء خصومهم على الرغم من كثرة الخصوم
ثم فتحوا طريقاً اطلوا منه على الفضاء فاذا هم قد نجوا من الحصار فراحوا يؤلفون
شملهم الصديق وابواقهم تعصف وتجلجل في كل ناحية حتى غاب في صخبها
وارعادها ذلك النشيج الاليم الطافر من صدور الجرحى ، وتبارى فريق منهم في اطفاء
النار التي اضرها الغساسنة في الخيام .

وكانت النار تحتضن فرائسها في غير رفق فاخذت الخيول والجمال تهيم في تلك
النواحي سادرة ذاهلة لا تبصر طريقها !

اللهم ان هذه النفوس التي توافت الى الموت حتى حصدتها سيوله العارمة لم
ترهق في الدفاع عن ارض الوطن ، ولكنها استساعت الفناء في سبيل الاجنبي !
لقد كان مقدراً لهذه النفوس الهالكة ان تحفر في هذه البطحاء رموساً كريمة
لو انها ارتضت الموت في سبيل الفكرة المحسنة الى وطنها ، ولكن النسيان المعقوت
سيطري في غياهبه هذه الشمس الحاية لأن انوارها لم تشأ السطوع في آفاق العرب
يل فضلت أن تنير آفاق الفرس والرومان !

قتل من الغساسنة في هذه المعركة الحمراء خلق كثير بينهم ليث بن عمرو صاحب
يوم حليلة وقاتل المنذر اللخمي فقطع الخيريون رأسه ومضوا به الى سرادق قابوس
ناعمين وأدعين مغتبطين كأنهم خرجوا من مأدبة حالية بالمفارج والمغابط !
وشد ما كانت دهشتهم حينما رأوا السرادق خالياً من ربه فروعهم الحوادث
واشجاءهم فمضوا يبحثون عن قابوس بين الجرحى والقتلى ولكن طوافهم الشجي لم
يبلغ بهم صباية نفوسهم المكدودة !

ثارت تائرة الخيرين فتعالت اصواتهم حتى اشبهت صياح حيوان جريح
فاستأنقوا المعركة في عنف وشدة وقد صيرهم اليأس في ذهلة وجنة وجعلهم غلاظاً في
البأس ، نعم لقد ضيع الخيريون الأمل ، ولكنهم استبقوا في نفوسهم تلك الشجاعة
النادرة التي قادتهم أكثر من مرة الى اسوار القسطنطينية يوم مشى بهم ملوكهم الى
قبال قيصر .

انهم لم ينسوا وهم في مواطن اليأس تلك المعارك اللاهبة الحمراء التي ادت بهم من
عاصمة قيصر ولكن هذه الذكرى الهائلة التي كانت توقظ حماسهم في الساحة
الحمراء لم تنفعهم ولم تمنعهم الفشل على ابواب تدمر .

ثم اعتورهم اليأس واشتملت عليهم سحبه ودجناته فاعترفوا بعجزهم عن المضي
الى النهاية في الدفاع وارادوا الى عدوهم الهدنة ؟
وفي تلك الفينة كان المنذر الغساني الذي خسر ثلث جيشه يستقبل قواده الذين

حملوا اليه حصاد هذه المعركة اخراء في تلك الليلة الظلماء.
لقد كان حصاد تلك الليلة طائفة كريمة من اسرى الحيريين بينهم قابوس بن
النعمان ملك الخيرة .

وكان المنذر الغساني في سرادقه فلما دخل عليه قابوس غشيته رعدة شديدة
ففاضت عيناه بدمع والتفت الى قابوس قائلاً :
— واخيراً يا ابن عمي لقد تلاقينا !
فلم ينبس قابوس !

ولما اراد بعض قواد الغساسنة جز ناصية الاسير الكبير صاح المنذر :
— ان الملوك لا تجز نواصيها ! واقبل على قابوس يريد ان يرفه عنه وقال له :
— لقد قتل منا ومنكم خلق كثير ، فما احرانا بسلم طويل ؟ !
فاطرق قابوس يفكر ، ثم رفع رأسه قائلاً :
— دعني اولاً اطريك على مروءتك وشممك فلقد ابيت ان تجز ناصيتي فصنت
بعملك كرامة الملوك من ابناء عمك ولم تعرضهم لعبث السوق ، وستظل ذكرى
هذا العمل النبيل في نفسي !

ثم سكت ولج به جواه وحزنه فوارى المنذر عينيه بكفه استحياء من هذا
الحزن البالغ وفي تلك اللحظة وفد بعض الغساسنة على المنذر وقصوا عليه نبأ مقتل
ليبد بن عمرو الغساني فاطرق المنذر وراح يفكر ثم رفع عينيه الى قابوس قائلاً :
— لقد تأرت بجذك القتل من قاتله في يوم حليمة ، واحسب دم ليبد كفؤاً
لدم المنذر .

فأبواه قابوس واثني قائلاً :

— يشجيني كثيراً ان يموت ليبد هذه الميته ، ولكن اي قيمة لحياة البطل اذا
لم يختتم ايامه في رواق المعارك المجيدة ! البطولة ايها الهام كالزهرة تحتاج دائماً الى
طل يسقيها ويفعمها اريجاً وحياة ، والدم هو الندى الذي يسقي البطولة وينعشها

ويترعها بالحياة والنماء والتوثب .

لقد بدأ ليبد حياتي في يوم حليمه . ولكنه اختتمها في يوم تدمر .

فقال المنذر : صدقت ولكنني ارجو ان يطوى الماضي بسخائمه واحقاده ، وان

يفتح امامنا مستقبل جديد يحمل الى غسان والى الخيرة مرح حياة نقية لا يخالطها

شيء من عنات الماضي وتباريحه ، لقد كانت قلوبنا مطوية على مشاعر ونزوات مرة

يائسة ارتتا الدالم كله داجيا قائما حتى لم نعد نعتزف للحياة بغير فضيلة واحدة !

فضيلة الحزن والأسى وحتى تناسينا الفضائل الاخرى التي تسمو بالنفوس الى

الحب والبر والعطف .

قل لاييك يا ابن عمي ان غسان دفنت ثاراتها في صحراء تدمر ، فلعله يدفن

ثاراته في صحراء العراق ، اعد الى اييك في هذه العشية وقص عليه كيف غسلت

غسان حوباء النفس في دم شبابها المسفوح ودم شيبها المنضوح .

وتقدم من قابوس مترققاً شاجناً حتى احتواه بين ذراعيه فلم يتجلد قابوس

لنظرة ثم رفع يديه فمر بهما على عينيه كأنما يريد ان لا تعلق بذهنه صورة هذا

المشهد الشجي وقد خيل اليه ان قلبه عاد هشيماً محطماً ففضى يذرف الدمع المدرار

وراح هاماً :

— سأذكر لاني هذا الذي شهدته ؟

— عد الى قومك قبل ان يعتصرهم اليأس من ابطائك عليهم ! ... اي غسان

لقد طوبنا النفوس على حب في هذه الساحة الخراء .

وأطلق المنذر سراح قابوس فضى الى جنده المحطم اليأس والصبح لم يتنفس

بعد فاستقبله رجاله بالهتاف وحملوه الى سرادقه على المناكب .

وشخص المنذر الغساني الى رجاله قائلاً :

— لها الله امي الرحيمة البارة ، لقد اتيت اليها قبل خروجي الى الملحمة

وقلت لها ، بركتك يا اماء فان بي اليها حاجة فروعها صوتي المتهدج وراحت ترفع

الى عينيها الذابتين ثم سألتني ملحفة واجمة « الى اين ؟ فقلت لها ان ابا قابوس صدف عن الحلم وابى الا ان يثار بابه من غسان فقالت لي « اي بني ، ان الصلح خير وابقى ؛ فاذا مضيت الى عدوك فلا توقظ في نفسه روح البغض ولا تنافسه في العصية فانها الاصل في تفرق العرب ! وهي كذلك الاصل في هذا البؤس الذي يخالط عيشهم .

ثم ابت علي بركتها قبل ان اسمعها وعداً تطمئن به الى ان نصحبها اثر في نفسي ، فكان لها مني الوعد ، فضيت الى قتال عدوي وبركتها تهزني الى تلك الفضيلة الباقية التي تستأصل البغض والصلف .

وحينما دخل قابوس علي كان خيال امي يمر بنفسي وكانت كلماتها تثب في جوارحي ، فما وسعني غير الصفح فصفحت واقبلت على عدوي اواسيه واعزيه . فاه المنذر بهذه الكلمات الأخيرة في رفق وتودة وراح ينظر الى ذلك السهل الذي تغطيه جثث القتلى والجرحى ، فخيل اليه انه يسمع حشرجة الصدور في النزاع الأخير فوجم قليلاً ثم اعتوره انكماش فحزن فالتاع ثم لاحت في عينيه دموع ساكنة خرساء اودعها هذا الذي يحتويه قلبه من الم وجوى ويأس ! .

وظلت نظراته عالقة بالسهل حتى عرض له آخر مشهد من مشاهد هذه المأساة الشجية فرأى الحيريين يتوارون عن الأرض التي سقوها بدمائهم وقد حملوا الجرحى على عجلاتهم المحطمة !

وكان الصبح قد تنفس ، فظللت انواره هذا الموكب الشاحب الذي يحمل الى العراق بقايا قبلة حمراء رسمها الموت على وجوه فتياه القتلى وبينما كان هذا الموكب الحزين يتوارى خلف سحب الصباح الغائمة التدية اخذت الطيور والعقبان تنهات على تلك الجثث الهامدة النائمة في حضن الموت .

عرض هذا المشهد المؤلم للمنذر فاكفهرت سخته وتفجرت عيناه بدمع ، ولكنه لم يستطع التحديق الى هذه البقايا المتناثرة فوارى عينيه بكفه وقال لرفاقه :

لنبتعد عن هذه الأرض الجاهمة فان مشهد الجثث يؤذيني ويرمض نفسي .
وفي خفة الوميض تجمعت جيوش غسان وتأهبت للسير في طريق دمشق
بعد ان تركت طائفة غالية من القتلى
وظهرت الشمس في افق بديع بهي لأغيم فيه واخذت اشعتها تظلل الأحياء كما
ظلت الأموات .
وكان صوت البلبل في تلك الساحات التي يغشاها الفناء الرثاء البديع الذي
حملته الطبيعة الى الموتى ؟



الفصل الثامن عشر

دمعه في ابتسامة

— ما اجمل شمس هذا الصباح المانع ؟

— ابروقك طاموع الشمس في الحقول والجنات ياماريه ؟

— نعم نعم ويلذني كثيراً ان تلثم اشعة الشمس هذه الازهار الضاحكة التي حناها الندى الليل ، انظر الى هذه الوردة الحمراء ، انها لا تبرح في كهها وتكاد تنبتق وهذه الوردة الصفراء ! لها الله ما ابهاها ! لقد تفتحت وازهرت ، انها كفكرة الشاعر التي تنمو وتزهر وتأخذ الوانها من تبشير الصباح .

— ما اجمل وصفك هذا الزهر الموق البديع ولكن في صسوتك نعمة يأس وحزن وزفرات نفسك تطفو على صوتك حتى اصبحت احس ضرامها فهل صرت تخشين شيئاً ؟

— كلا كلا ؛ ولكنني جزعة على هذه الازهار ، ويكاد يغمرني حزن شديد كلما رحت افكر في الاثر الذي يتركه منجل الحاصد في هذه الرياحين الباسمة المطمئنة الى الشمس والى الندى ، اواد ما اقصى الفلاح ، بل ياله غيباً اذ يطوف على العشب الخبيث فيستأصله ، ثم هو يدوس هذه الازهار بقدميه غير متبرم بعمله ، ولا مشفق على نضارة الخائل ! بل انه ليقطلع العشب الخبيث ، كما يقطع العشب الطيب متناسياً ما اراده الله في خلق هذه الازهار ، وجاهلا ان الطبيعة خلقت الرياحين من عنصر كريم حتى يجد المحبون في اريجها بعض العزاء .

— ولكنني اثم عبق اليأس في كلماتك ! فهل روعك عيشك هنا ؟

— الحاصد القاسي يستأصل العشب الأخضر ، ويحطم الازهار في غضارتها وروائها ، والذئب يأكل الحمل الوديع المطمئن ، والليل يحجب النهار ، والحب يحصد

شباب المرأة ويتأكل نضارته ! ليس هذا الذي يلوح لك في حديثي بأساً ولكنه
الأسف يترع نفسي ويفعمها المأ .

— يالأسك الشديد !

— ما انا يائسة ولكن جزعي شديد عنيف .

— ممن تجزعين يا مارية وانت في حمى عمرو ؟

— لقد بكيت ماضي لاني لم املك شيئاً منه ، وبكيت حاضري لاني مريضة

ومدنفه وقد منعني مرضي ان اتذوق لذائذه وسيكون بكائي على المستقبل غزيراً
لاني اجهله ولا اعرف صورته ! بل اني لجازعة لأن المستقبل لن يكون ارأف بي
من ذلك الفلاح الذي يحصد الاوراق الخضراء .

— من اين تسلت اليك هذه الصور الربداء ؟

— من حديث القلب الى النفس ! فلنشد ما فرغت في خلواتي الى قلبي ورحلت
انا حيه واتحدث اليه ، فكان همس نفسي ينقل الى احلاما مروعة تحمل الى صوراً
بشعة لا استروح اليها .

— ولكنك شابة وفتية وقد يتغلب شبابك على مرضك وهو ظل زائل وبرق

خالب يضمحل ويفنى ! الهذا جئت بي الى هذه الجنات ؟ اكان الموت هو الذي
حملك على الطواف معي في هذا الصباح ؟

— كاد الموت يغشائي ، واكاد المح خياله حتى ليخيل اني المسه لمساً ...

ناشدتك الله يا عمرو الا تكون في غلظة الحاصد ، وقسوة الفلاح ، فاذا اغمض الموت
عيني الى الأبد فضع رفاقي في بقعة بعيدة عن الناس ، فاني لا احب ان يطأ قبري
اولئك القساة الذين يتلذذون في عبثهم بالقبور بل لا بأس ان تظلل قبري خيلة مفردة
وان يكتب على غرقي الأخيرة التي اعوذ بسكيتها ، هذا قبر فتاة عاشت في هذه
الدنيا بلا امل وفي غير رجاء ، وقد تخطتها الداء في ربيعها السابع عشر ،

— ولكنك فتية وشابة والموت بعيد عنك فليس في قدرته ان يدهمك وانت

تضحكين لرواء العمر وبهائه . . . اللوت جئت بي الى هذه الجنات ؟ الم نخرج سحراً لنقطف اجمل الرياحين وابدعها ولنصنع منها مجموعة ساحرة تحملها يداك البضتان الناعمتان الى ذلك الرجل الذي عاد من المعركة ظافراً مرتفع الجبين ؟ انسيت اي عيد هذا الذي تحتفل به دمشق ؟ لقد عاد المنذر من تدمر وهو يحمل الى غسان النصر والمجد ، ازهارك يامارية ازهارك ؟ اتمنى ان لا يذهلك هذا الشجن العارض عن قطف هذه الازهار .

فوضعت مارية يدها على خدها واثنت قائلة :

— لقد اذكرني المنذر ساعة نسيت هذا البطل الذي رد الى غسان شرفها ووقارها . . .

— اذن فليس لك ان تيأسي بينما الناس يمضون الى الامل وبينما الحياة الضاحكة المستبشرة تتوافى اليك برياحينها وازهارها ؟

ومضت مارية الى الزهر تجتنيه ثم عادت الى عمرو باسمته مهتلة وقد فارقتها شجنها البالغ ، ورأها عمرو تطفر اليه فاحتبسها بين ذراعيه وغمرها بقبلاته هامساً .
— لقد مست شفتي شفتيك واقدم ان النحل ان يذوق من اية زهرة مثل هذا الشهد الذي نذوقه من شفتيك .

• • •

خرج عمرو بن الحارث في صباح اليوم الخامس عشر من شهر حزيران سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة الى حديقة القصر ترافقه مارية تلك الفتاة التي احبها واحبته واحاديث النصر الذي لم يفت غسان في تدمر تفعم دمشق مبسوطها وحالقها وقد خرج الناس الى الضواحي للاستمتاع بطاعة ذلك البطل الذي انتصر على جنود الحيرة . وكانت مارية في ذلك الصباح عابلة مدفة وقد اشتد بها السعال حتى كاد يمزق حشاشتها ، فلما مرت بالحديقة وحاولت قطف بعض الازهار عرتها رعشة هزت جسمها فانكششت وامتعت عن قطفها ! فلم يفت حبيبها هذا الشجن قهلافت

عليها يتحدثها باطيب الأحاديث وهي معرضة عن أحاديثه لان الداء الذي يغالبها باعد بينها وبين مفارح الحياة فما استطاع عمرو ان ينزع من مخيلتها تلك الصور المعتمة التي تعرض لها ، وكانت تسعل سعالاً مضنياً يكاد صدرها الشاجن يظفر تحت عصفه .

لقد خرج الحبيبان من القصر الى جناته لغرض نبيل وجليل ، فما عثمت صورة هذا الغرض النبيل الجليل ان فئيت في صدر ماريه فامتعت عن قطف الرياحين ورأت في حياة الزهر ما يتماثل مع حياتها فقد كانت تحسب نفسها ضعيفة واهنة ، وكانت ترى الازهار ضعيفة واهنة

وظفقت تروح وتغدو بين الاوراق والافئان ، سادرة حائرة كأنها خيال يضرب في نواحي الارض مثلها ممروراً ، ولكنها كانت تتحاشى ان تهبط يدها على ريحانة من تلك الرياحين المتضوعة .

ثم سقطت عيناها على خيمة منعزلة ، كما تسقط النحلة على زهرة مفتحة فترثت في مشيها ووقفت تنظر مبهوتة واجمة الى الازهار والى المياه والى الشمس فتهافت عمرو عليها وجعل يلطف هذا الشجن الذي يخامرها ويربها الطبيعة الباسمة المتوردة ويعرض امامها مشاهدتها وهو عالم بالاثر الحسن الذي قد تحدثه هذه المشاهد في روحها وعواطفها ، ولما طلعت الشمس التفت اليها قائلاً : « انظري اليها فأنها في مثل روائك وبهائك ولكن انوارها لا تلبث ان تذوب في خضاب الشفق بينما تسبح انوارك في روعة باقية وبينما تغشى الناس عشية وبكورا ؟

فلم تجد مارية في ائتلاق الشمس ما يشحذ حواسها ويرهف مشاعرها ، فقد احالها المرض الى دمية خرساء فعاد عمرو يهدد آلامها وجعل يربها النهر دافقاً موارد تدافع لججه على العشب وكان يقول لها : الا تسرين بهذا الماء وهو يشتد ويمصطخب ! انه كعواطني تمرداً وتوثباً ، ثم اقبل عليها يصور لها هذا الذي احتوته الطبيعة من صور فنانة ومشاهد خالصة ولم يتردد في ان يشرح لها الحياة ومنحها

الحسنة كالشباب والصحة والحب والأمل الباسم ولذاذة القبل المعطرة فصدفت عن
احاديثه كلها وقطبت حاجبها من تملل واثنت واجفة من يأس .

وكان السعال يضنيها ويؤلمها فما عادت ترى في هذه الطرف التي اشتملت
الطبيعة عليها مسلاة نفسها الخائرة الهائمة وهي التي وجدت في الماضي لذة الحياة
ومرحها ونشاطها .

وبغته رفعت مارية عينها الى الأفق وراحت تضحك ضحكة حلوة ساذجة ؛ ثم تابعت
طوافها حتى انتهى بها الى سرادق من عزل في جنة القصر فتسربت اليه وجلست حيال
مقعد حجري في ناحية تشرف على النايح الهادرة ، وكانت اشعة الشمس لا تبرح
خفيفة فلذت هذه المشاهد البارة التي عرضت لها وتفتح ذهنها والتمع وحال
قطوبها الى ابتسام ؟

وكان عمرو يلاحظ هذا التحول الفجائي الذي طرأ على شعورها قهقيل وجهه
واشرق ورجا ان تجد هذه الحبية الغالية في الطبيعة تلك العناصر التي تحتاج اليها
لامراع حياتها بالفرح والصحة والشباب ، ولما تكلمت خيل اليه انه يسمع ذلك
الغناء العذب الذي انصت اليه قبل ايام وهي يومئذ عن كذب منه .

طفقت مارية تتحدث الى عمرو عن الشمس والحياة والحب والألم وعمرو يعي
احاديثها واحزانها المرة تجذبه اليها ، فاذا املها الحديث الى ذكر المغابط والمفارج عاد
مراحا ضاحكا وكان يشعر بجوى شديد حينما تتحدث اليه عن الألم والسهد والاغتراب .
عاشت مارية في القسطنطينية تحت جو بديع يزخر بالوان قسانة ، وقضت
طفولتها في قصر غصت جنباته بخمائل زاهية تشرف على بحر ازرق وادع مطمئن
لم تلمحه ثائراً جائشاً ، ولا ابصرته عاصفا صاحباً فاثرت هذه المشاهد الجذابة في
خلقها وسلاقتها فاذا هي رقيقة ناعمة واذا هي ترث من الطبيعة البهية خيالا ساميا
وروحا متطامنا وادعا يستأنس بالجمال والكمال ، ولما قص عليها عمرو حديثه عن
المنذر انتهت في نفسها هذه السلائق الطيبة الكريمة فعكفت على جمع الأزهار المختلفة

حتى انتظمت في يدها مجموعة بديعة من الاوراد الحمراء والبيضاء ثم راحت تدنيها من
فيها فرحة قريرة مزوفة لامن خمر ولكن من اريج .

ولما اطمانت الى جمع الازهار سألت حبيبها الفتى ؟

— متى يفيء الملك الى سربه ؟

— انه غير بعيد من القصر ، افلا تسمعين هذه الالهارج العذبة التي يحملها

الهواء الرطب الينا في هذا الصباح ؟ انها اصوات هؤلاء الفرحين الذين راحوا
يستقبلون الملك على ابواب المدينة !

— مازلت اذكر كلماته الرقيقة حينما ارادني رفيقة له في رحلته الى القسطنطينية !

وفي تلك اللحظة خيل الى ماريه انها تسمع صوتا يناديها فالتفتت الى ناحية الصوت
فاذا هي تلح هنداً على شرفة القصر المطلة على الحديقة وقد راحت هند تضحك
وتصفق يديها قائلة :

— ألى هذا الحد الهتك مناعك عن هند ؟

— عمي صباحاً يا هند !

— ماذا كنت تفعلين في هذا الصباح الباكر ؟

— كنت اجمع ازهاراً . . .

— لمن تجمعين ازهارك ؟

— للرجل المنتصر في تدمر !

— ليتك كنت بجاني على الشرفة اذن لرأيت معي موكب الملك

— اتكلمين جداً ؟

— اسرعي ، اسرعي . . . فان الموكب يكاد يدخل القصر ! .

فضحكت مارية والتفتت الى عمرو قائلة :

— وانت ماذا تفعل ؟ اتظل في مكانك فلا تستمتع برؤية الملك ؟

— سألحق بموكب الملك منذ هذه اللحظة .

— كنت اضلك تمكث هنا الى جانبي ؟
— اذا الحفت علي في البقاء حيالك فعلت .
— هلم معي الى الشرفة
وعاد عمرو ومارية الى القصر فانضما الى هند ...

دمشق مجنونة عابثة ! دمشق مزوقة نشوى !
تسكر المدن كما يسكر الانسان ! وللمدن خمرة ولكنها ابلغ اثرأ من خمرة تذهب
بلب الانسان !

لقد وثبت دمشق في اليوم الخامس عشر من حزيران الى لقاء المندر
الغساني فاحتشد في طرقاتها النساء والاطفال والشيوخ وطفق جميع هؤلاء يغنون
ويتصايحون ويرقصون ويعزفون حتى ضاع ضجيج رقصهم في ضجيج المعازف
ثم دخل موكب الملك الى المدينة فكان لاندحة له لبلوغ قصر البريص عن
المرور تحت ثلاثين قوساً ضربت في الطرقات والازقة تسكريما لذكرى معركة تدمر
ولما عرض الموكب للجماهير صدف هذه عن هداها وضيعت وقارها فتدافعت
تشق الصفوف لتطلع على الموكب .

يفعل النصر في الجماعات ما تفعله الخمرة في رأس شاربها ولكن للخمرة التي
تستسيغها الجماعات نشوة خاصة فيما تعقل بنت الحان لسان شاربها وتطفيء جذوة
تفكيره وتخمّد احساسه وتنقله الى عالم يعج بالصور الرديئة اذا لهذه الخمرة الناشئة
عن النصر نشوة في الجماهير توقظ اذهانها وتفتح عواطفها وتكشف لها عالما يعج
بالصور الجميلة الموقنة .

نعم ان الجماهير لا تلبث ان تضيع وقارها وتعقلها تحت تأثير الاحساس الجديد
الذي يبعثه الانتصار فيها ولكن صدوقها عن رزاتها لا يغطي فضائلها .
لقد توسط الموكب المدينة واطل الملك المندر على الجماهير راكبا جواده

الاييض فتدافع الناس الى صوبه مغرقين في الهتاف والدعاء وكان لباسه الارجواني المذهب فتنة لناظرية .

باللوعة المشهد ! لقد كان تاج المنذر شمس هذا المهرجان وكان الصليب الذهبي الذي يعلوه موضع حديث الناس !

وقفت امرأة في شرفة منزلها تتطلع الى الموكب فلما عرض لها الملك في لباسه وتاجه وصليبه صاحت ما اجل هذا الذي تقع عليه العين في هذا الصباح ، له الله من ملك كريم جميل فتان .

وهناك في ناحية اخرى فتيات ساحرات بالغن في الهتاف وصحن :
— ياله فتانا ... لها الله امه التي ارادته ساحراً كما يشاء السحر .

واخذت الازهار والرياحين تتساقط على الملك وقواده كالاتي المنهمر ، حتى حال الموكب الى ربيع ضاحك وحتى توارت الارض خلف غمامة من ريحان واقحوان ولكن هذه الافراح والمغايط ، وتلك الذكريات الطالحة نبلا وشرفا ومجداً لم توقظ في المنذر غير شعور واحد هو شعور الالم الذي صاحف في ميدان تدمر فظلت عيناه شاخصتين الى الجماهير ولكنه لم يكن يرى شيئاً ، لان غمامة كثيفة كانت تمنعه ان يتبين الناس .

وكان يلوح شاجناً حزينا في وسط هذا الفرح الصارخ ففطن الناس لأساه وجواه فراحوا يتهايمون وقال بعضهم لبعض :

— ليس في سحته ما يروق ، انه جميل ولكن جمال وجهه تغطيه سحابة حزن عميق ، وقال فريق من الناس :

— ولكنه ناصب مكدود ! وهو لم يسترح بعد .

وهناك امرأة جعلت تصفق يديها ، فلما اخذ بصرها الملك ورأت وجهه الجاهم راحت هامسة !

— يخيل الي ان الشجن قد نزع من نفسه ما بهجها ويسعدها وارق على

سنوات شبابه جمع احزان الشيخوخة .
وهناك امرأة اخرى كانت عن كذب من الاولى فلما سمعت كلماتها الاخيرة
صاحت قائلة :

— اترين في هذه الطلعة الذابلة الغارقة في سحب التفكير طلعة الرجل الظافر
الذي يعود من المعركة ضاحكاً ممراحاً ؟ اكاد لا اصدق هذا الذي يقال عن بلائه
في اعدائه .

كاد هؤلاء الذين نهّدوا من بيوتهم للاستمتاع بمشهد الموكب الظافر يشكون في
النصر ولكن مشهد الرايات الخافقة ما عثم ان ابادما علق بنفوسهم من ريب وسوء ظن .
ثم ابتسم الملك للذين يحيونه ابتسامة عذبة حلوة نسخت من قلوبهم آيات الشك
فعادوا يؤمنون بفوزه وطفق فريق يعتب على فريق ايغاله في الشك وقال بعضهم
— انه تعب وفي حاجة الى ظل ظليل .

وهكذا بدأت الجماهير عقيدتها في الملك فاصبحت تلمس لحزنه اكثر من
عذر بعد ان لجت في وهمها وحسها !

دخل الملك قصر البريص يلتف به ولداه النعمان وامروء القيس وابن عمه جبلة
ابن الایهم ، فاستقبله رجال القصر وفي طليعتهم عمرو بن الحارث ومارية وهند ،
وكان اللقاء مؤثراً شجياً فقد اخذ المنذر عمراً بين ذراعيه وغمره بقبلاته كأنه لم يره
منذ سنوات وجعل عمرو يوغل في بكائه كأنه لم يتوقع ان يؤوب الملك مثل هذه
الآوبة السعيدة الهائلة ، ولما هدأت النفوس قال الملك المنذر :

— اي عمرو قل لي كيف انت ؟

— لقد عشت آمناً تحت فيثك ، وسأظل آمناً . . .

ولم يقل عمرو اكثر من ذلك فالتفت المنذر الى ماريه واردف :

— كيف كانت صلاتك يا ماريه ؟

لحنت رأسها وقالت مستحيه :

— كانت صلاة النفس المحطمة الضارعة ؟

ثم رفعت عينها اليه وقدمت له مجموعة ازهارها المتضوعة وقالت :

— هذه الازهار ؛ هذه الازهار ، هي لك وقد جمعتها في هذا الصباح الباكر

لأنثرها على قدميك ايها المنتصر في تدمر ؟

فقبل المنذر هديتها ، ومضى يلثم الرياحين قائلاً :

— لقد خيل الي وانا اشم عبق ازهارك انني اجد صلاة نفسك البريئة في الوان

هذه الازهار ، ثم التفت الى هند واردف :

— وصلاتك انت ؟ كيف كانت صلاتك ؟ فقالت متخافتة :

— لقد دعوت الله ان يكون سلم بينك وبين عدوك ؟

— لا اكذبك الحقيقة فقد ظلت صلاتك الغالين والمغلوتين فما انتهت المعركة

حتى طوينا النفوس على حب ... ثم هز يديها قائلاً :

— لن انساك في صلاتي فلعل الله الذي اطل علينا في تدمر من خلال

دعائك يرد اليك دروع اييك ؟

دخل الملك قاعة فسيحة ازينت بالنقوش البديعة فجلس الى مقعد وجع اليه

ولديه فاجلسهما الى يمينه ، ثم دعا عمراً وجبله فاجلسهما الى يساره بينما كانت هند

ومارية جالستين في الوسط وكانت الجماهير الحاشدة حول القصر قد بدأت تتفرق

وتعود الى مساكنها ويوتها فجعل المنذر يقص على ذويه نبأ تلك المعركة الحمراء

بلهجة حزينة يائسة توقظ العواطف الراكدة ، ولما وصف فلول اللخميين المتناثرة

في البادية في ذلك المساء الخافل بالخواف ضحك ضحكة جشاء مرهوبة ومضى قائلاً :

— غفر الله لي فلقد قسوت على قومي وكانوا احرياء بالرحمة ، ولم يقل شيئاً

غير هذا ثم راح يقبل ولديه اسوان باكياً ...

وبعد قليل نهض الملك الى حجرة منفردة اعدت لنومه ، وكان التعب الشديد

لا يبرح بضنيه ، فاستلقى على سريريه واطبق عينيه فلم يستطع رقاداً ، وظلت تلك الاحلام البشعة التي ازدحمت في خاطره في مساء المعركة تغالبه وتترامى له في الوقت الذي اراده لعزلة هائلة ينقطع فيها الى احلام لا تخالطها هواجس مرة .

كذلك بقيت عيناه مفتوحتين للصور البشعة التي مثلت له ، فروع من هاته الصور الربداء مشهد اللهب يطفو ثم يمتد ، ويظل على امتداده وانتشاره حتى يتصل بخيام الحيريين والارض يومئذ تستقبل ابناها الهالكين بين ذراعيها .

ثم عرضت له تلك البقايا المحطمة وهي راجعة الى بلادها تنقل موتاهها وجرحاها الى بيوت يغشاها الترمل والحزن والآياس العابس ! نخيل اليه انه يسمع نشيج الاموات ، وبين هؤلاء الذين خمدت في نفوسهم بروق الحياة واشعتها المقدسة اب لطفل وليد ، وزوج لفتاة راغبة ، وابن كريم لامرأة يائسة ؛ ثم تراحم هذا النشيج في صدره وروحه ، حتى عادت كل جارحة من جوارحه غاماً مريراً مؤلماً وحتى خيل اليه ان حياته لا تجد غذاءها الا في هذه الانعام الحزينة الشجية .

ولم يستطع رقاداً فنهض الى النافذة المطلة على النهر ففتحها رجاء الابتعاد بالهواء وهو يرجوان تلطف النسيمات المعطرة شجوه وبكاءه بل لقد كان يود لو ان الطبيعة الفاتنة تنسيه بعض هذا الالم .

ثم عاد الى سريريه وقد استأنس بالنسيمات العذاب ففتح لها صدره ولكن هذا الهناء الذي خالطه مالبث ان تناثر كحلم فاذا الحزن الممض الموجه يطرق نواحي نفسه ويستقر فيها ثم حملت اليه النسيمات تسجييع الطيور المتنقلة الجوابة في فضاء الحديقة ففضى ينصت اليها من غير ان يبصر طوافها وتنقلها ، فبدأ تسجييعها بديعاً فتانا ولكن نغماته جاءت مترعة بالاسى والحزن فلم يسترح اليها وهو الواله الشاجن المحتاج الى النعم المفرح الذي يرقق العواطف والمشاعر .

ولما سجا الليل اخذت هذه الانعام الجاهمه تذوب وتفتى في ذوائب الغسق فلم يسمع شيئاً من اجراسها وكان الهواء الرطب قد اسكر نفسه الواهة فاغمر عينيه

ونام نوما عميقاً نمتله من يقظة رابعة الى حلم ربما كان في مشاهدته اروع من اليقظة
وفي صباح اليوم التالي بكر في النهوض من فراشه فدعا اليه جيلة بن الايهم ولم
يشأ ان يشرك في مجلسه احداً من ابناء عمه ولما دخل جيلة على المنذر اتاه شديد
السبح فلم يفته قلقه وجواه فجلس عن كثب منه، واراد ان يتحدث اليه
فاني وقال له :

— لاتسألني عن هذا الذي اعانيه ، فان مرضي روحي وانا في حاجة الى علاج
من نوعه، ولقد دعوتك الي لا كاشفك بالأمر الذي ازمعت عمله ، وانا مطمئن
الى حبك وعطفك ؟

— يخيل الي انك تتوقع مكاره جديدة تخشى اسواءها .

— لست مخطئاً في هذا الذي تقول فان قلبي ينذرني بحوادث تد لاتحمل اليأس
شيئاً من السعد .

— اتخشى ان يعود النعمان الى حشد جنوده بعد تلك الهزيمة الشنعاء التي لحقت بولده؟

— كلا ، فاني ماعدت اخشى النعمان بن المنذر والكني اخشى شخصاً آخر
فاجفل جيلة واردف :

— اذن فانت تخاف كسرى حليف النعمان ؟

كلا ، كلا ، يخيل الي انك مازلت بعيداً عن الحوادث الماضية ، وقد يكون هنالك
ما يبرر جهلك هذه الحوادث لان حياتك المنعزلة حالت بينك وبين شجون مروعة
تجاذبت غسان في ثلاث سنوات ! ..

— اذن فهناك اشياء لم افهمها بعد ...

— نعم هنالك اشياء مضنية ومذبية يعسر على من كان شاباً مثلك ان يفهمها !

— من الرجل الذي تخافه هذا الخوف الشديد ؟

— يوستينوس !

فوثب جيلة صائحاً :

— انخشي قيصر ؟

— نعم ، فلهذا اشتدت المنافسة بين غسان والقسطنطينية خلال ثلاث سنوات لبثت فيها منقطعاً عن قيصر ، وكان هو من ناحية اخرى يغري بعض اصدقائه ورجالاته بقتلي ، فما استطاع سيلا الى النجاح ، ثم رأيتني مسوقا الى مصانعته بعد ان تداخل الفرس في اراضيه وبعد ان قتل قائده هيباس عدوي الالذ فصالحته على ان تكون فلسطين ولبنان من اراضي غسان وعلى ان تكون علاقة غسان بالقسطنطينية كعلاقة ملوك العراق بحلفائهم الفرس ، فلم يرفض هذا الذي اردته منه ، وهو يعلم ان خلفه يوستانيوس كان صديق ابني الملك الحارث ؛ وقد اقطعه في مقابل هذه الصداقة فلسطين ولبنان وتدمر وحمص (١)

لقد دعاني يوستينوس الى زيارته في القسطنطينية فما رفضت هذه الدعوة واما قليل الحق به ؛ ولكنني لا ارى في هذه الزيارة خيراً وقد بت انخشي ان تحمل الى غسان بعض مالا يروق .

— ومذا يستطيع قيصر ان يفعل وهو مروع بالفرس والحيرين ؟ وليس في قدرته ان يستغني عن سيوف الغساسنة ا وهو بعد لا يجمل مضاء هذه السيوف التي عرف اصحابها في كثير من المعارك والملاحم ا وهل في وسع قيصر ان ينسى فضل ابيك الحارث بن جبلة على يوستانيوس قيصر ؟

— ولكن الروم اصحاب دهاء ومكر ا

— اذن فانت تخشى ان يكر قيصر بك ؟

— نعم نعم !

فهز جبلة كتفيه ضاحكاً وقال :

— لن يستطيع يوستينوس ان يغدر بك وانا اراهن على انه لا يفعل ا

— ولكنك لا تعرف هؤلاء الروم .

(١) رينه دوسو في كتابه « تاريخ العرب في سورية قبل الاسلام » ،

— قد يكون هذا الذي تقوله صحيحاً لو كان يوستينوس رجلاً دهاً وحزماً ولكن الرجل ضعيف حتى أصبح يماثل النساء في ضعفه، ثم انت سيد غسان وقتاها المغوار فليس في وسع هذا الرجل ان يفكر في العبث بوجدادك . . . ماذا أفانتك ان قيصر يحاط بدساتس قواده ورجال قصره ؟ انسيت خيبته في قمع فتنة لازارياس قائده في افريقيه ؟

— اذن فانت لا ترى ضيراً في زيارتي القسطنطينية . (١)

— غسان من ورائك ، وريعة تحت لوائك . وطى من جملة حلفائك . ماذا ايكون لك الريم الموتق في غسان، والمجد الذي لا يبل في ربيعة وطى ثم تخاف قيصر ؟ — لقد اذكرتني غسان ، وحببت الى نفسي فتية ربيعة وطى ؛ حقا ان جياتنا لا نعرف كبوا في ملحمة من الملاحم ! سأذهب الى قيصر في الغد . — اتذهب في الغد ؟

— نعم .

— اهذا كل ما تفعل ؟

— لقد اراد قيصر ان اصحب ولدي في هذه الرحلة ! فقال جبلة :

لا بأس ان يمضي احد بنيك معك ولكني افضل ان يبق ولدك النعمان في الشام فانه قى ايه مروة ووفاء وبسالة ونبل وهو فوق ذلك شجاع صليب ؛ وغسان تحبه وترى في شبابه وميض لا ينطفيء ؛ انه سيد فرسان الشام وفي قدرته ان يقي شرف ايه .

— الا تذهب معي انت ؟

— دعني هنا عن كئيب من ولدك . . .

— لقد ادركت ما يجول في خاطرك فانت تحب البقاء في الشام لتكون عن كئيب

(١) روى سديو في كتابه تاريخ العرب ان الخلاف ظل على شدته بين

يوستينوس والملك المنذر خلال سبع سنوات .

من آل ربيعة اخوالي واخوالك ...

— نعم حتى اذا وقعت الواقعة رحلت الى ربيعة استصرخها واستنفرها فلا
يتردد شيبها وشبابها في اصراخ غسان .

— اذن فابق انت هنا على حراسة مشارف الشام وليقم ولدي النعمان بقسطه
في حمايه حوران والبلقاء وفلسطين ، او اه اوددت لو ظل ليبد بن عمرو حياً ولم
تشتعل عليه سهول تدمر اذن لجعلته سيداً في بعلبك وحصن وحماه ! لقد حلق كالنسر
في يوم حليلة ولكن جناحيه لم يحمله في يوم تدمر ، فاهي الالهة قصيرة حتى
انحدر من عليائه فاستقبلته الاسنة والرماح ..

انما لذكرى مؤلمة هذه التي يثيرها مصرع لببد في نفسي ، على ان الشيء الوحيد
الذي يعزيني هو ان دمه الغالي اريق في الحومة لاطفاء جذوة البغض في صدر ابي
قابوس الملك فلعل ملك العراق بعد موته لا يلحف في الثأر بآبيه ..

— النعمان صاحب ثأر ومن حقه ان لا يغمض جفنيه ولو اريق في كل صباح
دم كدم لببد بن عمرو ، ولكن النعمان نبيل وعظيم ، وجدته غسانية فلا اظنه يحالف
قيصر الروم ان عليك مهما حيت نزوات الحقد في صدره !

— لو تناسى ابو قابوس حقه ، ونام عن ثأره وفتح لفسان صدره حالياً
بالصفاء لكان ثمة عناق بين الشام والعراق ؟

— اراهن على انه ينسى ا ..

— اي جيلة الطيب القلب لقد كاشفتك بهواجس النفس وآلامها ولم اكتمك
شيئاً من هذا الذي يخالجي فهل انت على استعداد للعمل الذي يشرف غسان ا
— هاك يدي وقلبي وشرفي ..

— حسبي كل هذا منك ا ادع ولدي الي ، نعم انطلق اليه ، وقل له ان اباه
يزهي بكبريائه وبسالته ؟

برح جيلة العرقة ثم عاد اليها بعد قليل مع النعمان الفتى الصريح الجليل فاحتبه

المنذر بين ذراعيه وطلق يقبله في لفحة وحب وكان الذكاء بعض آيات وجهه
هذا الفتى الضبيح فلم يفته هذا الحزن الذي يتأكل نفس أبيه ، فجلس عن
كتب منه ومضى يحدق اليه كأنه يريد ان ينتزع الكلمات من فمه ثم قال له :
— أبي لقد دعوتني اليك فحضرت !

— قل لي أنت شجاع يا بني ؟

— أبي ان في سؤالك هذا لنغمة غريبة تضطرب لها نفسي فهل اصبحت تخشى
عدواً وقد هزمت اعدائك في بطاح تدمر ؟
— ولكن اجنبي ، هل انت شجاع ؟

— أبي ! الا يكون شجاعاً من كان جده لأبيه الحارث بن جبلة ، وجده لأمه
الحارث بن عباد البكري ؟ (١)

فتهلل وجه المنذر وقال مترقفاً شاجناً :

(١) تزوج المنذر الغساني ليلي المفراء ابنة الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة
البكري من اهل العراق وكانت امرأة جميلة فولدت له النعمان وامراً القيس ،
والحارث بن عباد هذا من فحول شعراء الطبقة الثانية في الجاهلية ، كان من سادات
العرب وحكامها وشجعانها الموصوفين ، ولما كانت حرب البسوس بين تغلب وآل
شيبان اعتزل هو القتال واستعظم قتل كليب لسودده في ناقة وقع في بيته مع قبائل
من بكر منها يشكر وعجل وقيس بن ثعلبة وكان رأسها وشاعرها في زمانه فزاع
سنان ربحه ووتر قوسه وقال لبني شيبان : لقد ظلمتم قومكم وقتلتم سيدكم وهدمتم
عزكم ونزعتم ملككم فوالله لا نساعدكم فانصرفوا خائبين حتى اسرف المهلهل شقيق
كليب في القتل وقتل بجيرا بن الحارث : قيل ان المهلهل لقيه يوم واردات فقال
من خالك يا غلام وبوأ نحوه الرمح فقال له امرؤ القيس بن ابان التغلبي وكان على
مقدمتهم في حروبهم ، مهلاً يا مهلهل فان عم هذا واهل بيته قد اعتزلوا حربنا فلئن
قتله ليقتلن به رجل لا يسأل عن نسبه فلم يلتفت المهلهل الى قوله وشدد عليه فقتله
فقال عند قتله : بؤ بشسع نعل كليب فثارت الحية بالحارث ونادى في قومه بالحرب

— ما شككت في شجاعتك ولكني اردت ان استوثق منها فقد كان ابي الحارث يفعل فعلتي ويمتحن شجاعة بنيه ، وطفق يعيد عليه هذا الذي افضى به الى جيلة حتى اذا فرغ من قصته التفت الى الفتى فاذا هو يراه يتلظى حماساً وقد لاحت في عينيه الجيلتين ومضات خالها المندر لهباً فتناول يده وقال له :

— انها لومضات مقدسة شهدتها في عيني ابي وفي عيني جدك الحارث بن عباد ا اي بني لقد جعلت غسان تحت ظلك خلال غيبي ، فكن لها ذلك الأب الشفيق الذي يهدد آلامها ، ويلطف كربها ، ويمشي بها الى الانوار لا الى العار . . يا علقى النفيس ا اياك ونزوات الشباب فانها كالجواد العائر يكبو بصاحبه حتى لا يستطيع نهوضاً ، احترس ان تصطنع الأعاجم في امور ديناك فانهم يفسدون عليك الأمر ، ويحولون بينك وبين فضيلة تتمتع بها ، قل لي اوعيت نصحي ا

— ابي انا من علمت أمس ، ومن ستعلم غداً ؛ انطلق الى قيصر فإنه لن يستطيع ان يبلغ منك ما يبلغ العدو من عدوه .

وقال قصيدته المشهورة التي كرر فيها قوله « قربا مربوط النعامة مني ، اكثر من عشرين مرة ؛

وكانت النعامة فرسه لم يكن في زمانها مثلها فجاءوه بها فجزناصيتها وقطع ذنبها وكان اول من فعل ذلك في العرب فاتخذته العرب سنة اذا قتل لاحد من عزيز

وولي الحارث امر بكر وشهد حربهم وكان اول يوم شهده يوم قضة وهو يوم تحلاق اللعم لأن بكرأ حلقوا رؤوسهم ليعرف بعضهم بعضاً وقيل انهم التقوا بمكان اسمه « عويرض » وصافح الحارث القتال بنفسه وكانت الدائرة على تغلب فانهزمت اقبح هزيمة وفيها اسر المهلهل وهو لا يعرفه فقال له دلني على عدي « اسم المهلهل » وانا اخلي عنك فقال له المهلهل عليك عهد الله بذلك ان دلتك عليه ؟ قال نعم قال فانا عدي فجز ناصيته وتركه . ولد الحارث بن عباد سنة ٥٢٢

للسيخ ومات سنة ٥٧٩

الاغاني وكتب الادب .

— تعال الى صدري وبرد بقبلاتك الندية سفير نفسي المتأجج ، تعال يا بني تعال!
وراح الأب يحتضن ابنه ؛ وفي العين دمع ؛ وفي النفس صرير ؛ ثم هدأت
ثورته وردت اليه قوته ؛ فنهض واقبل على ملابسه يخلعها عليه ؛ وجبلة والنعمان
ينظران اليه ثم مضى جاثياً بالقرب من سريره واخذ يصلي صلاة حارة اودعها كل
ما في جانحيه من رجاء وامل والم وبث ونجوى ؛ وكان صوته ينبعث في فضاء
الغرفة كجرجرة السيل ؛ وكانت صلاته مزيجاً من صلاة الجندي وصلاة الأب فما
انتهى منها حتى كان لها اثر كبير في نفس ابنه فقال له راعشاً :

— لقد روعني تضرعك كما روعني حنوك ! فلعلك مازلت تخشى الا يكون معاد
من هذه الرحلة : ابي ابي ! فقال المنذر هامساً :

— صه ، فأنا صلاتي لم تكن صلاة خوف وضراعة ولكنها صلاة الجندي
الذي يدخل الحومة ، الى الغد يا بني الى الغد ، واقبل عليه فشد يده مصالماً فأهوى
النعمان على يديه بقبلاته الحارة وهو يجمجم ابي ابي !

وكان جبلة ينظر اليهما اسوان حزيناً وهو يحاول ان يوارى بكفه دموع عينيه
الواكفة الساجدة ، ثم انقلب المنذر الى حجرة عمرو بن الحارث مع ولده النعمان
وابن عمه جبلة بن الاهيم وعمرو يلهو بقص الأحاديث الممتعة على مارية وهند
وهما صامتان وادعتان متلذذتان بحديثه عن القسطنطينية ساكرتان بالأقاصيص
التي يرويها عن ليلي الساحرة .

ولما اطل المنذر على عمرو اوغلت مارية في ضحكها وشفقت هند بيديها وصاحت
الفتاتان :

— يا لها من امرأة غريبة .. سنراها معا اليس كذلك ؟ !

فاستعذب المنذر هذا المشهد وتقدم من مارية متحياً وقال لها :

— يخيل الي ان الحديث ذو شجون ، آه انك لاتحاولين الانكار في هذه المرة
يامارية ؟ فاطرقت حياء ولم تجب .

فضحك المنذر و اردف : يالك من فتانة ! ثم انحنى ناحية هند .

— وانت ؟ اتخجلين مثلها ؟

— مولاي ! ..

— اراهن على ان للحديث علاقه بنجوى القلب ؟ .. فاصطبغ وجه هند بلون

الورد و اردت ان تتكلم فما استطاعت كلاما فالتفت المنذر الى عمرو وقال له وهو يضحك :

اكانت احاديثك مثيرة الى هذا الحد ؟

— كنت احدثهما عن القسطنطينية وعن ليلي الساحرة : فصاح المنذر :

— ليلي الساحرة ؟ وكان طيفاً مر بذهنه على حين غرة في هذه اللحظة فوضع

يده على جبينه كن يفكر واخذ جبلة والنعمان وامرؤ القيس الصغير وعمرو ينظرون اليه وهم يهمسون :

— ليلي الساحرة ؟ ليلي الساحرة ؟

لقد راح المنذر الى الزمن القصي البعيد فاستعرض صورته وذكرياته واشخاصه

وجعل يبحث عن خيال ليلي ، فاثارت حيرته هذه جبلة فسأله قائلاً :

— اكنت تعرف هذه المرأة العجيبة ؟

— رويدك يا جبلة فان ذكريات الماضي قد عادت تملأ نفسي في هذه الساعة ،

كنت في سن خمس عشرة سنة حينما هبطت ليلي حوران وكانت الاحاديث عن

ليلى كثيرة وقد ازدحم الناس حولها وهي لذلك العهد في اطوار بالية ، ثم رأيتها مرة

اخرى تتردد على امرئ القيس بن حجر ملك كندة وكان في ضيافة السموأل بن

عادياء اليهودي ، ثم رأيتها مرة اخرى في قصر الفمارة وكان معها امرؤ القيس

ورأيتها كذلك تخلو بأبي الحارث بن جبلة ، ثم لم ارها وانقطعت عني اخبارها منذ

ذلك العهد حتى حسبتها مائتة .. فهل هي في القسطنطينية ؟

— نعم ؟

— وماذا تفعل هذه المرأة في بلاد الرومان !

— تعرض الحب على الناس فتبيعه بالثمن الباهظ .

فضحك المنذر وقال : انها لتجارة رابحة عمالها الرجال والنساء على السواء .
سنسافر في الغد الى القسطنطينية فهل يسرك ان تسافري معي يامارية ؟ ناشدتك الله
الا تقطعي الحديث على الملك فانه يعلم هذا الذي يجول في نفسك ؛ ويعلم كذلك
ان هنداً ستلجأ الى هذه الساحرة ولكن ليس من اجل الحب ؛ بل من اجل دروع
ابها . . . لقد تذكرت ، بلى لقد تذكرت اشياء كثيرة فان هذه الساحرة لم تكن تفارق
امراً القيس ولو لحظة قصيرة ، وكان ابي يعرف الشيء الكثير من امر هذه
المرأة وكان كذلك متصلاً بماضي حياتها . . .

وسكت الجميع فلا همس هناك ولا ترجيع وكان الحديث عن هذه الساحرة قد
اثار خواطر الجميع فجعلت هند تفكر في هذه المرأة المحاطة بالمعصيات والأسرار
واخذت تقول في نفسها هامة :

— لقد قيل لي انها تعرف الشيء الكثير عن حياة ابي ، وقيل لي انها شهدت
آلامه وشيعته الى حفرة الاخيرة ، اذن فسأسألها معنى هذه الأحاجي التي اكتنفت
حياة ابي في القسطنطينية .

وكان المنذر عن كذب منها فما فاته همسها فقال لها :

— سنبرح دمشق في الغد الى القسطنطينية ، قالت :

— افي الغد ؟

— نعم في الغد أفيلذك يامارية ان ترافقك هند في هذه الرحلة ؟ فقالت مارية :

— اني احبها كما لو كانت اختي . .

وانت يا هند اتحبين مارية ؟

— احبها كما لو كانت اختي !

فضحك المنذر ومضى قائلاً :

— ما اسرع نمو هذا الحب في روجيكما ! ..

وبينما كان رجال الحاشية يعدون معدات هذه الرحلة الشاقة الجاهدة اذا عمرو
ابن الحارث يعود الى الفتاتين مارية وهند ليتابع حديثه عن الساحرة ليلي ، قال عمرو :
— لقد وصلت في حكايتي الى ذكر العيشة الراغبة التي تعيشها ليلي في القسطنطينية
ولكن الملك قطع علي الحديث فلا بأس الآن من المضي فيه الى النهاية ..

هند ! افني وسعك ان تتكيري وصفاً صحيحاً لمنزل هذه المرأة ؟ اشحذي ذكاءك
قليلاً فلعله يخلق في مخيلتك صورة حقيقية لذلك المثوى !
فقالت هند :

— لعلها تسكن كوخاً ؛

— ماذا تقولين ، أليلى تسكن كوخاً ؟

— اذن ..

— فكيري جيداً ..

— اها منسك تنفي اليه ؟

— ليست ليلي الساحرة من العابدات الراكعات حتى تنفي الى المناسك .

— اذن فهي تسكن قصرأ ..

— ماذا تقولين ؟ أدار في خلدك ان امرأة تصطنع السحر تحب حياة القصور ؟

فضحكت مارية وقالت : ما اغرب اقوالك هذه ، ناشدتك الله ان تشرح لي
هذا الغامض ، اذا كانت الساحرة لا تنفي الى المناسك ، وكانت لا تحب عيشة القصور
فهل يعني ذلك انها تعيش في الجبال ؟

— فتبسم عمرو وقال : دعي هنداً تبتدع لنا الصورة الحقيقية لمنزل الساحرة .

فقالت هند :

— اذا كانت ليلي لا تسكن كوخاً ، وكان منزلها بعيداً ان يكون ديراً او قصرأ

فليس شك في انها ...

• — ماذا ؟

فتابعت هند حديثها قائلة :

— فليس شك في انها تسكن قبرا !

فضحك عمرو حتى انفرجت شفتاه من فرط الضحك ، وجعلت مارية تصفق يديها عبثاً ولهواً فكادت هند تفقد وعيها ، ورأى عمرو آثار الدهشة والالام البادية على وجه هند فحاول ان يزيل بعض كدها فقال لها :

— انها تسكن في اطلال عرضها عرض الفضاء وعمقها عمق الدأماً . . ثم انثنى

ضاحكا فأبهج ضحكه هنداً ، ولذها في ضحكه جرس ساذج غير متخايف فلم يسعها وهي المراح الطفارة الا ان تسترد مرحها وزهوها فقالت له :

— لقد امللني وحقا ان اسئلك كانت مضنية مؤلمة .

فضحكت مارية وقالت لها :

— لاسيل الي عدله فإنه يحب المزاح كثيراً ثم توابت على ركبتي عمرو

واخذت تعبت بشعره المستفيض على كتفيه قائلة :

— اذن فسنسافر في الغد ؟

— نعم في الغد يا حبيبة البنفسج والورد ؛ وتلامست ايديهما ؛ فكان من هذا

اللس هزة الى روجيهما جعلتهما في اطار بديع من قبل وعناق ؛ فنسيا العالم كله ، والماضي كله ، والمستقبل كله ، ولم يأبها لهند التي وارت عينها بكفها حتى لا تشهد هذا هذا الحب الصحيح الصريح .

وفي صباح اليوم التالي برح المنذر وحاشيته مدينة دمشق يحوطه موكب نخم

من عيون الغساسنة وبطارقة الروم ، وقد خرج جميع هؤلاء الى وداعه

واتجه هذا الموكب في طريق حصن ليستأنف سيره منها الى القسطنطينية عن

طريق حلب وكانت هند ومارية في تلك الاثناء تفكران في السعادة التي تنتظرهما

في القسطنطينية ؟

الفصل التاسع عشر

مجنونة

تركنا في الفصول السابقة حسان بن ثابت يشخص الى بصرى تلتف به عصاة كريمة من فرسان غسان ارادهم جبلة بن الایهم حراساً للشاعر وتركنا قوافل ابي سفيان بن حرب ترتاد قرى الغوطة وضواحيها في طريقها الى بادية العرب فاما حسان فقد بلغت به هذه الرحلة مدينة بصرى فنزل بدير هند وقضى ليله في ضيافة الراهب بحيرا وفي صباح اليوم التالي استأنف الشاعر سيره الى ضواحي شاطيء الاردن لزيارة سطیح الكاهن في صومعته وكان قد اعتزم هذه الزيارة حينما انصت الى حديث الفتاة هند عن سطیح وقد ظل هذا الحديث شغله الشاغل خلال الايام التي سلخها في دمشق فلم يشأ ان يتحدث الى صاحبيه ابي سفيان واميه بن ابي الصلت عن هذه الهواجس التي ظلت تتنازعه الايام والليالي بل لقد ابى ان يكشف لها ذلك الاثر الرائع الذي تركه في نفسه حديث سطیح عن ظهور نبي في العرب فكان من الذامانيه ان يجتمع الى سطیح فيخلو به وينصت الى كلمه ويسأله الشيء الكثير عن ذلك النبي الذي حسر عنه قبل مولده وظهوره .

ولم يكن قد رأى سطیحاً في حياته ، ولا انصت الى احاديثه ولكن الحكايات الغريبة الممتعة التي ينقلها الناس في الحجاز عن سطیح حبت الى نفسه القيام برحلة الى شواطيء الاردن حيث يعتزل سطیح الناس وحيث يعيش في كهف تلتف به الأعشاب والأغاب .

وبعد ليلتين وصل حسان الى ضاحية منعزلة في سفح جبل حيسال شاطيء الاردن وكانت في اراضي آل جفنة الغسانيين وعلى مسافة قصيرة من كهف سطیح ويكاد المسافر يبلغ منها الى الكهف من غير ان يحمل نفسه تعباً .

امضى حسان ليله في الضاحية ، وفي غداة اليوم التالي استأنف سيره الى كهف
سطيح ، ولما طرق بابه خرجت اليه عجوز كر عليها الجديدان واختلفت عليها
صروفهما واحداثهما فارتاع لمشهدها البالي واجفل ؛ وبعث منظرها في نفسه شيئاً
من الامتعاض فكاد ينقلب على عقبيه ولكنه تشجع واقبل يسألها عن سطيح
فراحت تنظر اليه ملياً كأنها تريد ان تعرف اليه ، ولما لم ترفي سحته ما يخيفها
قالت له :

— اذا شئت ان تجتمع الى سطيح فامض اليه فانه الآن في خرائب النبط !

— ولكن سطيحاً كان هنا في الليلة الفائتة :

— هذا صحيح ولكن الرجل كالطائر لا يخلق في افق حتى يستروح الى التحليق

في افق آخر !

— لا بأس فسا نطلق اليه ، عمي صباحاً يا امرأة .

ولما ابتعد حسان قليلاً عن الكهف ووارته الاشجار الباسقة ضحكت العجوز

ضحكة كان لها زفيف ورنين في تلك الضواحي ثم اثنت قائلة :

— اذا جاء الرجل الآخر الذي انذر سطيح بهبوطه على الكهف فاني سأعطيه

أمثلة لا يعود بعدها الى زيارة هذه الأماكن فلقد وصف لي سطيح الرجل الآخر

وصفاً دقيقاً فقال لي ان وجهه محتاج بقروح . ثم رفعت صوتها عالياً واردفت :

الويل له ان هو تقدم الى هذه النواحي .

قالت العجوز ذلك ثم اغلقت الباب ومضت متغلغلة في اعماق الكهف وبينما

كان حسان يجتاز اودية الاردن الظليلة اخذت قوافل ابي سفيان بن حرب تتوغل

في اطراف بصرى تحت اشعة الشمس المحتضرة الذائبة في خضاب الشفق وكان

السير في هذا الفصل القاطئ قد افنى قوى رجالها فضوا ينشرون خيامهم في تلك

الاطراف ليرفخوا عن انفسهم الناصبة المكدودة وفي تلك الاثناء التفت اميه بن

ابي الصلت الى ابي سفيان الذي كان مضطجعاً على فراش في خيمته وقال له :

— لعلك لا تزال مصراً على ترك بصرى ؟

فضحك ابو سفيان ضحكة مجلجلة واجابه مازحاً :

— نعم ، اما انت ففي وسعك ان تنطلق اليها فان في كنائسها ويوعها ما يستهويك

اما انا فلا اجد في هذه البيع وتلك الكنائس ما يستهويني . . ولكن احترس ان تعود الينا بلا عقل . حقا لقد املتني بطوافك بين الكنائس والبيع حتى لقد خيل الي اني وقعت في هذه الرحلة على رفيق كان ينبغي لي ان اصدف عنه لولا تلك الأحاديث اللذة التي جعل حسان يزحف بها الي ، ولج ابو سفيان في ضحكة وعبه ثم اردف :

— اذا كر انت لياليك الماضية في بصرى ؟ اذا كنت نسيت احداث هذه الليالي

في نفسك فاني معيدها على سمعك فلقد تركتني ذات عشية نائماً في القصر الأبيض ورحت تقرع ابواب الدير ثم عدت الي كاسفاً متغير اللون (١) فرميت بنفسك على الحضيض واقبل صحكك يلطفون شجوك وبرحائك ، اذا كر انت ايضاً تلك اللبلة العابسة التي خرجت فيها كرة اخرى الى بصرى وكان معك جماعة من قريش فلما بدت لك كنيسة بصرى قلت لجماعتك ان لي حاجة في هذه الكنيسة فانتظروني ثم دخلت الكنيسة وابطأت في رجعتك ثم خرجت اليهم اسوأ من حالك الاولى (٢) وفي دمشق فعلت هذه الفعلة ولم تحفل بهذا الضنى الوجيع الذي ينهب نفسك ويغالباها ، ولما اجتمعت الى بحيرا وحدثك عن النبي رحت مرث الصدر حافل النفس بالآلام ، ولما عتبت عليك ايغالك في الانقطاع الى الاديرة والصوامع قلت لي ولصحبك متبرما بهذا الذي رحت تسمعه منهم ، خلوني فاني ارتاد على نفسي لمعادي فان ههنا راهباً اخبرني انه تكون بعد عيسى ست رجعات وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة وانا اطمع في النبوة واخاف ان تخطني فاصابني مارأيت فلما رجعت ثانية اتيت فقال قد كانت الرجعة وقد ولدني في العرب فيئت من النبوة فاصابني ما رأيت اذ فاتني ما كنت اطمع فيه (٣) .

هذه هي كلماتك أعدتها على اذنك . وانا مشفق ان ينزل بك في هذه المرة
مانزل بك في المرة الأولى ، ماذا أتود ان انقلك الى الماضي فتتصل بشجونه ومآسيه؟
اذا كان في الماضي ما يستهويك فاني لن اتردد في عرض صورته عليك ، اذا كرر انت
انبعاثك الى الشام في ليلة عمياء طخياء وكان معك بعض قريش فلما انحسر الليل
صعدت في كتيب رفعت لك كنيسة فانهيت اليها فاذا شبح جالس فقال لك حين
رآك انك لمتبوع فن اين يأتيك ريئك فقلت له من شقي الايسر قال فاي الثياب
احب اليك ان يلقاك فيها؟ فقلت له السواد فقال كدت تكون نبي العرب ولست به
وان نبي العرب صاحب هذا الأمر يأتيه من شقه الأيمن واحب الثياب ان يلقاه
فيها البياض (١)

ناشدتك الله ان تعدل عن الرواح الى بصرى فلعل نفسك تطمئن الى الهناء
واللذادة ولست ادري اي جدى يعود عليك اذا انت ارهقت نفسك باحلام اقل
ما يقال عنها انها مطايا الم وضنى ويأس !

— اذن فلنعدل عن زيارة بصرى الى زيارة سطيح ؟

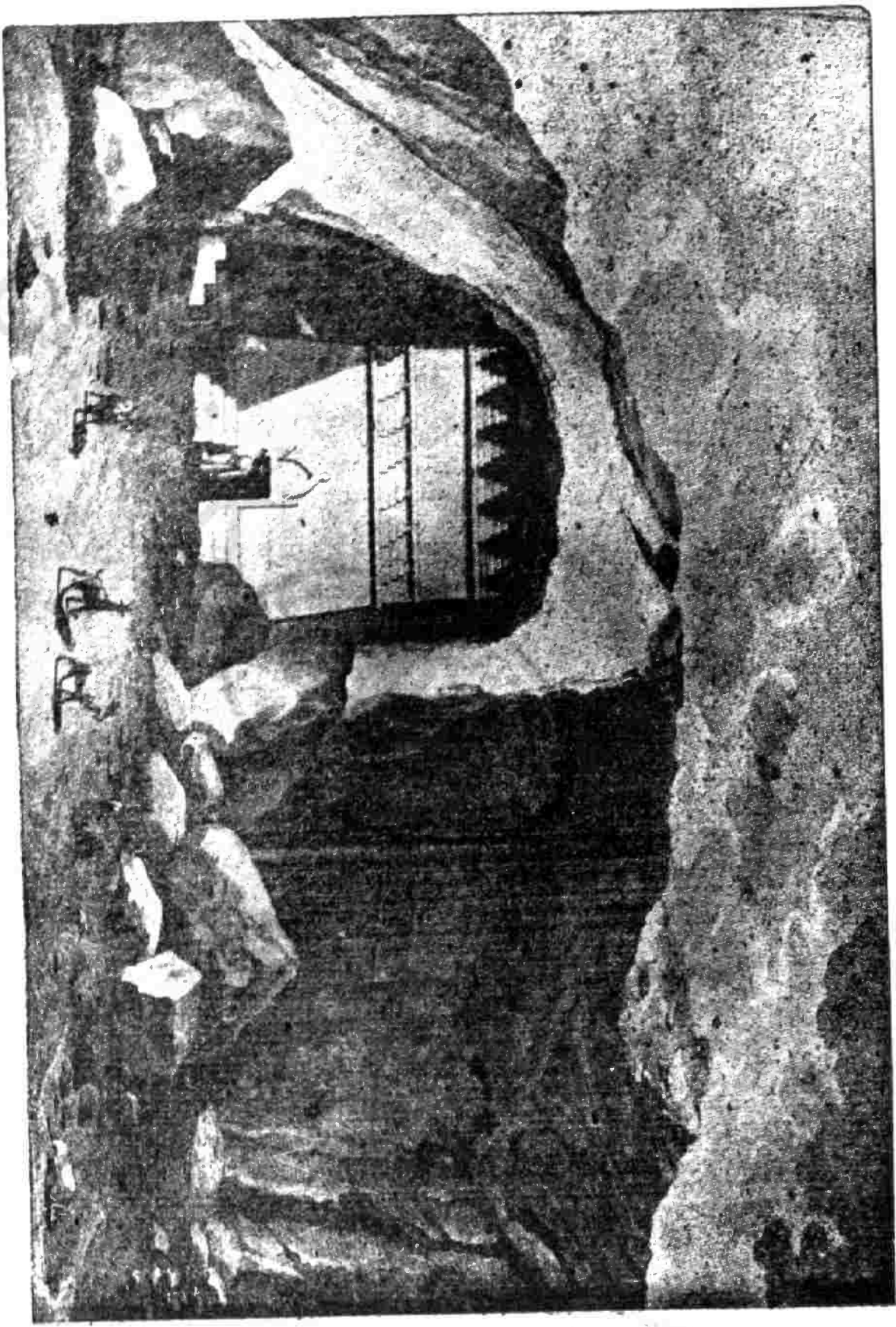
— وماذا تريد ان نصنع عند سطيح ؟

— لقد علمت وانا في دمشق ان سطيحاً يخطب العرب في شؤون غريبة وانه
يحضهم على ترك هذا العيش المبرح الذي يخالطهم ثم هو يبشرهم بظهور رجل
يسوقهم الى غايات شريفه سامية .

— أمن اجل هذه الغايات السامية التي يشرحها سطيح للغادين والرائحين من
العرب تريد حملنا على المضي اليه ؟ الا تذكر ذلك الشجن البليغ الذي صوح نفسك
واذبلها يوم قص عليك بحيرا حديث سطيح عن النبي المنتظر ؟

— ولكنني لم ار سطيحاً بعد ، وقد قيل لي انه مخلوق غريب له وجه وعينان
ورأس ويدان وليس له صدر يخفق وقيدمان تحملانه .

(١) الاغاني ج ٣ ص ٨١ . وروى هذه الرواية ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد



فلا عس الليل استأنفت القوافل سيرها في الطريق التي تدفع الى الاردن فبلغت كهف سطيح هـ ج ١ ص ١٧٣

— اذن فانت تحب لقاء هذا المسيح ؟

— نعم نعم

— لا بأس فسنطلق اليه ، ولكن قل لي اتعرف مأواه .

— اعتاد سطيج في فصل الصيف القائظان ينيء الى الاردن او الى اطلال النبط

— اذن فانت لا تعرف مكانه الحقيقي ؟

— لعله في الأردن !

— بيننا وبين الأردن مراحل قصيرة ، فاذا طويناها ليلا بلغناها في الصباح

فاذا لم نره واصلنا سيرنا الى الاطلال :

ولم يطل تمكث القوافل في اطراف بصرى ، فلما عسعس الليل استأنفت سيرها

في الطريق التي تدفع الى الاردن ، فبلغت كهف سطيج في صباح اليوم التالي . ولكن

ابا سفيان تحاشى ان يطرق باب الكهف وآثر ان يتكفل امية بهذا الأمر فراح

اميه الى ناحية الكهف ومعه جماعة من راكبي الأبل حتى اذا أصبح عن كشب من

بابه جعل ينادي سطيجاً في غير جدوى وزفيف الرياح ينقل صدى صوته الى

المسافات البعيدة خافتاً ضئيلاً ثم كرر الصياح بلا طائل فلما استيقن من ضياع صوته

في صخب الرياح انثنى الى الباب فقرعه راعش الصوت راجف البدن

— اي سطيج اين انت ؟

واخذت الرياح العاصفة التي ثارت في تلك النواحي تحتمل من حين الى آخر

حتى نثرت الأوراق وحطمت الأغصان ؛ فخيل الى اميه ان يذيفها العاصف يماثل

قصف الرعود فهم اكثر من مرة برجعة وكاد يهيب بجماعته الى ترك هذه الاماكن

ولكن رغبته في التعرف الى اقوال سطيج ثلته عن رجعته فمضى يقرع الباب في

شيء من العنف وفي تلك الأثناء خرق سمعه صوت عاصف

— من الطارق ؟

— افتح ابها الرجل المحتجب وراء ظلمات هذا الكهف الرابع !

وفتح الباب فاذا على عتبة عجوز تتوكأ على عصاها فلما صافح نظرها اميه
مضت تضحك ضحكة مرهوبة خشنه : ثم جعلت تنظر الى ملاح الزائر الجديد
الذي طفق يتنفض من الرعب وكانت ثمة قروح في وجه اميه ، فلما تدينتها
العجوز صاحت ،

— أنت هو ذو القروح ؟

— من تكونين ؟

— انا رجيمة الجارية اليتيمة اما ورب العباد لتفترقن في البلاد ، وضربت
بعصاها الارض فوثبت الابل كأن على ذروة كل بعير شيطاناً حتى افترقت في
الوادي فقهافت اصحاب الابل على اميه وهم يتصايحون (١)

— اين ما كنت تخبرنا به عن نفسك ؟

فقال لهم :

— اذهبوا انتم في طلب الابل ودعوني !

وجعلت العجوز في خلال ذلك توغل في ضحكها وعبثاً فكرر اميه سؤاله قائلاً :

— اين هو سطيع ايها الشمطاء ؟

فطفرت العجوز اليه وقالت له عد من حيث اتيت فانك لن تبلغ سؤلك ؟

— ويلك الا تعلمين من هو محدثك ؟

— اعلم من انت ! الست الرجل الكاذب الذي طمع في النبوة وهو لن يبلغ

مداها ؟ فاجفل اميه مذعوراً وراح ينظر الى العجوز وهو صامت فتابعت
العجوز حديثها قائلة :

— اذهب ! اذهب ، فلن يكون لك هذا الذي تطمع فيه ، وان سنا النبوة

لبعيد ان يغشى من كان على شاكلتك قبيحاً سمجاً !

— يالك من مجنونة ! ..

- يالك من كذاب ! . . .
- تبا لك من ساحرة ! . . .
- تبا لك من مضلل مفتون ؟ ثم قالت :
- اعلم من انت ، واعلم اي روح هذا الذي يزخر في نفسك ؛ كذلك اعلم انك رجل تلمس النبوة وتطمع فيها ولكنك لن تطالها ولن تبلغ مداها ، لانها ارفع من السماء ؛ ولانك انت في الحضيض الاوهد من الارض . .
- من ادراك اني طامع في النبوة ؟
- حديث الناس عنك ، ثم حديث سطيح .
- ماذا قال لك سطيح ؟
- اتسألني عما قاله سطيح ؟ وتأبى ان تسألني عما يقوله الناس ؟
- ماذا يقول الناس ايها الشمطاء ؟
- يقولون عنك انك مذهب اللب مجنون !
- بل انت المجنونة ايها الرعناء . .
- ويقول سطيح ، اذا جاءك الطامع الى النبوة فانظري الى وجهه فان به بعض اثر من قروح وقد ارادني سطيح على نصحك وان اردك الى رشك لان فجر النبوة الصييح لن يتمتع في وجهك الدميم القبيح ؛ على حين انه يضيء في ذلك الوجه الجميل الالسى .
- يالك من بلهاء . . .
- وانت يالك من دجال . لقد قال لي سطيح اذا جاءك ذو القروح فخذ يديه وانظري اليهما فان رأيت ثمة خطوطاً كاية خامدة فتني انه الرجل الذي يتبوأ مقعده من النار ويروح من دنياه هذه الى اخراه تلك وهو مثقل بالاوزار .
- كذبت فليس لسطيح ان يعلم المستقبل ويكشف خوافيه وهو من علمت وعلم الناس .

— والآن في قدرتک ان تزحف الى الأرض التي صدرت عنها لأن سطيحاً قد برح هذه الاماكن الخضراء الى اطلال النبط ، هيا رح في سيلک والا حملتک من اللواذع القوارع مالا تطمئن اليه نفسك .

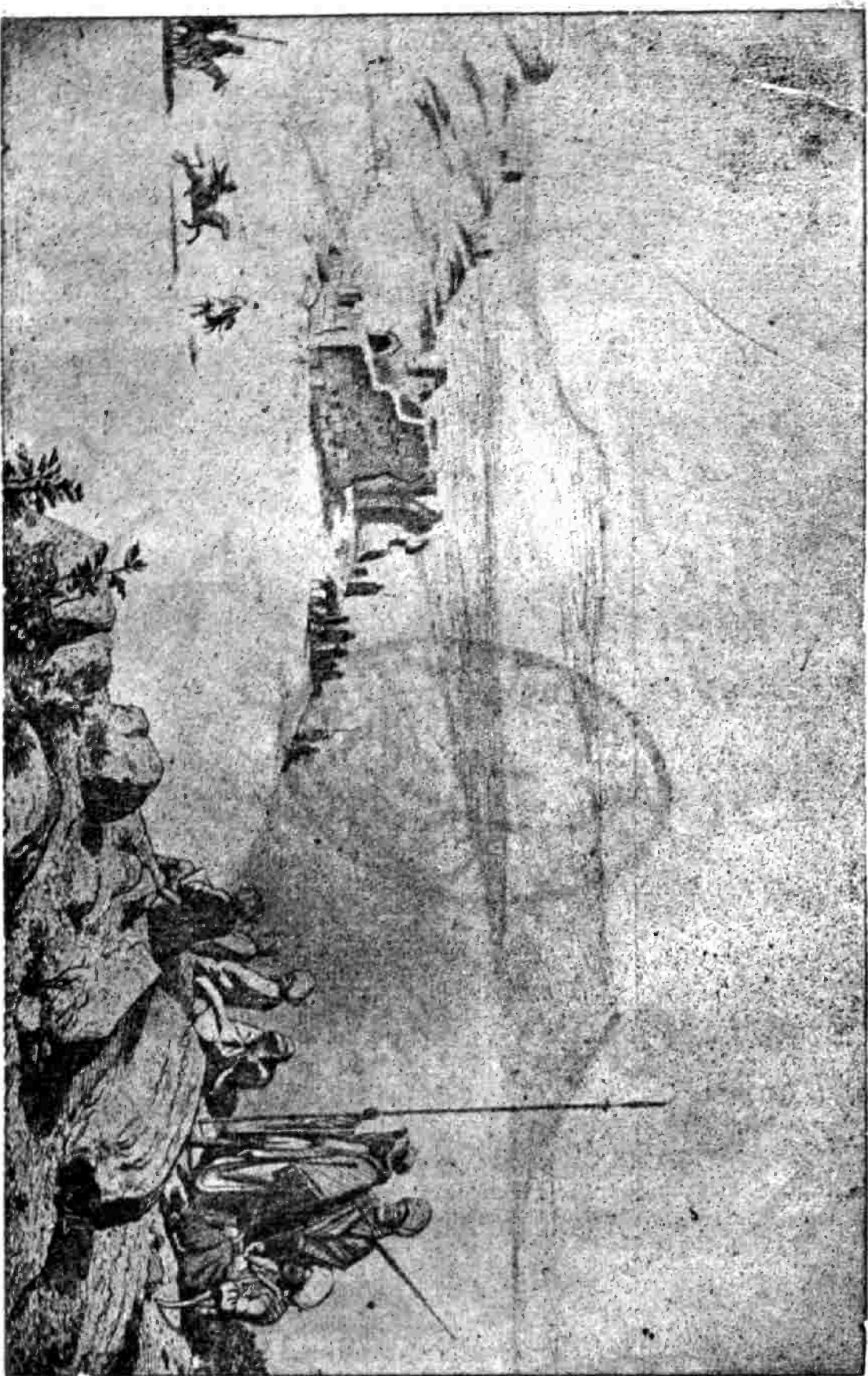
وكانت تقول ذلك محتمة مضطربة وفي عينيها وميض ارتاع له جنان اميه ، فراح مبهوتا واجماً كأنه بقايا دمی محطمة في ارض قفراء وفي خفة الوميض تهاقت تلك المرأة على الارض وجمعت بعض الحجارة ، ثم راحت تقذف بها وجه اميه فشجته فعاد دامياً وارتدت هي الى الكهف فاحتوتها ظلماته ودجناته .

رأى صحب اميه هذا المشهد فحاولوا ان يقتحموا الكهف فثناهم عن عملهم بابه الحجري المكين ، وكان اميه في غشية مؤلمة وقد سالت دماؤه على جبينه حتى بللت لحيته وحتى ضرجت لباسه الاسود فاحتمله صحبه على المناكب وعادوا به الى ابي سفيان وقصوا عليه خلاصة الحادث الرائع فقال :

— نصحت اليه ان يتنكب هذه النبوة التي يطمع فيها فابی فكان حصاده هذا الضرب الاليم الوجيع ، ولكن من تكون هذه الماكرة التي فجرت دمه ؟ ولم يكن احد من صحب اميه يعرف شيئاً عن هذه المرأة فقصوا على ابي سفيان كيف صاحت في الابل حتى تفرقت في كل ناحية ، ووصفوا حركاتها الغريبة وصوتها العاصف المرنان وتأثيره في روع اميه ، وعجز اميه عن مكالفة هذا التأثير فصاح ابو سفيان واجدا صاخباً :

— انقلوا اميه الى خيمته فلعله لا يستفيق من هذه الغشية المبرحة الا وقد انتزع من قلبه ذلك الخيال الذي يروعه ويضنيه .

ولما استفاق اميه في المساء من حلمه الرابع ، عرضت له هذه الحادثة في ابشع صورها فاذا هو يستعيدها في خاطره فبدا له ذلك الكهف القائم على السفح والغارق في خضرة الطبيعة ، ثم بدت له حجارتها الدكناء وجدره العابسة المعتمة والعشب الذي يغطيها حتى يكاد يحجبها ، ثم تمثل صيحه بسطيح وضياح هذه الصيحة في



الرياح وفحامها وانه ليفكر ويستعرض هذه المشاهد اذ طافت بعينه طلعة العجوز العافية البالية ، وعليها من السنين والليالي بعض التعب وبعض البؤس وبعض الشجن فتمثل زحفها اليه وصياحها في الأبل ، وتفرق هذه في مختلف النواحي ، وشرودها في شتى الأرجاء ؛ فروعته هذه الخيالات الراكضة الى عينيه الزاحفة الى قلبه ، فود لو انه يستطيع ابعادها واقضاءها ؛ ولكن هذه الخيالات ظلت ترتفع في عينيه والى قلبه حتى اخذت تزحف الى كل جارحة من جوارحه ، فخيّل اليه انها تفعم حياته كلها وانها تعيش في تفكيره وهواجسه ، فارتفع من صدره فحام مؤلم كان له ترجيع وترديد في الخيام المجاورة ، وفي تلك الاثناء استفاق ابو سفيان واقبل الى ناحيته فالفاه يتضاغى من فرط الألم فمضى يواسيه ويعزيه وطلق يقص عليه القصص الطريفة المهجة حتى استرفه واستراح ١

وفي المساء استأنفت قوافل ابي سفيان سيرها في طريق الحجاز واخذت تمر في طريقها بقرى خرج منها الفلاحون والقرويون الى الفضاء مغردين هائنين وادعين كأنهم يتسابقون الى ولية او الى مهرجان ولما سأل بعض رجال القوافل هؤلاء المرحّين عن باعث مرحهم اجابوا :

— لقد مر سطّيح بديارنا ودعانا الى استماع اقواله في اطلال النبط ، وبشرنا

بخصب عميم .

— اذن فهذه المواكب المفردة المنشدة ستأتي سطّيحاً في الاطلال .

فهتف القرويون بالحياة الخالدة لسطّيح ، ثم ساروا في طريقهم يمرحون ويهزجون ومرت القوافل بعد لحظات بضاحية منعزلة فاذا اهلها يخرجون منها شيئاً وشباناً نساء ورجالا وقد اتجهوا الى الاطلال فصاح ابو سفيان متسائلاً .

— الى اين ايها المارّيج ؟

فاجابه اكبرهم سناً :

— الى ملكة سطّيح ..

— وماذا تفعلون ؟

— نسمع منه خطبة هذا العام ، ثم نعي نصحه ! ...

ثم انزرف القوم ومضى ابو سفيان حائراً مشدوها .

ولما عسعس الليل وانتشرت ذوائبه الفاحمة تابعت القوافل سيرها حتى انتهت الى عين جارية في سهل ممرع امتدت ظلاله وافياؤه ، فاذا على العين اعراب يسقون ابلهم وخيولهم وهم لا يباليون بفحمة الغسق ، ولا يكثر ثوب لبرده اللاذع فزرف ابو سفيان اليهم متسائلاً :

— الى اين تمضون بهذه الابل التي ابتل ظمأؤها بالماء ؟

فصاحوا :

— الى خرائب البلقاء ! ...

— افى هذه الليلة الظلماء ؟

— لقد ارادنا سطيح على زيارته في خلال مروره بنواحيننا ، ووعدنا بنحصب الأيام المقبلة .

وكان البرد شديداً فتزمل ابو سفيان بردائه والقي نظره رحيمة على امية الذي شرع ينصت الى هذه الأحاديث وهو حائر سادر ثم واصلت القوافل سيرها الليل كله ، وخلفت وراءها المراحل الطويلة وظالت على سيرها المجهد الشاق اياما حتى انحسرت امامها اراضي وادي موسى المعروفة بوادي الانباط فدخلتها في ليلة مصحبة يتألق فيها البدر بين جماعة الكواكب ؟

الفصل العشرون

شاعر الطلول

في اواخر حزينان سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة للمسيح خرج من معان على الحدود الشامية فارس افاء الطبيعة عليه الصحة ، والشباب والامل الزاهر ، وكان الفارس يتجه في سيره الى ناحية الاطلال النبطية وهو يتلهى بنغم عذب فاتحاً صدره للهواء وللظلال .

وكانت النسمات المنبعثة سحراً تحمل صوته عذبا سائفاً الى تلك المراعي والجبال والجداول والى تلك الجنات الوارفة الظليلة التي خلفها وارتحل عنها بعد ان ترك في خضرة العشب وفي زرقة البنفسج وحمرة الورد ذكريات شباب مرح قرير نما واورق في نزوات الحب ، وعواطفة الجائشة المتوثبة ، ولما اختفى ظل تلك الارض السعيدة التي صب في نضرتها وخضرتها رواء شبابه وبهاء ايامه وبدت له اطراف ارض النبط راح يعتب على ايامه الهائلة ان تختفي وان تسرع في فرارها وهو لا يبرح في حاجة الى عناصرها الطيبة .

لقد ودع افقاً مشعثاً رطباً ليستقبل افقاً معتما مضطرباً ، وخلف في ذلك الافق نجمة اسمها الرجاء ليستقبل في الافق الجديد غيمة اسمها اليأس وترك في دمشق وجناتها الحادرة ابهى صور الحب التي صنعتها فكرة شاعر فان يصبغ الحب بصباغ الطبيعة والوانها الزاهية ليرسم في الصحراء صور العيش المحتجز بالأس الذي لا يعيش فيه الحب ولا ينمو .

وللرة الاولى بعد خروجه من معان الى اطراف الارض النبطية جعل يحس في نفسه تلك الآلام التي تنشأ في نفس الشاعر اذ يفارق مرا كض الحب والامل ومرا تع الشهرة والمجد فبدل نغمته الانيسة بنغمة يخالطها اليأس والحزن !

ما زال الطمع النليل والمجد والشهرة والحب والامل في جملة الاغراض العليا التي يحقق لها قلب الشاعر . ولا يزال هؤلاء الشعراء الذين هم بحق قيثاره الطبيعة المنشدة المغردة يحومون حول هذه الاغراض ولكن هؤلاء الشعراء نفوساً شفافة سريعة التأثير فاذا ماخالطها اليأس في الحصول على الشهرة والحب والحياة الرخية الظل حالت اناشيد الشعراء المبهجة الطروبة الى رثاء شجي يخلم على الطبيعة مظاهر التعيس والاضلام !

يلتمس الشعراء دعة وامنا في الارض التي يزهر فيها الحب ويورق ، ويطلبون الشهرة في العالم الذي يموج باصداء الوقائع والمآسي والصروف ، ويبحثون عن المجد في الملاحم الحمراء ، ثم يجدون في طاب الحياة المعسولة في الارض التي يغمرها السلم بنداه البليل ، ولكنهم يفتحون صدورهم للصور العابسة الجاهمة ولشتى الرياح والاعصار حينما لا يجدون ارضا ينبت فيها الحب ويورق ، وحينما تتراخى عنهم تلك الحياة المعسولة التي ارادوها في ارض مغمورة بالسلام .

ولقد كان فارسنا شاعراً يأس بالحب ويستروح الى الشهرة والمجد ويحب الوقائع والملاحم كما يحب الحياة الوادعة !

لقد كان في دمشق قبل ايام وكانت عيناه مفتوحتين للحب وللشهرة ولكن هذا الشاعر الذي اطمأنت نفسه في الامس الى جميع هذه العناصر الطيبة اغمض عينيه منذ وطئت قدماه ارض اللقاء حتى لا يرى الحياة الجديدة التي لا تحمل اليه في جانحتها شيئاً من هذه العناصر المحسنة الى تفكيره وعواطفه .

انه ليندكر وهو في مطافه الجديد بقية من رجاء حلو ، وحب عزيز ، وشهرة مقدسة فلا يمنع نفسه وهو تحت تأثير هذه الذكرى الهائلة ان تحزن وان تمضي محتاجة ولقد كان شأنه في هذا التحول الذي نشأ في نفسه شأن الشعراء الذين تطلع عليهم الحياة باسمه متوردة في البلدان التي تظللها آفاق جميلة وتلف بها الحقائق والاعناب والمياه والجبال والاوودية حتى اذا مشيت بهم حظوظهم واقدارهم الى

صحراء جرداء تغشاها سحب قاتظة وتلف بها رمال محرقة ومياه آسنة طلعت عليهم حياة كاية ناصلة ! ..

فالذكاء الذي يعيش وينمو في خصب الطبيعة وامراعها والذي يقبس ضحكه وعشه ومرحه ومجونه من وسوسة المياه وهينمة الجداول وحفيف الورق يموت في قطوب الصحراء ويذوب في سكونها وركودها .

وكذلك كان شأن شاعرنا حسان بن ثابت ، الذي رأيناه في دمشق وفي غوطتها مفعم النفس بالامل والحب والشهرة .

استقبل الشاعر معاذة الجديد بالانشاد ، فما لبثت نغماته القريرة ان تحولت الى بكاء فاستيقن ان لارجع الى تلك الارض التي ازهر فيها الآس والнарنج والزنبق ، ولكن هذا الكمد المضني الذي ظلل جبينه اخذ يتبدد شيئاً فشيئاً حينما طلعت عليه ارض النبط غليل اليه انه عن كذب من مأوى سطيح فضى صائحاً :
— لقد اقتربت من مأواك ياسطيح ..

ثم استحث جواده على الركض الى ناحية الاطلال غير حافل بوهج الصحاري وكانت الشمس تطوف انحاء السماء ولكن الهواء الذي بدأ مضطرباً مشبوحاً عاد صارداً بارداً حينما بدت لحسان واحة خضراء فصاح :

— لم تمت احلامي ، بل انها لتنتعش كلما صافح بصري افقاً جديداً . (اي شبابي اني لارسلك الى هذه الارض الفيحاء فلهك تأنس فيها بالحياة التي تحبها !)
وتغافل في صميم الغابة فغيبته افنانها المرسله وادواحها الرخية الظل وججبت عن عينيه مشهد القوافل والجماعات التي كانت تشق طريقها الى مكان سطيح .

وكانت القوافل قد عبرت الطريق حتى بلغت الغابة فتسربت اليها وتغلغلت في اعماقها واخذ رجالاتها يهزجون ويمرحون ، وفي صباح اليوم التالي جفا الشاعر مكانه في الغابة ، وتوغل في الطريق الذي يدفع الى الاطلال ، وكان لاندحة له وقد اراد نفسه على هذه السياحة الجاهدة ان يستخذي لنسبات الصبح الصاردة فتجلد لها

ومضى في سيره حتى استقبلته قمم جبل الشعري وحتى ظلته بواكير السحب الهائمة على السفائح والحدور ، فاقبل يحيل بصره في الظلال والندى ، وفي سرب من المعز اخذ يطفو على الذرى الكاسية العاشبة ! نخيل اليه وهو قريب من هذه المشاهد ان في قدرته ان يتنفس بكل جانحيه ، وان نفحة حياة جديدة عادت تفعم نفسه الناصبة المكدودة ! وكان العالم كله في هذه اللحظة مشتملا على هضبة منعزلة ، وعلى طيور تسبح في فضاء ازرق شفاف ، ثم على سرب من الحملان فاستأنس بهذا العالم القصير المدى ووقف ينصت تارة الى ثغاء الحملان ، واحيانا الى خرير الماء الطافر من مسارب الاصلاد !

ولم يشأ مكنأ طويلا في عالمه الصغير فعزف عنه ، واستأنف سيره في ممر ضيق تلتف به جبال حمراء بلون الدهان فاشجته القمم البواذخ فتلفت لعله يرى لنفسه مخرجا من هذه المشاهد الكدراء ، فاذا عيناه تصالحان عن بعد جبل هارون المعروف في التوراة بجبل حور وقد امتد بروقيه الى السماء من ناحية الشرق فرعش رعشة اليمه واخذته روعة عالم منفرد يتألف من الصخر والماء والسماء ! ومع هذا كله فقد نازعته نفسه الى مأوى سطیح فتمثل الرجل في كل ذرة من ذرات هذه الشواهِق الحمراء وخيل اليه ان صوت سطیح عاد مائلا هذا الخرير المنبعث من السواقي الهادرة الدافقة على الحدور والسفائح !

لقد قطع في نهاره نجداً ، واجتاز غوراً ، ثم تسلق القمم والذرى ؛ ثم انحدر الى السهل وصوت سطیح يتدفق في نواحي روحه . بل لقد كان خيال سطیح شاغله عن التفكير في هذه الاصلاد الموحشة البربرية ، فما غنى ولا فكر في شعر يتلهى بترديده وترجييعه وظل على طوافه حتى اظله المساء وغمرته سدفته فسرّح بصره في المشاهد فاذا هي لم تتغير ولم تبدل ، واذا القمم عن يمينه وعن يساره ، ومن ورائه ، وامامه ، فماذا يفعل ؟ ايعود القمقرى ام يتابع سيره ؟ لقد كان صوت سطیح مائلا جوارحه فنشط الى طوافه بالجبال فكان لاندحله اذا تسلق ربوة حمراء

عن تسلق ربوة صفراء ، وكان لزاما عليه ان يمر بحوائط وغدران كانت في الماضي عامرة بالماء ، فاجتاحها قيظ الصحراء فجفت وعاد ماؤها ناضبا !

لقد كانت مدينة النبط وراء هذه البواذخ فاذا قدر لك ايها القاري ان ترقى ذروة رفيعة من هذه الذرى بدت لك في الابعاد النائية الغائبة في الافق صحراء سيناء ورمالها الحراء ! ولعل اشد ما يرعش نفسك هو هذا التريد الممل الذي تبعته الرياح فوق الاصلاد الرمادية !

ان الانحدار الى مدينة النبط لذيذ سائغ ، فانك ايها القاري لا تنتقل من بهاء الالى بهاء جديد ، ثم تمر امامك المفاتن والمحاسن فيخيل اليك انك جد قريب منها ، فتشط اليها فتأى عنك ، وبينما تتسع المشاهد امامك ، اذا هي تضيق ، ثم تتكاثر امامك الالوان الطافية على الجبال فيستهويك منها الاحمر والاصفر ثم تعود الى نفسك فتراها قد تبرمت باللون الكدر الجاهم !

هذا هو الوصف الحقيقي لمدخل مدينة النبط وقد استطاع الفارس الشاعر بعد طواف جاهد ان يشقه فسقط على القبور المنحوتة في قلب الاصلاد ، ورأت عيناه القصور والدور والملاعب منتشرة في كل ناحية فوقف ينظر الى هذا العالم الرابع الهائل المليء بحصاد العصور والايام والليالي .

ولم يكن في طوقه وقد انتهى الى المدى من غايته ان يرجع فعاذ بطلل منفرد وجلس على حافة صخرة مجاورة واخذ ينظر الى العمدة المحطمة والى الحنايا المبعثرة والاقواس المتداعية ، ثم اغمض عينيه كأنما قد خيل اليه انه في حلم ! واخذ يهمس :
-- اهذا هو مكانك ياسطيح ؟ ثم صرخ صرخة اليمة :

ياللحلم الممض الموضع !

o o o

في صباح اليوم التالي استفاق الشاعر من رقدته على وسوسة الماء الدافق الهادر فجعل يستزيد النظر الى هذه المشاهد وهو ذاهل !

اي يقظة هذه يا الهي ؟ فان هذه المشاهد ما اجتمعت وتقاربت الا لتغري
الناس بالفتون والجمال والسحر!

ان الحياة في الصحاري تورث السأم والخول والضنى والذعر ولكن الحياة هنا
في قلب هذه الاصلاد غيرها في الرمال ففي هذه الصخور الجميلة المنحوتة وفي هذه
الاطلال البارة والمحال العاشبة الكاسية ، عن كذب من ماء ينبوع كل مايطمح
اليه الشاعر الذي يقبس منه ووحيه من تحاسين العصور الماضية...

لقد يمر السائح بهذه البلاع الخرساء المنتشرة تحت الافق فيستهويه هذا الجمال
الذي غشيه الالم والحزن من غير ان يبدل في نواحيه وقديروح متسائلا

— ترى من يكون هؤلاء الذين اترعوا هذه الارض بالخضرة والعشب وازينوها
بالغابات الضاحكة المستبشرة ؟ من يكون هؤلاء الذين نحتوا في الجبال والاصلاد
هذه الصروح ، وتلك المعابد والقصور والجواسق التي تتم عن هناؤها ومرحها
والتي لم تفقد شيئا من روعة شبابها الذاهب

الف تحية ايها الوادي المرع المخصاب الذي انشأ فيه العرب النبطيون
اول مدينة انسانية حملت الى العالم القديم السادر في حلم الجاهلية جمال الفنون
الخالدة .

الف تحية ايها المدينة التي استطاعت في عصر من العصور ان تنافس روما
في خيلائها وكبرياتها حتى حملت قواد بومبي على قبول الاندحار كعلامة على
الاعتراف بتفوق العرب النبط على خصومهم في ميادين الانشاء والاعمار !

في الصحراء ، بلى في الصحراء غرس العرب النبطيون بذور المعيتهم المنشئة فاذا
حصادها هذه المعابد والهياكل والقصور المنحوتة في الجبال

اي بادية العرب ! لم يشأ الزمن الذي حطم صروحك وزلزل معابدك ومزق
رواك الخالب ان ينزع بهاءك ليخلعه على ناحية اخرى من العالم ، فترك الى جانب
هذه الاطلال رمادا مقدسا ماتناوحت الرياح حياهه الا اهتز واستفاق وزكاوراح



وصل فارسنا الشاعر الى الاطلال النبطية فما تردد في دخولها

— ج ١ ص ١٨٥ —

ينسى اثره في التهافت على الطبيعة ومشاهدها المونقة فوجد في الشمس وهي شعر
السما الذي يتجدد في كل صباح ذلك الهناء المديد الذي اراده لنفسه الجائشة
وفعلت الشمس في نفسه ما تفعله الصبء في نفس شاربها فاسترد قواه الناصبة
المكدودة واستروح الى نشاطه ومرحه وكاد ينسى هذا الضنى البليغ الذي تحيفه في
سياحة طويلة ممضة ثم تهافت على مسيل الماء فجلس اليه واراد لعينه اغشاء لذيدة
فنام نوما هادئا حمل اليه حلما وادعا هائلا وسعادة لا يعلق غيم بنواحيها
ولم يستفق الا على اصوات تزخر في الفضاء ففتح عينه فاذا هو يرى
الارض تغص بالقوافل والجرع الوافدة من شتى النواحي فعاد الى جواده فامتطى
غاربه ودلف الى تلك الجرع الحاشدة كأنه يريد ان يستوثق من امرها
وشد ما كانت دهشته حينما وقعت عيناه على راية حمراء تظال القوافل التي اخذت
تخط رحالها في ذلك الوادي فالتفت الى نفسه صائحا :

— هذه قوافل قريش !

كانت الراية الحمراء شعار قريش فلم يشك حسان في ان ابا سفيان بين هذه
القوافل فدفع بجواده فانطلق كالبرق حتى بلغ به ناحية القوافل وصاغت عيناه ابا
سفيان واميه بن ابي الصلت فناداهما فالتفت ابوسفيان الى ناحية الصوت صائحا :
— ماذا أبنا الفريرة هنا ؟

— نعم فلقد وصلت الى هذا الوادي في هذا الصباح . . .

— اذن فانت مزمرع على الاجتماع الى سطيح ؟

— نعم نعم

— ونحن سنجتمع ايضا الى سطيح وهذه هي ارادة امية التي لا تغلب، انظر
الى هذه الوفود التي نهدت الى هذه الاماكن من امصار سحيقة نائية، انها ماضية
الى لقاء سطيح ، وقد اصبح هذا الكاهن مفزع العرب في هذه الايام وموئلهم ،
قل لي اتصدق انت ما يقوله سطيح ؟

— لم اسمع سطيحاً يتكلم الى الآن فليس في وسعي ان اعريه من الصدق قبل
الاصغاء الى احاديثه ! ..

— يبشر سطيح العرب بخصب الموسم في العام المقبل وهو كذلك يعلمهم بآمال
وشؤون كثيرة ويعددهم بحياة ثرة وادعة لا غيم فيها ولا اعصار . وهنا سكت
ابوسفيان فارثد حسان الى امية وقال له :

— اي امية امرمعت انت على الاصغاء الى سطيح ؟ فقال امية :

— الا تحسب سطيحاً هذا من الهازلين ؟

فقطع ابو سفيان حديث امية واردف :

— ولكن سطيحاً غير بعيد عنا ، في وسعنا ان نجتمع اليه ، ونستمع الى

احاديثه ، فاذا تبين لنا انه كاذب جفوناه وان كان صادقاً صدقناه فقال حسان :

— لقد ازمعت ان اسأل سطيحاً عن مستقبل ايامي : فما انت فاعل ؟ فقال

السيد الاموي :

— الم اقل لك في الماضي اني اهزأ باحاديث العرافين والكهان ؟

فالتفت حسان الى امية وقال له :

— وانت ؟

— سأسأله عن الماضي وعن المستقبل

— واذا حدثك سطيح عن النبي المنتظر فماذا تفعل ؟

فلم ينس امية ولكن كلمات حسان لذعته اشد لذعة : وادمت كرامته اوجع

ادماء ورأى فيها استهتاراً باوجاعه والآمه فلم يفت حسان هذا الفرع الذي تملك

روع امية فصدف عنه ، واقبل الى ناحية ابي سفيان صائحاً

— وداعاً وداعاً ايها الغطريف ؟

— الى اين ؟

— الى سطيح ..

قال فما علينا اذا ذهبنا اليه معا ؟ قال حسان :

— اني افضل ان نجتمع هناك في اطلال النبط لأن نفسي بدأت تعاف هذا

الرجل ، قال ذلك واوماً بيده الى اميه فقال ابو سفيان :

— هل احقنك اميه ؟

— كلا ولكنه رجل ضيع رشده وفقد حجاءه حتى لم يعد يذكّر من سابق امره

وحاضره شيئاً وقد بت اخشى ايضاً ان لا يعود يفكر في مستقبله ؟

فاغرق ابو سفيان في الضحك وقال :

— ياله من تعس ! لقد اردت اليه ان لا يوغل في الاصفاء الى احاديث الرهبان

فاني حتى حدث له امس حادث يثير بكاءك بما يثير ضحكك وكنت اود ان تبقى

كرامته موفورة فلا يتعرض لعبث العجائز ! وهنا اخذ السيد الاموي يقص على

حسان قصة العجوز التي قذفت امية بالحجارة يوم قصد الى زيارة سطيح في

وادي الاردن فبهت حسان واخذ يحجم

— أقذفته بالحجارة ؟

— نعم ، ثم طردته بعد ان صبت عليه سيلاً من اللعنات الحراء

— أفعلت ذلك ؟ ياله من جريئة ! لعلها كانت لاتعرف اسمه !

— لقد كانت تعرف اسمه وتعرف صفاته فلما عرض لها راحت تتأمل في

يديه ثم مالبت ان انهالت عليه بالتقريع والسباب المؤلم وقالت له لن تكون ذلك

النبي المرتقب

فوضع حسان يديه على جبينه كأنه يفكر ، ثم التمع وجهه واشرق والتفت الى

ابي سفيان قائلاً :

— يخيل الى انني اعرف هذه المرأة

— اتعرفها انت !

— نعم

— اكنت تعرفها قبل هذا العام ؟

— كلا بل عرفتها امس في كهف سطيح عن كئيب من شاطيء الاردن

— وماذا كنت تفعل عند شاطيء الاردن ؟

— اردت ان اتعرف الى سطيح وهو في كهفه فخرجت الى هذه العجوز وراحت

تحدق الى ملاحي كأنها تبحث في جيبني عن رجل تعرفه وكان وجهها متجهما فلما اخذت يدي وتبينت خطوطها اطمأنت الى وجهي وقالت لي :

— اذهب فلست ذلك الرجل التي ارتقب بجيئه ..

— اذن فقد كانت العجوز تنتظر ان يفد امية عليها ؟

— من يعلم ! ولما سألتها عن سطيح اجابت قائلة :

« برح سطيح الكهف في هذا المساء الى الخرائب النبطية فرأيتني بعد ان

ان سمعت حديثها مسوقا الى مواصلة السير الى هذه الحوالي حتى بلغتها هذا

الصباح

— الديك ماتقوله لسطيح ؟

— كلا ، ولكنني اطمأ الى حديثه اللذ عن المستقبل !

— اذن فسل سطيجا عن مستقبلك !

— وانت ؟

فهمز ابو سفيان كتفيه ساخرا واردف :

اما انا فساظل صامتا ولكنني سأنظر بقلبي وعيني ..

وكانت الوفود في اثناء ذلك قد جاست خلال الاطلال واخذت تملأ الملعب

الروماني ، وتنتشر في نواحيه ، وقد جعل الاعراب يتسلقون العمود حتى يتاح لهم

ان يروا سطيجا عن كئيب فلا تفوتهم كلمة من كلماته ؟

الفصل الحادي والعشرون

خطبة سطيح

كان مشهد الناس وهم يتدافعون ويتزاحمون يماثل مشهد الابل وهي تدافع وتزاحم في الصحراء ، وكان هؤلاء الذين توافوا الى هذه الأما كن يصيحون :
— اين هو سطيح ؟ لماذا لا يطل علينا هذا الكاهن ؟

وفي خفة البرق المومض اخذت اصواتهم العاصفة تنتقل من صفوف الملعب الأولى الى صفوفه الثانية ثم راحت منتشرة في انحاء الوادي ثم اخذت تتضاعف وتنمو وتشتد حتى ارعشت الفضاء

وفي تلك الفينة دخل الاطلال النبطية ابو سفيان بن حرب واميه بن ابي الصلت وحسان بن ثابت فاخذوا مقاعدهم على حافة ينبوع قريب من الملعب الروماني ولكن الناس لم يفطنوا الى قدومهم لانهما كهم في امر سطيح وبحثهم عن مكانه وبينما كان ابو سفيان يلوح للناس مزهواً بملابسه الدالة على الترف معتزلاً بكبريائه محتالاً بشرف بيته كان اميه بن ابي الصلت من ناحية اخرى ناشجاً دامعاً محزوناً يائساً فاما حسان شاعر هذه الاطلال وهذه الجنات فقد ظلت روحه خلية من مثل هذه الهواجس التي تقرض نفس امية فلاح للناس جيلاً فتان الطلعة فلم يتردد هؤلاء الذين رأوه في ان يقولوا ما اروع منظره وافتن طلعتة ! وفي الحق لقد كان حسان مليحاً مشرقاً كأنما هو مقبل على مرح ، مستخف الى هو ، وكانت ومضات الوداعة والجدل تنبعث من عينيه السوداءوين

وحدث في تلك اللحظة الحافلة بالروعة والخوف والأمل واليأس ان هب الناس من اما كنهم ينظرون الى مغارة دكناء في صدر الملاعب فراعت حركتهم هذه ابا سفيان ورفيقه فهض الثلاثة من اما كنهم الى ناحية المغارة !

وتعالت الاصوات من كل ناحية :

— هذا هو سطيح ، هذا هو سطيح .

ثم ارتد الناس الى اماكنهم وغشيهم الصمت العميق ، ولكن حدجاتهم بقيت معلقة بباب المغارة الذي فتح على مصراعيه وانبعث منه رجلان ينقلان محفة صغيرة جلس في وسطها انسان غريب الخلقة ، يوشك ان لا يبين للناس لهزال جسمه ! وبعد قليل خرج من المغارة رجل آخر مالبث ان وقف الى جانب المحفة فالتفت حسان الى ناحية امية فالفاه مهوتا محزونا وقد استطال وجهه وامتنع فقال له :

— اتعرف صاحب المحفة ؟

— اليس هو سطيح الكاهن ؟

فقال ابوسفيان وهو ينصت الى حوارهما نعم هو سطيح ولكني لم اعرف الرجل الذي انبعث اخيراً من المغارة فهل عرفته يا ابن الفريعة ؟ فاجابه حسان :

— كلا

وتعالت الأصوات صائحة :

— هذا هو شق بن انمار بن نزار

وكان شق هذا في يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة (١) فلما رن اسمه

في اذني ابي سفيان صاح :

— ما احفل هذا النهار بالروائع !.. وصاح امية

— ان مشهده الرابع يورثني كثيراً من الخوف

وتقدم الرجلان اللذان يرافقان المحفة من سطيح فاخرجاه ، وصعدا به دكة

عالية في ذروة الملعب واجلساه عليها فبدت خلقة للجميع فهمس بعضهم

— ما أشع منظره !

وقال آخرون :

— ياله مسيخاً يبعث مشهده الرعب حتى في الحيوان ..

كان سطيج يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة وكان وجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان من اشهر الكهان ولد وشق في يوم واحد (١) فما ان ترعرعا حتى اشتهر امرهما في العرب فهذه اليهما الملوك والامراء يسألونهما عن المستقبل وعن حوادثه ، فكانا يحددان وقائع المستقبل ، ويكشفان عن حوادث لا تلبث ان تقع

وكان علم الكهانة شائعا في الجزيرة (٢) . فكان العرب يفزعون الى الكهان والعرافين في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات (٣) بل لقد كان هذا العلم شائعا في العرب المتحضرين الذين تذوقوا حلاوة التهذيب الروماني في مشارف الشام والذين لم يمنعوا نفوسهم ان تستمري تهذيب الفرس في سواد العراق ولقد يتفق ان ينشأ ثمة خلاف بين قبيلة واخرى ؛ فلاتأبى القبيلتان الاحتكام الى الكهان والعرافين ، وربما كان سطيج اعرق في شهرته من جميع كهان عصره بدليل تهافت ملوك الشام والعراق واليمن على الاستشراق بضوء تجاربه وعلمه ! وبدليل هذه المنزلة السامية الممتازة التي له في قبائل العرب

وقد كان طبعيا ان تروج الكهانة في قوم لم يتأدبوا بادب الدين ولم يطمثوا الى غير العادات والسلاط التي انتقلت اليهم من طبيعة بلادهم الجافة القاسية ، وكان طبعيا جدا ان يكون للكهنة العربي في قومه مزايا النبي الاسرائيلي في قومه ، فان الامة التي ينقطع فيها وحي السماء لاغنى لها عن الخضوع لوحي الفكر البشري

(١) بلوغ الاربع ج ٣ ص ٢٨١

(٢) الاغانى ، بلوغ الاربع الطبري

(٣) بلوغ الاربع ج ٣ ص ٢٨١

الذي يعقل الاشياء . اكثر مما يعقلها هؤلاء الذين احتوتهم جزيرة مجدية ماحلة
مائية عن العمران .

• • •

شرع شق في الحديث عن سطيح بلهجة بارعة نفحة بددت كثيرا من تلك
السحب التي غشيت الناس حينما طلع عليهم شق بسحته الغريبة فقال ابو سفيان:
— انه اخطب العرب بعد قس بن ساعدة !

وصف شق سطيجا وصفا خالبا شجيا ونعته بالرحيم الشفيق فصاح حسان
— بل هو ابرع من النابغة الذبياني في استمالة النفوس وامالتها الى الاغراض
العالية النيلة !

وقال شق عن سطيح : انه رسول خير وقد اراد هؤلاء الذين نهذوا الى مثواه
من كل فج عميق ان لا يعنصرهم اليأس لأن الارض التي اعلنت في الاعوام الفاتنة
ستورق اوراقا زاهرا في الاعوام القابلة ، وقال امية :
— هذا ساحر العرب ..

ثم تجلجل صوت شق فاذا هو يدعو الناس الى استماع صوت سطيح
سطيح المسيخ ! سطيح بن مازن الذي منعه السماء الصحة والجمال والبهاء
سيتكلم ! بل سيتكلم سطيح ! وسكت الناس ، فاذا هم في صمت هذه الاطلال العافية
البالية ؛ وقد حالت اجسامهم الى دمي كهذه الدمي المحطمة المبعثرة في كل ناحية من
نواحي الاطلال ؛ ولكن العواطف والاحساسات ظلت على صفائها واشراقها
وطهارتها فلم تركد ولم يغمرها ذهول وظلت مفتوحة للدماني السامية والكلم البليغ
له الله من مشهد فائن بهر الابصار بهرا

لقد كانت هذه الاطلال العافية التي جعلها الزمن في ذمة الصحراء جميلة فتانة
كانت الرياح السافيات لم تنشر في عرصاتها ظلال الموت والخاوف ،
وكان الرمال التي تحملها هذه الرياح من بادية العرب لم تحطم انصابها وتمائليها ولم

تخرس اصوات سكانها السعداء .

وفي الحق لم تحفل اطلال المدن الدارسة بمثل رواء هذه الاطلال النبطية التي حباها سطوح الحياة والرجاء والقوة والشباب . فلقد كان سكانها الاولون يتناغمون ويتسامرون في عصر ازدهارها ونشاطها فاترعا سطوح بلذيد النعم بعد موت وعفاء وكان خطباؤها في الماضي يسجعون وينثرون طرائف الحكمة وروائع الكلم فراح سطوح يجدد عصر البلاغة والبيان بعد ان احتواه غسق الموت ؟

لك الله من بقايا مقدسة تعيد على رائها تاريخ امة عظيمة اصطنعت السلم في الاحسان الى العقل والى التفكير فكانت هذه القصور وهذه العمد وهذه الاروقة حصاد هذا الاحسان .

فتح سطوح فه ، ففتح الناس قلوبهم وعيونهم ، تكلم سطوح فاذا في صوته ذلك الرنين العذب الذي ينسجم في نغمات الاطفال ثم تكلم وتكلم كثيراً حتى اشجى وابكى ، وحتى استثار الذكري .

اغمض سطوح عينيه وتكلم :

« ايها الرعاة الذين ساخت اقدامهم في رمال الصحراء وخبت قرائنهم واذهانهم في الجبال الجرداء ، نهوضاً نهوضاً من هذا الرقاد الذي يغطي العيون والنفوس والذي يحجب عنكم آفاق الحياة المرحية الوادعة .

« افتحوا عيونكم لهذا الفجر الذي تمتد ظلاله من بادية الحجاز الى بادية الشام فانكم ستبصرون في تورده ولمعانه وزخرفته طليعة زحف جديد الى سهول فتانة : وحقول فيانة ، ومدن حالية بالنعيم ، وامصار لاتغشاها الغيوم ، وستكونون اصحاب هذا الزحف الميمون ، اذ توغلون في الارض ايغالا وترثون هذا الذي احتوته الغبراء ، والدأماء ؟

بلى وستكونون احراراً كهذا الهواء المنسجم العذب ، وستحفل بيوتكم بالانوار التي لا تخبو ! وسيكون لكم في كل متأى من الارض راية خفاقة وظل ممدود ،

ايها الرعاة ! انظروا الى هذه الصحراء المتطامنة الى حرها وهجيرها العائشة في صمت جبالها الغارقة في سكون اقربها ، انها ستحسر عن روح سامية تمشي بكم الى شتى الآفاق فيكون لكم في البر والبحر الملك الضخم الذي لا يبل والحمد الذي لا يفنى والفضيلة التي تغسل حوباء النفس وسيمشي بكم هذا الروح الاسمى الى دين جديد تعرفون به ربا محسناً جواداً عادلاً كريماً ينقذكم من جحيم هذا البؤس الذي تصطلون بجره ثم يطل بكم على افق يهور بالطمأنينة والسكون والراحة وكذلك سيتسق لكم العقل والفكر والذكاء الملتصق حتى اذا بدت لكم هذه الطبيعة التي ترون اصطغتم العقل والذكاء في فهم مقاصدها وحذق اغراضها ؟ وسيرتفع شأن الاسرة ، ويقوم الحب مقام البغض ، وينسجم الناس فلا بغض ولا ثأر ؟

ستقولون من اين جاء سطيح بكل هذا وستسألون اين هو ذلك الروح افلا يدلنا سطيح عليه ؟ بلى وستقولون ايضاً « نحن فقراء وارضا لا تنبت حبا ، ولا يغشاها ظل رخي وسماؤنا عريقة في شحها واملاقها ، فكيف تنبت هذه الزهرة المحسنة في هذه الأرض البخيلة الضئيلة !

افتحوا عيونكم ، حذقوا الى الصحراء ، انه يمضي في موكب غم من الجلال والرواق . . . بلى انه ليمضي فوق رؤوس العصور البعيدة ليطل من وراء شمسها الغاربة على فجر العصور الجديدة التي سيخلقها بيده خلقاً ، يخيل الي اني اراه . . . بلى يخيل الي اني اراه ، هو فتان كهذه الشمس التي تسطع على هذه النواحي ، وبهي كهذا الفضاء المتورد المصحى ، وعظيم رائع كالبحار ، ووديع كالزهرة الضاحكة في احضان الخنازل ؟

وهذه الاصنام ، هذه الاصنام التي خيل اليكم في الماضي انها تحمي احياءكم وامواتكم ، وانها تمنحكم الصحة والشباب والحب والمرح ستهاون تحت قدميه لأنها تعيش بينكم في غير فضيلة ولأنها لا تملك شيئاً من الصحة والشباب والحب والحياة

وستمشون تحت لوائه الى عبادة موثقة تكفل لكم الصحة والشباب والحياة
وتفتح امامكم افقاً جديداً منعتكم هذه الصحراء المشبوبة ان تروه .

لم يقل سطيح اكثر من ذلك فقد بح صوته وكاد يضيع في مدى الاطلال
الواسع فاستروح الناس الى صمت مهيب ولدت هذه النفوس التي تستهوها
البلاغة والفصاحة بلاغة كاهن الصحراء فانهاهال الناس على سطيح بالأسئلة ووجه
اليه بعضهم هذا السؤال ؟

عن ابن نجاد هذا النبي الذي حدثتنا عنه ؟

فصاح سطيح :

— انطلقوا الى مكة فان حجره قد انبثق في تلاها وجبالها :

وسأله سائل :

— بمن هذا النبي ؟ فقال :

— من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه الى آخر

الدهر (١) فقال له قائل :

— وهل للدهر من آخر ياسطيح ؟ قال نعم يوم يجمع الأولون والآخرون

ويسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون (٢)

وسأله سائل :

— احق ما تقول ياسطيح ؟ قال نعم والشفق والغسق والفلق اذا اتسق ان

ما اخبرتكم به لحق (٣)

حاول امية بن ابي الصلت ان لا يبتأس ، وان يتطامن ولكن خطبة سطيح

احنقته والهبت غيظه وفجرت في صدره ينايع اليأس فبدا للذين حوله ناشجا باكيا

وراح مرتمياً على صدر ابي سفيان وهو في بحران وجنة لايعي شيئاً ..

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٨١ (٢) بلوغ الأرب ج ٣

(٣) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٨٠

وانتبه الناس لفحامه المنبعث من صدره ، فراحوا ينظرون اليه مشفقين مروعين لا يدرون هذا الذي اشجاء وابكاه وطفق ابو سفيان يواسيه ويعزيه بينما حسان ابن ثابت يخترق الماعب ليتصل بسطيح !

وبعد قليل زالت هذه الغاشية التي غشيت امية فانقلب رابط الجأش وفتح عينه محدقا الى الناس الذين تجمعوا حوله وقال لهم متجلداً :
— ولكن هذا المسيح يكذب ..

ولفظ كلمته هذه هامساً فلم يسمعها احد وكان مقدرا له ان لا يسلم من عبث الجماعات لو ذاع حديثه بينها فقال له ابو سفيان :
— اسكت ولا تتكلم فاني اخشى ان يقتحمك هؤلاء الذين ذهب احاديث سطيح بالبابهم وعقولهم ؟

فانحى اميه ناحية ابي سفيان وقال له :
— الست ترى رأيي ؟

— نعم ، ولكنني اضن بك ان تقتل ، انظر الى عيون هؤلاء فانها حمراء بلون الدم .

وكان حسان بن ثابت قد بلغ مكان سطيح فارتفعت العيون اليه واخذ الناس يتهايمسون ويتسائلون :

— ماذا يريد هذا الرجل من سطيح ؟ وقال احدهم :
— حقا انه ان به لجنة ، افلا ثرون اليه كيف وضع يده على كتف الكاهن وكيف اخذ يحرق اليه ... لقد فتح فيه ... انه سيتكلم ... اسمعوا ...
وقال آخر :

— كلا فايس في سحته الهادئة مايدل على جنونه ... لقد تكلم ..
واثار ضجيج الجماهير انتباه ابي سفيان واميه وكانا الى حين لا يملان شيئاً من ارادة حسان ، فقال اميه : لعله سيسأله عن المستقبل ؟

فقال ابو سفيان : لم تخطي. فان حسان قد اعترم ان يحمل سطيحاً على قراءة خطوط يده . وفي خفة الوميض تجلجل صوت حسان في انحاء الملعب ، فاذا هو يسأل سطيحاً :

— اسامعي انت ياسطيح ؟ فاغمض الكاهن عينيه وغاص في لجة حلم عميق فاستل حسان قائلاً :

— اسامعي انت ياسطيح ؟

ففتح الكاهن عينيه ولكن من غير ان يرفعهما الى حسان فكرر الشاعر سؤاله : — اسامعي انت ياسطيح ؟

تحرك سطيح وهو في المحفة . وتفرس في الجماهير كأنه يقرأ همسها ويتعرف الى ما يتردد في ضمايرها ثم اشرق وجهه فمد يده الى حسان صائحاً : تكلم ؟ قال حسان :

— هل لك ان تقرأ في خطوط يدي ؟ فلقد سمعتك تتكلم عن نبي يبعث في العرب فما شككت في حديثك ، وكنت مأخوذاً بحلاوة وصفك هذا النبي الذي سيمشي بقومه الى حياة ماجدة ؟ اي سطيح قل لي ماذا ترى في يدي ؟ فصاح سطيح :

— مد يدك الي ثم ادر عيونك الى ناحية الجماهير ، وطفق الكاهن يقرأ : ستعيش ايها الرجل السعيد الحظ احفل الناس بلذاذة الايام ومرح الاعوام وسيكون لك من ذلك النبي المرسل ما تطمح اليه من شرف ومجد وجلال وحب ورفق وهنا سكت سطيح . وسكتت خفقة فؤاده فلم يرق الجماهير هذا السكوت فصاحت ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

فتابع سطيح حديثه قائلاً .

« وحينما يتبدل وجه العالم تحت تأثير هذه النبوة المقدسة وتتهار صروح الانسانية القديمة لتقوم على قواعد جديدة من كرم الخلق وفضيلة النفس تكون انت

ايها الشاعر الذي يأتيه الالهام من الارض رفيق هذا النبي الذي يأتيه الالهام من السماء
ولا يلبث هذا اللائء الذي تحوطه سحب داجية ان يتكامل ويمتد حتى يفر
الجبال والسهول والاوودية والبحار .

— ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

فسكت سطيح ولم ينبس : ثم اغمض عينيه ، وراح ينعم بحلم : ويسعد برجاء ثم
فتح عينيه والتي يده على ذراع حسان قائلاً :

— هذا كل ما علمته : قصصه عليك ايها الرجل السعيد النبل .

وتعالت الاصوات في فضاء الملعب ، اقر الله عينيك يا سطيح بن مازن .

ومضى حسان قائلاً: اي سطيح لئن عشت ليكون لك في صدري اكثر من حب
واكثر من عطف .

انحدر حسان الى الجماهير فاستقبلته بهتافها البريء الطاهر وحمله بعضهم على
المناكب حتى باغوا به السراشق، وتهافت خلق كثير على سطيح يسألونه عن المستقبل
فجعل يتحدث اليهم بلهجة محبة ودیعة ملأت قلوبهم مرحاً وتوثباً ونشاطاً ثم
مضوا يهدون اليه بعض الابل وبعض الماشية وقضوا نهارهم في الملعب وهم
اشد ما يكونون سروراً وابتهاجاً ، ولما عسعس الليل استأنفت قوافل ابي سفيان
سيرها الى الحجاز تحت ضوء القمر وكان امية بن ابي الصلت خلال ذلك اشبه بميت
اقلت من حضيض القبر في كآبة طلعتة واحمال جبينه وركود ذهنه . ولم يكن
ابو سفيان اقل منه ارتباكاً وشجوباً وركوداً فان احاديث سطيح جعلته مبهوتاً
حتى اصبح خليقاً برئاً : حقيقاً برحمة وعطف .

وبينما كانت الجماهير تعود الى اماكنها سكرى منزوفة من السعادة والغبطة اغمض
امية بن ابي الصلت عينيه حتى لا يعرض له حلم يشع يوقظ في نفسه احساساتها
القائمة وكان يحاول ان يسترد سكينته فما استطاع الى ذلك سبيلاً فسقط اكثر من
مرة بين ذراعي ابي سفيان صائحاً :

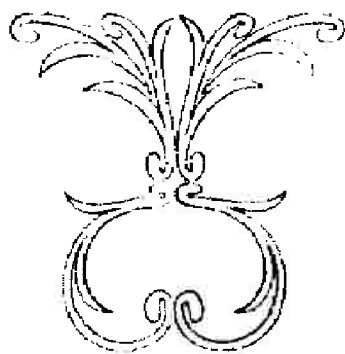
— قتلني سطيح ! قتلني سطيح .

واثارت هذه الاحزان التي انفجرت في صدر امية طبيعته الصادقة الاصلية فبدت هذه خشنة قاسية وحشية فاذا هو تحت وقرها يزفر زفرات الحيوان الجريح .

— قتلني سطيح ! قتلني سطيح !

وظلت كلماته هذه الترجيع الوحيد الذي نقله الهواء الى فضاء البادية .

وفي تلك الاثناء طفق حسان بن ثابت يوغل في سيره بين الجماعات العائدة من الشام الى الحجاز وهو يتلهى بانشودة عذبة اودع فيها مراح النفس ونشاطها وهنائها وكان الليل الذي يغطي الاطلال النبطية بذوائبه الفاحمة ينشر سكونه في مضجع سطيح الذي نام فاتحاً نفسه وروحه للاحلام الهائثة القريرة ؟



الفصل الثاني والعشرون

اليتيم

في غداة اليوم الثالث من ايلول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة للسيد المسيح عرست قوافل ابي طالب القرشي في بلاس وهي ضاحية غسائية قريبة من دمشق فنشرت اعلامها وخيامها في سهل اجتمعت فيه ضحكة الرياحين الى وموسة المياه وطفق رجالها الذين لفحتهم الصحراء وروعتهم سياحة ممضة طويلة ينعمون برطوبة الهواء ويتلذذون بظلال المساء .

(وكانت الشمس في تلك الغداة تستريح في احضان الشفق : وقد اشفت على الموت، واخذت انوارها تخبو وتذوب في روعة الجبال الهاجعة الوسنانة كأن عروس السماء تحب هذا الزرع الذي يصاحبها العشية بين ذراعي الطبيعة . وبينما كانت الشمس تطبع آخر قبلاتها المنزوفة السكرى على الغابات والمروج والجبال والمياه) اخذت الصلوات في دير الحارث البطريق تملأ فضاء الضاحية برناتها المججلة كأن الذين احتواهم الدير من الرهبان يلذون ان تصب ذكاء زفراتها الاخيرة في غناء العبادة ونشيد الورع .

وكانت مدينة دمشق التي اسماها بلزار يوس القائد الروماني في عصر يوستانيوس قيصر « روما الشرق » قد اجتمعت تلك الليلة في دير الحارث البطريق لاستماع صلاة بحيرا الراهب ، ثم ما لبثت جموع المصلين ان برحت الدير الى المدينة لتشارك في افراح عيد السيدة العذراء .

ولم يشأ بحيرا ان يشارك في افراح هذا العيد الذي اعتاد الغساسنة ان يحتفلوا به كل عام بل آثر ان ينزع الى عزله الوادعة . في مصيف له قريب من بلاس فهد اليه والليل لم ينشر ذوائبه بعد ، ولما بلغ مواء الربيعي تسرب الى حديقته الصغيرة

وجلس تحت افياء شجرة يقرأ في كتاب وانه كذلك اذ طلع عليه رجل من ناحية الباب الذي غادره مفتوحا فلما ابصره دالفا الى ناحيته جعل ينظر اليه كأنه يريد ان يستوثق من امره ، ثم قال له :

— من الرجل ؟

— أنت هو الراهب بحيرا ؟

— نعم فاني الرجال انت ؟ نخفض الرجل صوته وقال :

— اوفدني اليك رجل تعرفه وتنتظر رجوعه اليك منذ العام المنصرم . . .

فاطرق بحيرا اطرافه عميقة واخذ يستعرض الماضي ثم قال للرجل :

— لقد اذكرتني رجلا كاد تصرم الايام والليالي ينسيني اسمه ، قل لي الست

رسول ابي طالب ذلك السيد القرشي ؟

— بلى

— اين هو صاحبك ؟ قال :

— انه على مقربة من مسيل الماء .

— انطلق اليه وقل له ان بحيرا لم ينس الموعد . .

— الا تذهب معي اليه ؟

— كلا ! ولكن قل له ان بحيرا ينتظره هنا في هذا المشوى ، بل قل له اني

صنعت لقريش طعاما ما احب ان يتخلف عنه صغير وكبير ؛ عبد وحر (١)

ارتد الرجل الى الناحية المؤدية الى خيام ابي طالب وراح بحيرا يفكر

ويتحدث الى نفسه قائلا :

— هل ظهر ذلك النبي الذي قرأت عنه في الكتب ؟ (٢) فاني كلما خلوت الى

نفسي رحت اتسمع الى هذه الاصوات التي تتغاير في اعماقها فاجدها تنبئي بقرب

(١) سيرة بن هشام ج ١ ، ص ١٧٠

(٢) الطبري

طلوعه علينا .

لقد لبثت عشرة اعوام وانا انتظر معاده حتى كدت اياس من الانتظار وحتى كدت انسى هذا الذي قرأته في الكتب القديمة عنه ، قال ذلك ووضع يده على جبينه فاذا هو يتصبب عرقا ، واذا صدره يخفق . وقلبه يرعش ثم اردف .

— لماذا هذا الخوف الذي يساورني ؟ ما اعتاد قلبي ان يخفق الا لرائعة من الروائع فبل حدثت تلك الرائعة الكبرى التي ستهز اعطاف الكون وتبدل معالمه ؟ ترى هل ولدت تلك الفاضلة ذلك الطفل المقدس الذي يدعو الخلق الى عبادة آله واحد ؟

واراد بحيرا ان يخنق في نفسه تياراتها الجارحة ففتح صدره لنسيمات الليل العذبة الباردة وحاول ان يتاهى بهذا السكون الذي يشمل الطبيعة فما التى في الطبيعة ذلك المرح الذي يبحث عنه . وظلت هواجسه تدافع في صدره حتى نقلته الى عالم غير منظور يطفح بالاحلام فاغمض عينيه قليلا كأنه يحاول ان يستعرض في الحلم خيال ذلك النبي الذي لم يره في اليقظة فترامت له في حلمه صورة بهيجة فتاة لطفل بهي جميل تظفر الوداعة والرقه من احاديثه . وتنب الفضيلة من صدره ففتح عينيه وهو تحت تأثير هذه الصورة الجميلة واخذ يهمس

— لقد رأيته . . الى لقد رأيته . انه جميل وفتان ، وسمعت حديثه اللذذ واستشرقت بهذا الفجر الذي ياتمع في جبينه ولا يغيب .

وفي صباح اليوم التالي انبعث بحيرا من حجرته ليستظل بافياء تلك الشجرة التي اعتاد ان يجلس تحت ادواحها وانوار الفجر تغمر النواحي وتغسل المياه والاشجار والجبال ، فلم يكدر يقترب من الشجرة حتى شهد نفسه حيال رجل سري نيل تبين في وجهه نضرة الشرف ونضرة الشباب فلما صاحفت عيناه عينيه قال له — لا اكذب نفسي ، فانت هو ابو طالب بن عبد المطالب فبل جئت وحدك ؟

— لقد تركت صحي في الطريق ا

— خيل الي اني ان اجتمع اليك بعد ذلك اللقاء البعيد . قل لي كيف تركت مكة ؟

— خالفها تمور بالناس الذين نهضوا اليها من كل فج عميق لحضور موسم عكاظ في هذا العام . . .

— انكم لتتلهون بالشعر في هذه الايام . ولكن ثق ان مواسم عكاظ لن تتجدد في المستقبل !
— ماذا تقول ياسيدي ؟

— اقول لا بأس ان تأنسوا بموسم عكاظ في هذا العام . فانكم ستودعون فيه جمال الشعر لتستقبلوا بهاء النبوة . قال ابو طالب :

سمعت اناساً كثيرين يقولون قولك هذا ولكن شيئاً من اقوالهم لم يتحقق بعد
ومع هذا كله فلا يزال الشعر مفخرة العرب وحلية فرسانهم وامرائهم ناليس من السهل اهماله واغفاله .

— والنبوة ؟

— النبوة ؟ في العام الماضي حدثني عنها ولا يزال الرهبان يتحدثون عنها ، وابي عبد المطلب نفسه قص علي حديثها الطويل قبل موته ولكن يلوح لي ان فجر هذه النبوة لم يحن انبثاقه بعد

— لقد اعددت لقريش طعماً على مائدتي .

فضحك ابو طالب ضحكة مججلة واجاب قائلاً :

— كان عطفك في الماضي مقصوراً علي فماذا حدث حتى صرت تستمرى

ان تجلس قريش الي مائدتك ؟ (١)

— ولكني احب قريشاً ؟ واحبها كثيراً لمكارمها وحسبها وشرفها .

(١) روى ابن هشام عبارة ابي طالب علي هذه الصورة « والله يا بحيرا ان لك لشأنا اليوم : ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم ،

— اتحبها من اجل مكارمها وحسبها وشرفها ؟

— نعم واحبها كثيراً لان ذلك الفجر المقدس سيظل لها ، قل لي الا تأكلون

طعامي في هذا الصباح ؟

— سيصل اصحابي بعد قليل !

— ناشدتك الله الا يتخلف احد منهم عن المائدة . . .

— ستراهم كلهم حول مائدتك . . انظر هاهم قد توافوا اليك .

وفي تلك الاثناء اقبل جماعة ابي طالب فاحسن بحيرا وفادتهم والتفت اليهم قائلاً

— ناشدتكم الله يا معشر قريش الا يتخلف احدكم عن طعامي .

فضحك ابو طالب واردف :

ولكن هنالك غلاماً في ريعه العاشر ما احببت ان يسير على قدميه حتى لا يتعب

— وهذا الغلام ؟

— هو ابن اخي ، مات ابوه وهو لم يطل على الوجود بعد ، ثم ماتت امه

فكفله جده عبد المطلب ، فلما مات جده ، كفله انا واحببته حباً جما ، وانحدرت

دمعة من عيني ابي طالب واستفاضت شجونه فقال متخافاً بصوته :

« لما اردت المضي الى الشام ، خرجت الى وداع اهلي فاقبلت على اليتيم ورحلت

احتبسه بين ذراعي فابتسم لي وابى الا ان يلحق بي ، وقال يا عم الى من تكلني لا اب

لي ولا ام فرثيت له ولم انكر عليه هذا الذي اراد ، وجئت به الى الشام فتبسم

الراهب وقال :

— الا يأكل هذا اليتيم طعامنا ؟

فالتفت ابو طالب الى رجل من رجاله وقال له :

— انطلق الى الحيام وادع ابن اخي الينا .

كان صباح ذلك اليوم ساجياً وادعاً لا تحجب شمس الزرقاء غيمة سوداء ولا تعطل صفاء مزنة وطفاء وكان الهواء ينبعث سائغاً عذبا كالرحيق والجبال المجاورة لا تفنأ ترسل اريج الجنات الحادرة الى شتى الانحاء .

الطبيعة ناعمة وادعة ، والارض ناعمة وادعة ، والاطيار السابحة في الفضاء ناعمة وادعة ؛ والرعاة الذين يتسلقون الذروات الشاخحة يتهادون ناعمين وادعين كأن مرح الارض والسماء تدخالط افئدتهم وخالج نفوسهم ففتحو صدورهم للاريج الطاهر الذي يملأ الاودية والسفوح والجبال .

وذلك البيت الصغير الذي اخلد بحيرا الى صمته وسكونه لم تصدف عنه هذه الحياة القريرة فكانت انوار الشمس تفتح طريقها الى اروقته ومقاصيره وحنائيه والى قناطره واعمدته حتى غمرت كل ناحية من نواحيه .

لقد راح بحيرا يتساءل عن معنى هذه الغبطة التي تغشى الناس والطبيعة معا . وكان يقول :

— الا تحسون هذا الذي احسه فاني ليخيل الي ان الارض التي تعبت من المآسي قد بدأت تستريح ، الا ترون معي هذا الجمال الذي يغشى الانسان والحيوان والنبات ؟ ولما جيء بالطفل وثب ابوطالب اليه واحتضنه وجعل يعبث بشعره المستفيض على كتفيه وهو يهمس :

— اي بحيرا : الا ترى وداعة هذا الطفل ؟

— يخيل الي انك تحب الاطفال كثيراً ؟

— من منا لا يحب الطفل ؛ بل اي الرجال لا يأنس بالطفولة ولا يتعبد لها ؛ ان حبك للطفولة احفل بالروعة من اي حب آخر ، ذلك بأنها مسلاة الشيخوخة وملهاتها ، وخفقة الماضي في صدر الشيخ الذي يتوكل على عصاه ، بل هي بناء جديد في طلال عتيق . . .

لقد كان ابي عبد المطلب يحتضن هذا الطفل وكنت الحظه بيكي كلما حذق

الى ملاحظه بل كنت اراه افرح بالحياة منه امر : وحينما كنت اسأله اتجبه ؟
كان يقول لي « انني ارى في صورته شمس حياتي الغاربة في نضرة جبينه نضرة
جبيني في عمري الأول . وفي وسوسة ضحكة مرح حياتي الزاهية وضحكها وكان ليتم
هذا الطفل روعة في قلب ذلك الشيخ الوقور ! وفي بعض الليالي كان ابي يخرج
من حجرته والرقاد العميق يطوي في سكونه احلام بنيه ، فكنت اراه
بدلف الى حجرة هذا الطفل في كثير من الرفق والتؤدة حتى اذا الفاه نائماً راح
يرسل الى فضاء الحجرة قبلاته العذبة الندية ثم ينيء الى مرتعه وكل حركة منه
وسكنة ونظرة تم عن حب وحذب فكنت اسأله « ماذا فعلت في ليلك هذا ؟
فكان يقول لي « صه ، ان لابن اخيك هذا لشأنا . . انطلق اليه وانظر اي وداعة
تظلل جبينه ، واي نور يملأ وجهه ،

وقد مات ابي وهو شديد الكلف بهذا الطفل فاورثني حبه وكلفه ،
فدلف بحيرا الى ناحية الطفل ولحظه لحظاً شديداً ثم استنلى قائلاً :
— ما اسمه ؟

— لقد دعاه ابي محمداً ،

— ما اعذب هذا الاسم ، بل ما اعذب نظرات هذا الطفل الصييح الوسيم
فان بها لصفاء السماء ، وعذوبة الماء ؟

واقترب بحيرا من ابي طالب ، والطفل لا يبرح بسين ذراعيه ، مطمئن النفس
لا يتبرم بهذه الأشياء التي تعرض له ، فتقدم بحيرا منه وتناول يديه ثم مضى يحدق
اليه تحديقاً طويلاً !

خيل الى الراهب وهو ينظر الى الطفل انه مأخوذ بحلاوة نظراته ، فما استطاع
ان يرفع عينيه وظل يحدق اليه حتى غابت تصوراتاه وهو اجسده في نظراته ، ثم
مالث ان يغرق في لجة حلم عميق فخلعت اجسده الى عالم بعيد يمور بذكريات

ماضية قديمة كادت تضمحل في نفسه فجاء الطفل اليتيم يستجيشها ويستثيرها ثم رفع عينيه الى ابي طالب وقال :

— امن الممكن ان اكون حالمًا ؟

فلم يفقه ابو طالب هذا الذي اراده راهب بصرى فسأله قائلاً :

— ما الذي ادهشك في الطفل ؟

فهمس بحيرا في اذني ابي طالب :

— ناشدتك الله ان تبعد هؤلاء الناس قليلا فاني محدثك بامر جليل ،

فشخص ابو طالب الى ناحية رفاقه واراد اليهم ان يتواروا قليلا ففعلوا ثم عاد

الى الراهب قائلاً :

— ماذا رأيت ؟

فصاح بحيرا وهو لا ينفك شاخصاً الى السماء !

— امنحني ايها الاله القدير الرحيم الاشراف والذكاء كما منحت هذا الطفل

البهاء والضياء ، ثم التفت الى ابي طالب وسأله قائلاً :

— ماذا قال لك ابوك عن هذا الصغير ؟

— قال لي « ان لابن اخيك هذا لشأنا

— لم يخطيء ذلك الشيخ الوقور في هذا الذي افضى به اليك ، واراد بحيرا ان

يتحدث الى الصبي فدلف اليه خاشعاً وقال له

— يا غلام اسألك بحق اللات والعزى الاما اخبرني عما سألك عنه وانما قال ذلك

لانه سمع بعض قريش يحافون بها (١) فخدجه الطفل طويلاً ثم قال له هادئاً وادعا

— لا تسألني باللات والعزى شيئاً فوالله ما ابغضت شيئاً قط بغضها (٢)

— بالله الا ما اخبرني عما سألك عنه فقال له سلمي عما بدالك فجعل يسأله

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٧١

عن اشياء من حاله ونومه وهيئته واموره والطفل يخبره وبحيرا في صمت مهيب،
واطراق غريب ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه وكان الانفعال قد
استطال على مشاعره فالتفت الى ابي طالب وقال له :

— ذكرت لي انه يتيم ؟

— نعم .

— وذكرت لي ان اياه مات وامه حامل به ؟

— نعم .

— وذكرت لي ان جده كان يتوقع ان يكون له شأن عظيم ؟

— نعم .

— اذن فاعلم ان ابن اخيك هذا نبي ..

فقال ابو طالب .

— وما النبي ؟

— النبي هو الذي يوحى اليه من السماء فينبئ به اهل الارض (١) لماذا اخذتك

الرعدة ؟ ان هذا الطفل سيكون عظيما في احسانه الى الناس ، وهو سيدعو الى ديانة
مهدية تصقل العقل فلا يضيء الا لفهم الحقيقة والفضيلة والصداقة واحترام المرأة
ومحاربة هذه الوثنية التي تغمر العقل بظلماتها ودجناتها لي وسيكون الانشودة الهائلة
التي تغنيها الانسانية الفاضلة في المستقبل .

— ولكني اخاف عليه هذا الذي تقوله فانه يتيم .

— لقد عاش النديون الذين تقدموه ايتاما ، ولكن العالم على رحبه وامتداده ما

لبث ان اصبح اسيرة هؤلاء الذين مشوا في الظلمات ليطلوا على النور

ان النبيين والرسول لا يجدون تلك الحواجز التي تفصل بين كيانهم

والحياة العظيمة التي تخترق العالم فهم يعيشون منسجمين في الطبيعة وعناصرها كانوا

بعض الطبيعة وكأن الطبيعة نفسها بعض تفكيرهم واحساساتهم .

لقد عاش موسى النبي يتيماً ايضاً ، وعاش مضطهداً مروعاً لا اسرة له ولكن الطبيعة كانت اسرة هذا اليتيم العظيم الذي حمل يده الى البشر اول مصاييح الفضيلة بل لقد كانت الطبيعة تعيش في تأملاته وكانت تأملاته تقبس نشاطها وامرأها من الطبيعة ، ثم لم يمض زمن حتى كانت ثمة انسجام بين موسى والطبيعة بين النبي وبين العالم الذي عاش فيه .

وكذلك عيسى فانه ولد يتيماً مروعاً من اعدائه مضطهداً في قومه ، ولكن هذا الروح السامي الذي ارسله الله داعياً الى السلام ما لبث ان وجد في العالم الاسرة الحادثة الشفيقة .

ان النبين وكذلك عظماء الرسل لا يعيشون في كفاح ونضال مع الطبيعة ولكنهم يعيشون معها في توافق وانسجام .

وسيعيش هذا الطفل اليتيم كما عاش موسى وعيسى ولكنه سيطل في النهاية على عالم يحبه ويشعر انه متصل به .

عد ايها السيد ابن اخيك الى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم (١) وسيدين له العرب ويملك الروم والعجم (٢)

فلبعت عينا ابي طالب ببروق غريبة وانثى قائلاً :

— اتخشي على ابن اخي اليهود ؟

— نعم

— ولكنك نسيت شيئاً واحداً كان ينبغي الا يفوتك .

— وذلك الشيء ؟

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧١

(٢) تاريخ ابن عساكر ١ ص ٢٥٤

— كنت احب الا تنسى ان ابن اخي هذا يمش تحت كني ورعايتي وان في قدرتي ان ارد عنه عادية اليهود بسيفي هذا .

وراح ابو طالب يذرع ارض الغرفة جيئة وذهابا وعيناه تنظران الى ابن اخيه تارة والى الراهب تارة اخرى ثم وقف ينظر شارد الذهن الى الراهب كأنه يريد ان يتسرب الى اعماق نفسه وراح متسائلا :

— من اين جئت بهذا كله ؟ من ذا الذي قص عليك هذه الاحاديث ؟ نعم من ادراك ان ابن اخي سيكون نبيا ؟

— لقد قرأت ذلك في الكتب القديمة وسمعت كثيرين من الرهبان يتحدثون عن النبي بحماسة وكان وصفهم منسجما مع هذا الذي رأيته في صفات هذا الطفل النبيل فترقرقت الدموع في عيني ابي طالب كأنما نفس حديث الراهب عن صدره ولكنه ظل صامتا كالدمى وبقيت عيناه شاخصتين الى طلعة ذلك الصبي الجميل ثم استفاقت خواطره في نفسه ، فحملته الى ذلك الماضي الذي لم يسلم من عمره عشرة اعوام وحلفت به في افق حوادثه وصروفه فاذا هو يذكر موت اخيه عبد الله والد هذا اليتيم العظيم فاغمض عينيه حتى لا يطرقه خيال هذه الذكرى الشجية ثم طفق يذكر تلك الليلة التي ولد فيها هذا الصغير الكبير وكانت جزيرة العرب كلها مروعة مذعورة يحتاجها الاحباش الذين اغاروا من كل الاطراف لهدم كعبتها المقدسة ، ثم ذكر كيف نزع ابو عبد المطلب الى الكعبة ضارعا با كيا شاجنا ، بينما ابرهة صاحب الفيل يوغل في الزحف الى البلد الآمن ، ومرت بخياله المحتدم ذكرى هائلة تحت ذكرى صاحب الفيل ، فغيل اليه انه يرى هزيمة الاحباش وارتدادهم عن الكعبة فاذا شفتاه تتبسمان ، واذا عيناه تو مضان ، فاقبل على بحيرا وهو اشد ما يكون مرحا وقال له :

— لم يخطئك حدسك ، فان هذا الطفل عظيم وجليل ، وليس ادل على عظيمته وجلاله من ذلك النصر اللامع الذي ادركته قريش في ليلة مولده فبينما كان الاحباش

يوغلون في الزحف الى مكة يقتلون ويأسرون ، وينهبون ويسبون اخذ نجم هذا
الطفل يتألق في آفاق جزيرة العرب . وفي تلك الليلة الرائعة انهزم الأجباش
وارتدوا عن بلاد العرب .

واقبل ابو طالب على الطفل يقبله في كثير من الخنو والعطف والحب ثم قال له :

— الا تسمع يا ابن اخي ما يقول ؟ (١)

فاجاب الطفل قائلاً :

— اي عم لاتنكر لله قدرته (٢)

فاحتضنه ابو طالب كرة اخرى وطفق يغمره بسيل دافق من قبلاته وراح

بحيرا الى ناحية في حجرته يصلي ويحجم

— لقد آمنت برسالتك ايها النبي العظيم .

وفي المساء اكلت قريش على مائدة بحيرا ، وكانت الازهار والأثمار تغطي

المائدة وظلال الشفق الساجية المطمئنة تغمر مشوى الراهب الغارق في لجة من

الخضرة والرياحين ، وامضى الراهب زلفاً من الليل الى جانب ضيوفه وهو يتحدث

اليهم عن موسم عكاظ المقبل وعيناه لاتفارقان طلعة الطفل وقد وجد فيها كثيراً

من العزاء والرجاء .

وفي صباح اليوم التالي ودع ابو طالب بحيرا فقال له الراهب :

— اذا جئت في العام الجديد الى دمشق فلن تجدني هنا في هذا المشوى !

فبهت ابو طالب وقال له :

— اذن فاين اجدك ؟

— لا ادرى ! فاني ليخيل الي ان اوراق ايامي حالت الى هشيم فاذا تحيفها

خريف عاصف في العام المقبل راحت متناثرة .

(١) تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ٢٥٣

(٢) تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ٢٥٤

- ولكنك قوي وصليب والحياة تبسم في وجهك ؟

- ولكن الحياة حلم مشعشع لا يلبث ان ينطفيء تحت عصف رياح الموت

فاذا قدر الله ان تنهار صروح ايامي فانك واجد في بيعتي هذه راهباً يحذب اشد الحذب على ابن اخيك فلا تتردد في الأضواء الى نصابه .

- من يكون هذا النصيح ؟

- هو نسطوراً الراهب

- سأفعل هذا الذي اردت .

واستتلي بحيرا قائلاً :

- ليس هذا الذي حدثتك به حلمنا في الكرى او خيالنا من الخيالات ، بل هو

الحقيقة الطاهرة الصافية . فاحفظ ابن اخيك من اليهود فانهم قوم اعتادوا ان يصعدوا الانبياء !

- سأعمل بنصحك الى النهاية .

وتصافح الرجلان .

وبعد قليل غادرت قافلة ابي طالب ضاحية بلاس عائدة الى مكة ولم تدخل

دمشق مساوقة لنصائح بحيرا .

عاد الراهب الى مشواه في الضاحية بعد ان ودع ابا طالب وصحبه وظلت صورة

الطفل تطفو في عينيه الى المساء . فلما سجا الليل وقف على الشرفة المطلة على السهول

والمراعي فاذا عيناه تريان القافلة وهي ماضية في طريقها فجعل يحدق الى الفضاء

تحديقاً متواصلاً والقمر يريق انواره على القافلة حتى ليكاد يغمرها .

وازدحمت الهواجس في نفسه فكاد اكثر من مرة يسقط على حضيض العرقة

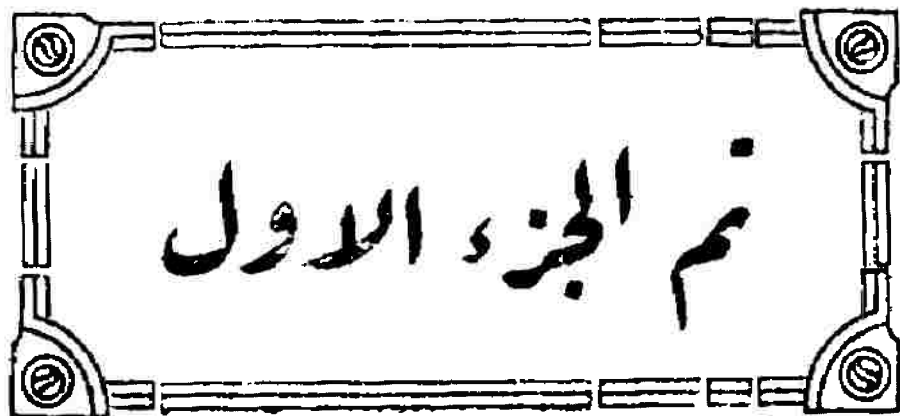
تحت تأثير ذلك المشهد الخالب الذي عرض لعينه ولكنه استصرخ شجاعته وجلده

فاذا خاداره الحلوع الجازع يطأين وتركه . ورأى في الصلاة عزاء النفس الوالهة

الجافة فترك الشرفة الى ناحية منعزلة وراح يصلي هامساً .

— لقد آمنت برسالتك ايها اليتيم العظيم .

وكان يقول ذلك باكياً شاجناً .



ملحق تاريخي لرواية سيد قریش

الدولة الفسائية في الشام اذينة والرومان

اراد الرومان بعد ان تبسطوا في الشام والعراق ان يقيموا بينهم وبين الفرس دولة يمنعون بها تدفق الفرس على تخوم بلادهم فوضعوا اسس هذه الدولة في شرقي الشام وربطوا بها بعض العراق وولوا اذينة بن السميزع سيد عرب الشام عليها ومنحوه لقب « فيلارك » وكانت ولاية اذينة في منتصف القرن الثاني للسيد المسيح اي في عصر ماركوس اورلوس سنة ١٦٥ ، للبلاد وقد تمكن الرومان بفضل تعاقدهم مع اذينة من احتلال العراق وعقد معاهدة رابحة مع الفرس .

ملوك الشام

ولما مات اذينة وانقرض نسله في اواخر القرن الثاني ١٩٠ ، للبلاد ورث الامر في الشام بنو سليح من قضاة وكانوا قد هاجروا من تهامة الى فلسطين اثر نزاع استطال امده بين قضاة ونزار على ان مؤرخي العرب يؤكدون ان اذينة لم يمت بلا عقب ، بل لقد ورث الامر من بعده ثلاثة من بنيه هم حسان بن اذينة بن السميزع وزهير بن حسان بن اذينة وعمرو بن زهير ، وكان هذا الاخير موالياً لعرب العراق حلفاء الفرس وقد قتل في حرب مع الضجاعة . ومن المقارنة بين تاريخ موته وتاريخ انقراض حكم الضجاعة في انشام سنة ٢٦٨ للبلاد يمكن القول انه ولد بين سنة ٢١٠ وسنة ٢١٥ للسيد المسيح واذا جاز لنا ان نعتبر حياة جيل من الناس ثلاثين سنة

جاز لنا القول ان جده الاعلى اذينة ولد سنة ١٢٠ او سنة ١٢٥ وان هذا الجد الاعلى ولي امر الشام والعراق سنة ١٦٥ .

ملكة تدمر

وليت الامر بعد موت عمرو امرأته الزباء وقيل انها ابنته فبلغت من امتداد السلطان واتساع الملك مالم يبلغه طامح . على ان شخصية هذه المرأة العجيبة التي لعبت دوراً جسيماً في التاريخ القديم كانت محاطة بمناقضات كثيرة فاذا ازحنا عن حياتها جميع الاساطير التي رواها مؤرخو العرب امكنا ان نرى بينها وبين زنوبيا ملكة تدمر وحليفة روما شها عظيماً وهذا الشبه وحده هو الذي يحملنا على ان نجعل من زينب العرب وزينب الرومان شخصية واحدة لامرأة واحدة .

اذينة

اعتقد ان اذينة بن السמידع ملك العرب في تدمر ليس الا اذينة بن سبتيموس ابن اريناس بن وهب اللات . يؤيد ذلك بحث جليل القيمة نشره العلامة مسيو سان مرتين في مجلة ميشو الافرنسية واستند فيه الى اثار الرومان واللاتين ومن كلام العالم الافرنسي يتضح لنا ان اسرة اذينة كانت مرتبطة مع الرومان بمعاهدات ونصوص وان امراءها كانوا ينعمون باللقاب ضخمة في مقابل دفاعهم عن النفوذ الروماني في الشام ضد امبراطورية الفرس .

اقوال سان مرتين والمؤرخ ابن سعيد

تطابق اقوال العالم سان مرتين من هذه الناحية اقوال المؤرخ العربي ابن سعيد ولا تشذ عنها الا في التفاصيل .

قلت ان اذينة الاول المعروف بابن السמידع كان من معاصري ماركوس اورلوس ومن حلفاء الرومان وازيد على ذلك ان لقب سبتيموس الروماني الذي حمله والد اذينة واذينة نفسه قد حمله ابن هذا من بعده واضيف اليه اسم الامبراطور

مع جميع حقوق المدينة وقد ظل هذا الملك ارثاً يتقلب في اسرة اذينة وفي عصر سبتيم سيفره سنة ٢٠٠، منح هذا الامبراطور اسرة اذينة جميع الحقوق التي ينعم بها المواطن الروماني . وهاك ماقاله العالم سان مرتين في مجلة ميشو :

في سنة ٢٤٨ كان بريسكوس والياً على سورية باسم اخيه الامبراطور فيليب العربي وكانت ادارته قاسية وظالمة فثارت عليه البلاد واشتركت الجالية الرومانية في تدمير في هذه الثورة واعلنت استقلال تدمير وكان اذينة في ذلك العهد عضواً في مجلس الشيوخ الروماني واميراً « فيلارك » على جميع عرب تدمير فانتخب ابوه اريتاس « حارثة » ملكاً على تدمير واصبح اذينة بعد انتخابه قائداً عامساً للجيش تدمير ولما مات اريتاس « حارثة » ولي الامر من بعده ابنه اذينة سنة « ٢٠٢ » ويظهر ان اذينة كان مسوقاً الى الاستعانة بالفرس لتوطيد استقلاله خالف سابور الاول بن اردشير وكان هذا قد اجتاحت سورية ووضع يده على انطاكية وعلى اثر هذه الحادثة ساق الامبراطور فالريان الجيوش الجرارة من روما وهزم سابور فرجع هذا الى بلاده ورأى اذينة ان يتقلب على حليفه ففعل وغزا ساقا الجيش الفارسي غزوة النيمة ثم عاد وقرأ بالمغانم .

اذينة وسابور

كانت بداية حملة الامبراطور فالريان ضد سابور مكلفة بالفوز ثم لم يلبث الحظ ان تنكر لقيصر الرومان فسقط اسيراً في يدي عدوه فارسل اذينة الى سابور وفداً مزوداً بالهدايا ليستميله الى مخالفته كره اخرى ولكن سابور الذي نجح في اجتياح سورية لم يشعر باقل عطف على اذينة فمزق رسالته ورمى بالهدايا التي ساقها اليه في نهر الفرات واقسم على قتل اذينة وبنيه اذا قدر له ان يظهر بهم .

اذينة ينتصر

ادرك اذينة ان لارجاء له في ولاء سابور فلاذ بشجاعته وحدها ورأى ان لاندحة

له عن البقاء على ولاء الرومان فخذ عرب الشام وبعض الرومان واعلن الحرب على سابور فانتصر عليه وانقذ انطاكية واجبر عدوه على الارتداد الى بلاده ثم لحق به حتى لقيه على ضفاف الفرات ومع سابور نساؤه واطفاله وكانت المعركة على ضفاف الفرات من اعظم المعارك التي عرفت في سورية في تاريخها القديم وذلك ان سابور خسر فيها جيشه ونساءه وبنيه ثم عبر اذينة النهر متأثراً خطي العدو ومجتاحاً المدن والقرى في ارض العراق وقد امتد زحفه الى عاصمة سابور فاقام على محاصرتها ثم اضرم فيها النار !

بعد النصر

اصبح اذينة بعد هذا النصر اللامع صاحب الامر في العراق والشام فلقب نفسه « بالملك » ولم يعد هنالك عدو يخشاه ويتحاماه غير الرومان الذين انقذهم بشجاعته واعماله وقد حدث ان توالى على اذينة ظروف وصروف سياسية اضطرت به الى رفع الحصار عن عاصمة سابور فارتد الى سورية في نفس اليوم الذي نادى فيه جيوش الرومان في الشرق بمكريان امبراطوراً رومانياً فذهب قيصر الجديد الى اوربه لينازع الامبراطور غاليان السلطة وترك في سورية قائده بليزات وابنه كوتيوس وناط بهما حماية سورية والسهر عليها فلم ير اذينة بداً من الانضمام الى غاليان الذي لم يكن ينافسه على السيادة في سورية فاعلن الحرب على كوتيوس وبليزات ودمر جيوشهما تدميراً .

اذينة امبراطور الشرق

رأى غاليان ان يحزل ثواب اذينة فولاه امر الشرق كله وابعاح له ان يضرب النقود باسمه ففعل وظهرت هذه النقود وعليها صورة اذينة المنتصر وتحت قدميه فلول من الفرس المغلوبين ولما كان النصر يفعل في النفوس ما تفعله النار في الهشيم فقد كان طبعياً ان تنمو طمحات اذينة وتقوى اطماعه فلبس في سنة ٢٦٣ الأرجوان وهو

لباس القياصرة برغم ارادة غاليلان الذي رضي في النهاية بان يقتسم الامبراطورية الرومانية مع اذينة .

مصرع اذينة

في سنة ٢٦٤ سار اذينة بحملة جديدة للاستيلاء على فارس فانتصرت جيوشه وحاصرت عاصمة سابور وبينما كان اذينة ثملا من هذا النصر الجديد الذي احرزه على اكبر امبراطورية في العالم القديم اغارت جيوش البرابرة على آسية الصغرى ثم امتدت الى بلاد الشام فزحف اذينة الى هؤلاء البرابرة المترحشين وارغمهم على الارتداد والتراجع وعاد الى بلاده موقراً بالمجد وفي سنة ٢٧٦ قتل اذينة بمدينة حمص وسط حفلة رائعة دعا اليها اشراف الدولة وكبراءها وكان قله بيد ابن اخيه الذي سعى الى ان يرثه على عرش تدمر فذهب سعيه سدى .

الاعشى الشاعر واذينة

ولقد كانت انتصارات اذينة اراثاً ماجداً ورثته جاهلية العرب ، ورضي به الاسلام كرائعة قديمة واخذ الشعراء الذين شهدوا بداية الاسلام يشيرون الى مجد اذينة والى النهاية التي انتهى اليها فمن ذلك قول الاعشى :

ازال اذينة عن ملكه واخرج عن اهله ذا يزن

هذه هي رواية العالم سان مارتين اما مؤرخو العرب فيلوح انهم كانوا لا يجهلون فحسب اروع ما حدث في عصر اذينة بل كانوا لا يعرفون من امرها شيئاً كما كانوا يجهلون مصائر رجال أسرة هذا الملك العظيم .

زنوبيا والزباء

ولا نريد هنا ان نتكلم على الأقاصيص والاساطير التي كتبها مؤرخو العرب عن الزباء وريثة اذينة فان امر ذلك معروف عند الجميع وانما نريد ان نكشف للذين قرأوا سيد قریش عن زنوبيا او الزباء مستندين في ذلك الى مصادر لها شديد اتصال بالتاريخ

لم يذكر مؤرخو اللاتين واليونان شيئاً عن اصل زنوبيا التي خلفت زوجها اذينة على العرش سنة ٢٦٧ ولكنهم اقتصرُوا على القول انها آتت الى الأسرة السامية وزادوا على ذلك انها كانت على علم وثيق باللغات السريانية والعربية والمصرية واللاتينية واليونانية ويقول مؤرخو العرب مثل هذا القول ويؤكدون ان الزباء كانت عالمة بلغات العرب والرومان والمصريين ولما صعدت زنوبيا العرش انزلت اشد العقاب بقتلة اذينة فهي اذن كالزباء العربية التي تأرت بزوها عمرو من قاتليه وهي اذن مثلها ملكة تدمر وصاحبة الامر والسلطان في الشام والعراق يقول الطبري ان الزباء بنت القصور والحصون وحسنت التجارة ووسعت المرافق ، ويقول مؤرخو الروم عن زنوبيا مثل هذا القول ، ويقول الطبري ان كثيرين من اليهود كانوا رعية الزباء ويقول القديس اتانس ايضاً ان زنوبيا كانت على اليهودية وانها على يهوديتها لم تفكر في انتزاع كنائس النصارى .

ويطري مؤرخو العرب جمال الزباء ويقولون انها كانت من احزم النساء ماروي في نساء زمانها اجمل منها ويذهب مؤرخو اللاتين والرومان الى اطراء جمال زنوبيا وامتداح شجاعتها ، والزباء عند العرب امرأة موفورة الشرف والدهاء والسياسة والحيلة وزنوبيا عند الرومان من هذا الطراز وكما ان زنوبيا وقعت في اسر اعدائها الرومان بينما كانت تهم بعبور الفرات على زورقها فكذلك هو شأن الزباء فقد ذكرت الاسطورة العربية انها اتخذت لنفسها نفقاً في حصن كان لها على شاطئ الفرات وسكرت الفرات في وقت قلة الماء وبنت في بطنه ارجاً من الآجر والكلس متصلاً بذلك النفق وجعلت نفقاً آخر في البرية اجرت عليه الماء فكانت اذا خافت عدواً دخلت النفق ولما دخل اعداؤها قصرها هربت تريد السرب فوجدت قصيراً وهو احد المتأمرين عليها قائماً عنده بالسيف فانصرفت راجعة واستقبلها عمرو بن عدي فضرها وقيل بل مصت خاتمها وقالت « ايدي لا يبد عمرو » فانت ترى من ذلك ان هنالك شها عظيماً بين خاتمة زنوبيا الرومان وزباء

العرب وان اورليان الذي قتل زنوبيا صورة طبق الأصل لعمر بن عبد قاتل الزباء
ملوك الشام الضجاعة

بعد موت الزباء او زنوبيا انقرضت اسرة اذينة بن السميدع ودخل امرها في
حكم النسيان فرأى الرومان ان يولوا امر عرب الشام اسرة ملكية من قضاة
« سنة ٢٧٢) ففعلوا وتعاقب على الشام ثلاثة من الملوك نعموا بلقب فيلارك
الروماني وهم: النعمان بن عمرو بن مالك ، ثم من بعده ابنه مالك. ثم ابنه عمرو بن مالك
وقد ارتضى جميع هؤلاء النصرانية ديناً وكان انقراض هذه الاسرة سنة ٢٩٠ .

هجرة الغساسنة الى الشام

لم تقم في الشام في العصور التي تقدمت الاسلام دولة اطول عمراً من الدولة الغساسنة
بعد انقراض دولة الانباط العربية ودولة تدمر ومع ان امر غسان ظل مرتبكاً
قلقاً عند مؤرخي العرب لأسباب يرجع معظمها الى سياسة خلفاء العصر العباسي
فقد استطاع مؤرخو الروم واللاتين ان يزيحوا النظاء عن دولة الغساسنة واثرها
في التنافس القائم بين الفرس والرومان .

ولسنا هنا في حاجة الى ذكر تفاصيل هجرة الغساسنة من جزيرة العرب الى
الشام فان امر ذلك معروف في كتب التاريخ والشيء الذي نريد اقراره هنا هو
ان نشير الى الدور الجسيم الذي لعبه ملوك هذه الدولة في الحروب والعلاقات
السياسية بين الفرس والرومان .

لما نزل الغساسنة باطراف بصرى وتوزعوا في بادية الشام احنق عملهم ملوك
البلقاء من بني سليخ الضجاعة فكتب هؤلاء الى قيصر الرومان يسألونه عما ينبغي
لهم ان يعملوه حيال المخيرين فكتب قيصر الى فيلارك البلقاء ان دعمهم وشأنهم ولا
تعرض لهم بسوء ثم اراده على ان يأخذ منهم الجزية نثارت كبرياء غسان واعتدت
الجزية زراية بكرامتها ثم نهدت الى سلاحها فحملته لتقاتل الضجاعة بني سليخ ولكن
امراءها لم يوقفوا في هذه الحرب فارتدوا على اعقابهم وقبلوا الجزية .

ثم مجددت المعارك بين غسان وسليخ في مشارف البلقاء وعلى اطراف بصرى
وكان الرومان في شاغل يشغلهم عن الاهتمام بمصائر حلفائهم الضجاعة وذلك
لانصرافهم الى محاربة الفرس ولم يكن يشجهم كثيراً ان يزول اسرة حاكمة في
الشام لتحل مكانها اسرة حاكمة فتشجع موقفهم هذا الفساسة فاستمروا في الحرب
حتى ازاحوا الضجاعة وملكوا الارض بعدهم وقد تم ذلك في سنة ٢٩٢ اي في
عصر بهرام الثاني ملك فارس وديوسوليسيان قيصر وقد تمكن الفساسة بزعماء
عظريتهم ثعلبة من حمل الرومان على الاعتراف بنفوذهم في الشام .

ملوك غسان

من الامور الصعبة ان يعرف الانسان عدداً حقيقياً لملوك آل جفنة الفساسة
فان مؤرخي العرب انفسهم منقسمون في ذلك انقساماً بيناً فحمزة وابو الفداء
منفقان على ان الملوك من آل جفنة يعدون اثنين وثلاثين ملكاً حكموا في اربعة
عشر جيلاً وابن الدمشقي يقول انهم يعدون اثنين وعشرين ملكاً وابن سعيد يقول
ان ملوك غسان لم يكونوا اكثر من خمسة عشر ملكاً اما الثعالبي وابن قتيبة وابن
عمر شاه والمسعودي فيصرون على القول ان عدد هؤلاء الملوك لا يزيد على عشرة .
ولكن المستشرق الافرنسي الكونت دي ساسي يميل الى اقرار رأي حمزة
وابي الفداء ويشذ الاستاذ نولدي الالماني مؤلف كتاب امراء غسان عن رأي
الكونت دي ساسي فهو يؤكد ان ملوك غسان الذين عرفهم الرومان كانوا ستة
عشر ملكاً ولكن الواقع هو غير ما ذكره نولدي وغير ما ذكره الثعالبي وابن قتيبة
وابن عمر شاه والمسعودي وذلك ان حكم الفساسة في الشام امتد من القرن الثالث
الى القرن السابع فلا يعقل ابداً ان يتعاقب على الملك خلال هذه المدة الطويلة ستة
عشر ملكاً والمعروف عن اول ملوك غسان انه سمي ملكاً سنة ٢٠٥ وان آخر
ملوك هذه الاسرة وهو جيلة بن الابهيم وضع على رأسه التاج سنة ٦٢٣ اذن فرواية
حمزة وابي الفداء هي الصحيحة .

غسان والنصرانية

كانت النصرانية في الشرق الديانة الحاكمة ويقول ابن حمزة والمسعودي ان النصرانية كانت ديانة بني سليخ ولكن كوسين دي برسفال صاحب كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام ينكر انتشارها في قبائل الازد والخزرج التي هاجرت من جزيرة العرب الى الشام وهو يؤكد ان ثعلبة منشيء الأسرة الغسانية بقي على دين اهل الجاهلية مع بنيه فلم يتنصر ولا يعني هذا ان الغسانية لم يكونوا نصارى بل الواقع هو ان النصرانية تسربت الى غسان في عصر قسطنطين قيصر اي في ايام جبهة الأول ويقول المؤرخ اليوناني سوزومين ان اميراً عربياً تنصر في عصر الامبراطور فالانس لجارته قبيلته وقربه قيصر منه واغدى عليه الانقلاب والهدايا والمنح واستعان به في حروبه ضد الفرس وروى المؤرخ اليوناني لوكين مثل هذه الحادثة فهو يؤكد ان اميراً عربياً قد تنصر على يدي قسطنطين قيصر وكان الامير العربي سيداً على قبائل فينيقية وفلسطين وليس من شك ان المؤرخين اليونانيين يتكلمون هنا على امراء غسان لأن بعض هؤلاء كانوا ملوكاً في فينيقية وفلسطين .

في سنة ٢٦٦ خرج الامبراطور جوليان من انطاكية عن طريق هيرابوليس « منبج » وكانت عاصمة الفرات لذلك العهد وكان قد بعث الرسل الى القبائل العربية ودعا زعماءها الى موافاته في كالينيسوس « الرقة » على شاطئ الفرات فحفوا اليه ومعهم امراؤهم ثم زاروا معسكره حاملين اليه تاجاً من الذهب فاكرم قيصر وفادتهم واستنفرهم الى قتال الفرس بجانب صفوف جيشه والغريب ان اميان المؤرخ اليوناني قد ذكر هذه التفاصيل ولكنه لم يذكر اذا كان هؤلاء الامراء ملوك الشام الغسانية او غيرهم ويعود اميان فيذكر خلافاً نشب بين الامبراطور جوليان وحلفائه العرب وبيان ذلك ان قيصر حبس عن الزعماء عطاياهم فثاروا عليه وقطعوا ساقه جيشه وحملوه الانكسار وهنالك مؤرخون يذهبون الى ان حلفاء

الرومان من العرب كانوا كلهم على النصرانية وكانت لهم اديرة عظيمة البنيان
تضاهي في جمال هندستها اديرة الروم وكانت لهم قصور لا تقل في روائها عن
قصور القياصرة .

الامبراطورية البيزنطية وغسان

شعر الرومان في القرن الرابع بانصراف العرب في الشام عن احترامهم فعدلوا
عن اساليب الادارة المباشرة الى انشاء امارات مستقلة في البلقاء وبصرى وفلسطين
وحمص وتدمر واسموا امير كل مقاطعة من هذه المقاطعات (فيلاركا) فنجح هذا
النوع من الحكم وتقدم تقدماً باهراً في القرن السادس ولكن ملوك غسان كانوا
ملوكاً على هذه الامارات باعتبار كونهم اصحاب مدينة بصرى وكانت هذه المدينة
المحصنة في عصر جوستينان عاصمة البلاد المعروفة بالبلقاء .

ولما كانت الحروب الطاحنة مستمرة بين الرومان والفرس وحلفائهم المناذرة
فقد اصطنع جوستينان الفساسنة واستعانهم في المصارك الكبرى ويقول المؤرخ
تيوفان ان اريتاس او الحارث بن جبلة كان اشهر ملوك غسان على الاطلاق وكانت
له يد طولى في انتصار بلزاريوس القائد الروماني الاشهر على جيوش كسرى .

في سنة ٥٢٩ اجتاح المنذر الثالث ملك الحيرة مدينة تدمر وتقدم منها الى
سورية وهدد دمشق ثم استولت كتائب من جيشه على مدينة انطاكية فطاردها
جيوش الامبراطور جوستينان وحدث ان اسر اللخميون في هذه المعركة فيلاركا
غسانياً فتارت لذلك حماسة الرومان والفساسنة فاجتاحوا جميع ولايات الفرات
وانتزعوها من يدي الفرس وفي نفس الليلة التي حدثت فيها هذه المعركة تغلب
الفرس في مدينة الرقة على القائد الروماني بلزاريوس (١٩ نيسان سنة ٥٣١) فخف
الى انقاذه الحارث بن جبلة بجميع من معه من جيوش غسان فاحسن قيصر ثوابه
ومنحه لقب دوق دمشق وولاه امر جميع العرب في جميع سورية .

وفي سنة ٥٤٠ هـ انتصر الحارث بن جبلة انتصاراً رائعاً على الفرس فمنحه قيصر لقب بطريق واعترف بسلطانه على فينيقيه وفلسطين وفي سنة ٥٤٤ هـ سقط ابن الحارث اسيراً في يدي الملك المنذر العراقي فذبحه هذا زلني لثلاث والعزى فاحفظ عمله الملك الحارث بن جبلة فلحق به الى قنسرين واشتبك معه في حرب قاسية قتل فيها المنذر وفي سنة ٥٦٣ هـ زار الحارث بن جبلة القسطنطينية زيارة رسمية فاستقبله على ابوابها جوستنيان قيصر وزوجه تيودورا .

ملوك الشام وملوك العراق

كانت غاية الرومان من انشاء الدولة الغسانية وتوسيع سلطانها القضاء على دولة المناذرة في العراق ولكن الغساسنة برغم جميع الانتصارات التي احرزوها في كثير من المعارك لم يوفقوا الى تحقيق هذا الغرض فقد لبث ملوك العراق ينظرون الى اتساع نفوذ الغساسنة بعين الحسد والغيرة فلم يمتنعوا عن اثارة الحروب على اطراف الامبراطورية الرومانية .

وقد كان طبيعياً والغساسنة اصحاب النصر في المعارك التي يهزم فيها الرومان ان يفكر احد ملوكهم المنذر بن الحارث بن جبلة ٥٤٩ هـ - الى ٥٨٧ هـ ، في انشاء دولة كبيرة تضم اليها دمشق وبصرى وفلسطين ولبنان ، المنذر هو احد ابطال رواية سيد قریش ، ولكن اطاعه هذه لم تخف على جوستين الثاني الذي ورث عنه الامبراطور جوستنيان في سنة ٥٧٠ هـ تجددت الحرب بين غسان والحيرة فانتصر المنذر الغساني على ملك العراق وامل الملك الشامي ان يعترف قيصر بعد هذا النصر بحقوقه في دمشق وبصرى وفلسطين فتردد جوستين في ذلك وادى ترده الى حدوث حرب قاسية بين غسان وبرزنية استمرت ثلاثة اعوام وعرف الفرس كيف يستغلون هذه الحرب في مصلحتهم فاغاروا على اطراف الامبراطورية البرزنية وافتتحوا كثيراً من مدنها فاضطر جوستين الى مصالحة المنذر وتم هذا

الصلح في حفلة رائعة امام قبر احد القديسين ويقول تيوفان ان هذا الصلح كلف جوستين كثيراً فقد تخلى على الرغم منه للملك الشامي عن قيادة جيش سورية كلها وكانت الى سنة ٥٦٩ قيادة رومانية صرفه ورضي ان يكون للمندر عامل في دمشق ومنح هذا العامل لقب « Praese » ، وهو من ابر الالقاب عند الرومان ويتمتع صاحبه بالزعامتين العسكرية والمدنية .

المندر بزور القسطنطينية

لما مات جوستين الثاني احب الملك المندر ان يساق اباه الملك الحارث في بهاء الملك وروائه فزار طياريوس الثاني مصحوباً بولديه وكان همه الوحيد ان يظهر على الشعب البيزنطي في وسط قاعدة ملكه ليريه البطل المنتصر على ملك فارس وملك العراق فاستقبله طياريوس قيصر بحفاوة منقطعة النظير واسماه حامي الارثوذكسية في الشام ومنحه لقب « Phylarche de l'empire » ، والبسه التاج شعار القياصرة بدل الاكليل في حفلة رائعة بكنيسة اياصوفيا وعند رجوع المندر الى بلاده اضطربت الحاسة في نفسه فطمع في ضم العراق الى ملكه الذي امتد واتسع بعد مصالحته جوستين الثاني وفي العام نفسه احرق الحيرة .

وقع مؤرخو الدولة الغسانية في اغلاط كثيرة فيما يتعلق بتاريخ سفر الملك المندر الى القسطنطينية فروى دى ساسي وكوسين دي برسفال وسديو ان هذه الزيارة كانت سنة ٥٧٨ وقال نولدكي وهو اكثر كتاب الافرنج عناية باثار الدولة الغسانية ان هذه الزيارة وقعت سنة ٥٨٠ وهو يستند في روايته هذه الى مصادر يونانية ولاينية وقد اعتمدنا في رواية سيد قریش ما كتبه نولدكي .

غدر قيصر بالملك المندر

خشي طياريوس الثاني صاحب القسطنطينية ان تنمو مطامع المندر فتتمد الى ارث الامبراطورية البيزنطية كما امتدت مطامع الزباء الى الاستيلاء على ارث

امبراطورية روما فازمع على التخلص من هذا المنافس القوي الذي جمع الى عنفوان البطل دهاء السياسي وكياسته ويقول بركوب احد كبار مؤرخي الرومان ان الحيلة وحدها كانت سلاح قيصر في التغلب على منافسه الشديد العنيف في سنة ٥٨٢ احاط الرومان بالملك المنذر وهو مشرف على بناء كنيسة غسانية في ضاحية تقع بين دمشق وتدمر ولم يكن معه جيش ولا سلاح ماعدا حاشية صغيرة فساقوه اسيراً الى القسطنطينية وبعث به طياريوس الى « صقلية » حيث امضى حياته في المنفى وعلى هذه الصورة تخلصت برنطية من عدو شديد لا يقل خطره عن خطر ملك الفرس .

ثورة غسان على الرومان

اثارت الآلام التي عاناها الملك المنذر في حمن صقلية حيث سجنه قيصر حماسة بنيه فتاروا على الرومان وطردهم من بصرى ثم زحف جيش غساني بقيادة النعمان ابن المنذر الى دمشق فلقه جيش عظيم من الرومان وكان القتال شديداً حامياً سقط في خلاله اربعة من قواد طياريوس هم فيليب ، وقسطنطين ، وتيودور ، وجوليان ولكن النصر الذي لازم الملك المنذر في جميع حروبه خان بنيه في هذه المرة فسقط ثلاثة منهم في الميادين ، ووقع النعمان اسيراً فاعتقله طياريوس قيصر في احدى جزر القسطنطينية حيث قضى نحبه وهو شديد الحزن الى الثأر بأبيه . وقد وقعت هذه الحوادث كلها سنة ٥٨٤

ويمكن القول ان عهد الاستقلال الغساني قد لفظ انفاسه في هذه السنة فقد قسمت برنطية الدولة الغسانية التي لبثت مستقلة الى سنة ٥٨٤ الى خمس عشرة امارة واكثر من خلق الزعماء والرؤساء لاضعاف روح القومية في الغساسنة وكانت هذه الروح قد ظهرت ظهوراً جلياً في عصر الملك المنذر .

الدولة الغسانية في القرنين الخامس والسادس

لم تكن الدولة الغسانية كما قال دي ساسي دولة بدوية لا عاصمة لها وانما كانت

دولة متحضرة وكانت لها عاصمة طائفة بالعمران هي بصرى . نعم لقد لبثت الدولة الغسانية من القرن الثالث الى اول القرن الرابع دولة حاضرة مشتتة فكانت عاصمتها تارة في جرش واحياناً في مادبا وكرة اخرى في بصرى ولكن الدولة الغسانية لم تلبث ان استقرت على وضع ثابت من القرن الخامس الى اواخر القرن السادس فكانت عاصمتها الدائمة في بصرى وكان لها سفراء في بلاط قيصر وكانت الزعامة العسكرية والدينية والمدنية محصورة في ملك غسان الذي يتمتع بحق كامل في اعلان الحرب وفي سوق الجيش الى اراضي العدو من غير ان يستشير قيصر ومع ان سورية (دمشق ، وحلب ، وانطاكية) كانت تخضع كلها لسلطة مجلس الشيوخ في القسطنطينية ومع ان قيصر كان القائد الاعلى لجميع جيوش الشرق فقد لبث الغساسنة في نجوة من رقابة مجلس الشيوخ ومن رقابة قيصر وكانت المدن التي يفتتحها الجيش الغساني تعتبر بلاداً غسانية واذا كانت الدولة الغسانية قد بلغت هذا المدى الواسع من الاستقلال فذلك يعود الى المهارة السياسية التي تحلى بها ملوكها من سنة ٥٢٥ الى سنة ٥٨٤ وقد كان هؤلاء الملوك يعتبرون انفسهم بحق ورثة ملوك النبط وملوك تدمر وحماة جزيرة العرب ومع ان ديانتهم كانت الارثوذكسية النبطية فقد ظلوا في معزل عن تدخل بطاركة القسطنطينية في شؤونهم الروحية وذلك لان العصية القومية تغلبت على العصية الدينية !

بصرى عاصمة غسان

كانت بصرى عاصمة دولة الانباط العربية قبل ان تكون عاصمة الدولة الغسانية ويقول كامرر في كتابه « بتر والانباط » ان رثيال الثاني ملك النبط هو الذي تخيرها عاصمة لبلاده بعد ان ضيع الحارث الثالث النبطي مدينة دمشق وان انشقاق النبطية لم تلبث ان انتشرت في حوران حتى اصبحت ثقافة عامة في جميع نواحيه ولما قضى الرومان على استقلال دولة الانباط ابقوا بصرى عاصمة للولاية العربية

« Provincia Arabia » ، اي لجميع الاراضي التي تتألف منها دولة الانباط ، واعظم مآثره النبط في بصرى حصن بنوه على الطراز النبطي المصري — وفي العصر الروماني تقدمت بصرى تقدماً باهراً في العمران فبنى الرومان فيها مسرحها الشهير وبناء الكايتول وطائفة من القصور وكان على بصرى في ايام العصر الروماني حاكم يتمتع بوظيفة قنصلية وفي زمن الامبراطور تراجان سميت بصرى ، نواف تراجانا بصرى ، وضربت باسمها النقود وفي زمن اسكندر سيفر انقلت الى مستعمرة رومانية صرفة . ثم اعادها الامبراطور فيليب العربي المولود في شها عاصمة لسورية الثانية ومع ان اللاتينية كانت اللغة الرسمية فقد ظلت العربية لغة الناس جميعاً .

وفي ايام قياصرة بزنطية تطورت اوضاع بصرى تطوراً عظيماً فقد مر عليها القرن الرابع كله والنصف الاول من القرن الخامس وهي تدار باسم القياصرة ، ثم صارت عاصمة ثابتة لملوك غسان وظلت كذلك الى نهاية القرن السادس وقد بنى فيها ملوك غسان قصوراً وحصوناً بحيث اصبحت في القرن الخامس والقرن السادس معرضاً لأذواق الانباط والرومان والبيزنطيين والغساسنة في فن العمارة والهندسة .

وكانت ابوابها من الشرق ومن الغرب اي من صلخد الى درعا من اعجب التحاسين الأثرية .

وكان وسط المدينة بديعاً وفتاناً فقد قام فيه قوس نصر روماني الى جانب قوس نصر نبطي وقام الى جانب القوس الروماني ملعب وعدد كثير من الهياكل ، وكان يحيط ببصرى بعض المدن المتحضرة كمدينة « كافاتا » وهي المعروفة اليوم بمدينة القنوات وكانت هذه تنافس بصرى في جمال ابنتها وقصورها ومعابدها ومسرحها وكانت مدينة بصرى في القرن الخامس والقرن السادس اي في زمن تفوق الدولة الغسانية وتقدمها وانتصارها على الفرس من ارقى المدينيات التي عرفتها بلاد الشام ومن بصرى امتدت يد العمران الى جميع حوران واروع اثر غساني في حوران هو

القصر المعروف بقصر دامر القسطل من بناء المنذر بن الحارث ، من سنة ٥٧٠
الى سنة ٥٨١ .

حدود الدولة الغسانية

تألف الدولة الغسانية من جميع اراضي الدولة النبطية فهي تتصل بالبحر
الاحمر الى خليج العقبة ثم تمتد الى سورية بحيث تضم بصرى وتوغل في سهل
دمشق اما حدودها الشرقية فممتدة من خط عسكري يبتدي من ايله وينتهي بطريق
اراضي النبط و عمان الى بصرى ومن اشهر مدن غسان مأدبا وجرش اما حدودها
الغربية مما يصاقب الصحراء الشامية العراقية فموضوعة تحت ادارة غطارفة من
غسان اطلق على غطريف منهم لقب فيلارك وكانت رقابة الغساسنة ممتدة الى
فلسطين لأسباب عسكرية ناشئة عن ثورة قام بها اليهود السامريون في سنة ٥٢٥
في الحقيقة ان حدود الدولة الغسانية غير معروفة بالضبط وانما يمكن القول
ان سلطة ملوك هذه الدولة كانت في القرن الخامس وبعض القرن السادس ممتدة
الى فلسطين والاردن و حوران و غوطة دمشق وتدمر وكانت في عصر المنذر
الغساني تمتد الى الفرات .

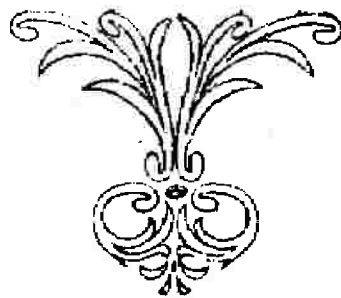
نظام الجيش الغساني

عبرت الامبراطورية البيزنطية في القرن السادس عن اساليب الرومان العسكرية
القديمة فالقت الجيش من ثلاث وحدات ، وحدة الجيوش المخالفة ، ووحدة
جيوش الامبراطور ، ووحدة الجيوش المساعدة فكانت المخالفون من الغساسنة ،
وقد احاطهم الامبراطور جوستنيان بكل مظاهر التكريم والاجلال فزعمهم من
الذهاب الى المستعمرات البيزنطية في اوربة فظل عملهم مقصوراً على الدفاع عن
حدود بلادهم وكانوا يتلقون الاوامر من ملوكهم وزعمائهم وقد اخرجت غسان
قواداً من الطراز الاول حاربوا في صفوف بلزاريوس القائد الروماني الأشهر

وامتاز هؤلاء على قواد الرومان بالشجاعة والمغامرات وكان بعضهم يتمتع بلقب دوق ولقب بطريق ، وروى بركوب ان حرس جوستنيان كان من خيرة فرسان الفساسة .

والخلاصة ان الدولة الفسانية على ضئولة اخبارها كانت عنصراً مهماً في حياة سورية الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، فمن اراد التبسط في معرفة مصائر الإمارات التي قامت بعد انقراض الدولة الفسانية فليراجع روايتنا الجديدة :

﴿ عمر بن الخطاب ﴾



مصادر الجزء الاول من

(سيد قریش)

الكتب العربية

الاغانى ، تاريخ ابى الفداء ، تاريخ ابن الاثير ، الطبرى م.

الكتب الاجنبية

تاريخ العرب لسديو ، تاريخ العرب لهيار . تاريخ فارس القديمة لهيار ، تاريخ العرب قبل الاسلام لكوسين دي برسفال ، تاريخ دولة النبط لكامرر ، تاريخ امراء غسان للاستاذ نولدكى ، كتاب برنطية للاستاذ شارل دوهل م.